

الدكتور محمد الجوادى

شمس الأصيل في أمريكا



جهاد للنشر والتوزيع

شمس الأصيل في أمريكا

شمس الأصيل في أمريكا

من أدب الرحلات

الكاتب:

د. محمد الجوادى

الطبعة: الثالثة ٢٠٠٣

الناشر: دار جهاد

٢٦ ش اسماعيل أباظة - لاظوغلى

ت: ٧٩٦٤٧٨٣

الغلاف: الفنان محمد حجى

الخطوط: محمود إبراهيم

رقم الإيداع: ٢٠٠٣/٧٨٤٩

الترقيم الدولى: 977-5684-70-6

الدكتور محمد الجوادي

شمس الأصيل في أمريكا

جهاد للنشر والتوزيع
٢٠٠٣

إهداء

إلى روح عاشق النشر،

الأستاذ محمد المعلم

المثقف العربى العظيم

د. محمد الجوادى

مقدمة الطبعة الثانية

قد لا أكون قادراً على حمد الله سبحانه وتعالى أن هيأ لى الفرصة لأكتب مقدمة الطبعة الثانية من هذا الكتاب، ومع عجزى عن الوفاء بحق الحمد والشكر له جل جلاله فانى أرجوه أن يهدينى إلى السبيل الذى يمكننى به من حمده على هذه النعمة المسداة.

بدأت كتابة هذا الكتاب فى كليفيلاند، وانتهيت من معظمه هناك ثم إنى عدت إلى ما كتبت وأعدت ترتيبه على هذا النحو الذى يطالعه القارىء، واختصرت أكثر من نصف ما كتبت فقد كنت حريصا على ألا يتعدى حجمه قدراً معيناً، ولهذا فإنى لم أكن اندهش حين كان القراء والزملاء يعبرون لى عن ملاحظتهم للتركيز الشديد أو سرعة الانتقال بين فقرات الفصل الواحد، ولم يكن مثل هذا ليتعارض مع هدفى من الكتاب فلم أكن أريد به استقصاء حياتى هنالك أو ذكرياتى عنها ولكنى كنت

فى حقيقة الأمر مولعاً بوصف الحضارة كما أتيح لى أن أراها، وليس من شك فى أننى استشعر بعض الندم على بعض ماحذفت، ولكنى بالطبع لا أعرف على وجه التحديد هل يحق لى أن أندم أم لا، كما أنى لا أعرف لا على وجه التحديد ولا على وجه التقريب تلك الأجزاء المحذوفة من كتابتى الأولى التى ينبغى لى - أو يجوز لى - أن أندم على أنى لم أقدمها للقراء.

ومع هذا فإن «شمس الأصيل فى أمريكا» يظل من أحب الأعمال إلى قلبى، مع أنه ليس هناك عمل من أعمالى ليس من أحب الأعمال.. وهكذا فإنى قد أسىء استخدام أفعل التفضيل كما يفعل كثيرون، ولكنى أكاد أجزم بأن هذا الكتاب يحتل مكانة رفيعة فى نفسى، أقول هذا وأتذكر أننى كنت فى وقت من الأوقات أختار شمس الأصيل من بين كتبى لأهديه إلى الذين يسألوننى كتابا واحداً منها.. لماذا؟ لست أدرى. هل أنا أتهرب من نفسى إلى هذا الحد؟ أم أننى فى الواقع استكثر على السعادة أن تضيع بفعل الاستكناه.. لست أدرى.

❑

إنما يبقى لى أن أقول شيئا مهماً لعله يعطينا فكرة عن المناخ الذى نكتب فيه، ما نكتب وننشر فيه بعض ما نكتب، فقد كان هذا الكتاب معداً للنشر منذ أواسط عام ١٩٩١ ولكنه لم يصدر إلا فى ربيع ١٩٩٥، وأنا على كل الأحوال سعيد إلى أقصى درجات السعادة بصدوره، ثم بطبعته الثانية هذه التى أدعو الله أن تلقى قبول الذين لم يتح لى حظى أن يكونوا من قراء الطبعة الأولى.. ولكنى مع هذا لا أجد حرجا فى لوم نفسى وزملائى من الذين يكتبون حين يتقاعسون عن إبراز أعمالهم للقراء فى الوقت المناسب، وأنا أعرف مدى المعاناة التى نعانيها جميعا، ولكنى فى حقيقة الأمر لا أعتقد أن عذراً مهما كان خطره يمكن أن يكون مقبولاً حين تبقى أعمالنا

حبيسة الأدراج.. ولعلى بهذا أشهد القراء على نفسى التى قد تجد بعض العنت، ولكنها ملومة إلى أقصى حد، فى تقاعسها عن بذل الجهود فى سبيل خروج كتاباتى الأخرى التى لاتزال حبيسة الأدراج.. وإنى لأرجو الله جل جلاله أن يرزقنى التوفيق فى أداء بعض حق وطنى ومواطنى علىّ.

❑

وليس من شك أن دراسة المجتمع الأمريكى والحضارة الأمريكية تأتى فى مقدمة الأولويات الثقافية لمجتمعنا العربى المعاصر، ولست أزعم سبيلاً محدداً لهذه الدراسة ولكنى أستطيع القول بأهمية كل كتابة قادرة على إلقاء الضوء على هذه الحضارة بكل جوانبها، يستوى فى هذا الإعجاب والنقد كما يستوى الولاء والعداء، كما يستوى التوجس والتشبث.. فمع كل هذه المشاعر المتضاربة يبقى للقارىء أن يستشف الحقيقة وأن يفيد من الحقيقة العابرة فى تكوين الصورة الكلية القادرة على صياغة الموقف الذى ينبغى أن يكون قادراً، معه، على تحقيق الإفادة لوطننا وتجنب الانسحاق أو التبعية.

وإنى لأذكر أن انبهارى بأى جزئية لايتعداها إلى أخرى، كما أذكر أن انتقادى لأية جزئية أخرى لايتعداها إلى أخرى، ومع هذا فإنى أستشعر فى نفسى قدرة على فهم روح هذه الحياة، وأستشعر فى كتاباتى كذلك قدرة على تصوير هذا الذى فهمت، ولهذا كله فإنى حفىٌ بأن يقرأ الناس كتابى هذا، وأن يبدوا فيه ما يشاءون من نقد وتصحيح.

هذا وبالله التوفيق

د. محمد الجوادى

شكر وتقدير

تفضل عليّ العلامة الجليل الأستاذ الدكتور عبدالحافظ حلمي والكاتب الصحفى الفاضل الأستاذ عبدالعال الباقورى فتكرما بقراءة الطبعة الأولى من هذا الكتاب، وسجلا بعض التصويبات لما احتوته من أخطاء، وقد التزمت فى هذه الطبعة بتصويب كل ما رأيا تصويبه شاكرا لهما عطفهما، وكريم خلقهما، وعطاءهما المتواصل.

أرجو الله سبحانه وتعالى أن يمتعهما بالصحة والسعادة والعافية وأن يديم الانتفاع بفضلهما العميم، وعلمهما الغزير، وخلقهما القويم.

مقدمة الطبعة الأولى

كان من حظى أن أزور أمريكا عام ١٩٨٣ ، وكان من حظى أن أزور أمريكا عام ١٩٩١ ، ولكنى بدأت الزيارتين بنفسيتين مختلفتين، فقبل الزيارة الأولى كنت فى غاية الشوق إلى زيارة أمريكا وجاءت الفرصة الأولى فى ١٩٧٨ ، ولكنى كنت يومها قد بدأت خطوات السفر إلى الأراضى المقدسة لحج بيت الله، وجاءت الفرصة الثانية فى ١٩٨٣ فلم أتوان.

كانت دعوة لحضور ندوة عن الشيخوخة والتقدم التكنولوجى لمدة ثلاثة أيام فقط ولكنى انتهزت الفرصة وأثريت الزيارة بعدة برامج خططت لها قبل السفر ثم فى أثناء وجودى فى أمريكا نفسها. وعن هذه الزيارة كتبت فصلا من كتاب «رحلات شاب مسلم»، دار الصحوة، ١٩٨٧» ، الطبعة الثانية ، دار الشروق ١٩٩٦ ، الطبعة الثالثة، دار جهاد ٢٠٠٣ .

وفيما بين ١٩٨٣ و ١٩٩١ جاءتنى الفرصة لزيارة الولايات المتحدة الأمريكية ولكننى كنت متردداً ربما بأكثر مما كنت متحمساً فيما مضى لزيارة أمريكا.

بل إننى فى إحدى المرات حصلت على تأشيرة الدخول وحجزت تذكرة الطيران ولكنى فى آخر لحظة آثرت البقاء فى القاهرة لأقطع خطوات كبيرة فى عمل تاريخى كبير لم أنته منه بعد، وفى مرة أخرى كانت أمامى فرصة محددة باليوم لبدء زيارة طبية ذهبية لواحد من أكبر مراكز طب القلب فى أمريكا والعالم، ولكننى آثرت أن أبقى حتى لا ينفرط عقد ما بذلت من جهد فى رسالة الدكتوراه.

وفى آخر ١٩٩٠ كان علىّ، على ما أُبلغت تليفونياً وتلغرافيا أربع مرات فى يومين متتالين، أن أتوجه من فورى للكشف الطبى، وفى اليوم التالى للسفارة، وفى اليوم الثالث أو الرابع أستقل الطائرة لأكون فى جورجيا حيث يُقدر لى أن أقضى ثمانية عشر شهراً فى ظل منحة السلام التى حصلت عليها لجمع المادة العلمية للدكتوراه.. ولكنى اعتذرت فلم أشأ أن أسافر لمجرد السفر، وبخاصة أننى كنت قد ناقشت رسالة الدكتوراه منذ ثلاثة شهور.

❑

أحب أن أعترف أننى ظللت متردداً فى قرار زيارة أمريكا حتى بعد أن وصلت الطائرة إلى باريس ثم إلى نيويورك ثم إلى صالة مطار جون هوبكنز بكليفيلاند، ساعتها كنت أتحرك وقد تملكنى التردد تماماً بينما أنا أحمل حقيبتىَّ الخفيفتين، وفجأة وجدت اسمى على لافتة يحملها شاب وسيم يسألنى هل نذهب لاستلام الحقائب فقلت له ليس لى إلا هاتين، فحمل على إحداهما وخرجنا من صالة المطار لأجد أمامى مباشرة سيارة بيضاء طويلة ذات أبواب ستة كأنها هى سيارة «ريتشارد» فى مسلسل «فالكون كريست».. تمهلت لأتذكر فالكون كريست وأنجيلا

وريتشارد وماجى وميلسيا والصينى العجوز، وبدا كما لو أننى سأستغرق فى استدعاء ذكريات.. أو قل إن شيئا من الشرود اعترانى..

وسرعان ما أفقت لأجد أن حقيبة هذه السيارة مفتوحة وأن حقيبتىّ قد استقرتا هناك وها هو الشاب الوسيم يغلق باب السيارة ويتقدم إلى الباب الخلفى الأيمن ليفتحه وليدعونى إلى الركوب، وينتظر حتى أجلس ثم يتفضل بأن يشير إلى عشرة أزرار كهربائية فى سقف السيارة فى متناول يدى ويقول إن هذه هى مفاتيح كل شىء فى هذا الصالون.. ويغلق الباب علىّ وينصرف إلى الناحية اليسرى ليفتح بابه، ويربط حزامه ويقلع بنا!!.

❑

فى هذه اللحظة فقط بدأت أحس أنه لم يكن ينبغى لى أن أتردد فى مثل هذه الزيارة. أنا أربأ بك عن أن تسارع فتتهمنى بأننى انبهرت حين ركبت الليموزين الأمريكانى.. ولكنى لن ألومك إذا اتهمتنى.. حتى ولو لمتُ نفسى لو اتهمتنى بهذا.. لى الحق فى أن ألوم نفسى.. ولنفسى الحق فى أن تلومنى.... ولكنى لن ألومك إذا ركبت صالونا دائرياً جميلاً ينظر كل مَنْ فيه إلى بعضهم، تضغط زراً فيضىء التليفزيون، وزراً آخر فينضبط التكييف، وآخر فيعمل الراديو، ورابعاً فتنزل ستارة زجاجية بينك وبين السائق فى كابينته بحيث لايسمعك، وخامساً فتنزل ستارة معدنية سوداء بينك وبين السائق بحيث لا يرى ما تفعل، وسادساً فتضىء الأضواء الجانبية الهادئة، وسابعاً فتضىء الأنوار السقفية المبهرة، وثامنا فتؤمن إغلاق الأبواب عليك... إلخ.

وإلى جوار يدك اليمنى فى باطن باب السيارة الريموت الذى يضبط لك ما تشاء من قنوات التليفزيون وصورته.. إلخ. ومفاتيح قنوات الراديو. وأشياء أخرى.

ثم هذا الصالون الجميل المسمى بالليموزين يتحرك وكأنه لا يتحرك، ويُسرع وكأنه واقف، ويعبر طرقاً من فوقها طرق، ومن تحتها طرق، وعن يمينها طرق، وعن يسارها طرق... وبينما الجليد يغطى أرضاً إلى يمينك.. فإن الخضرة تغطى الأرض التى إلى الناحية الأخرى.. والأضواء المبهرة أو الملونة تأتى من بعيد وسرعان ما تخبو ثم تعود..

وهذا هو طريقنا إلى المدينة شأن كل مطار إلى مدينة ـ أحياناً تراه جميلاً حتى لو كان موحشاً، وأحيانا يكون كطريق باريس أو القاهرة أو بومباى عامراً بكل ما يبعث على الراحة والسعادة ولكن حرارة الجو أو رطوبته ومشقة الطائرة من قبل تجعلك تود لو ينتهى هذا الطريق بزحامه وإشاراته لتعود إلى مشاهدته مرة أخرى!

وأحياناً ما يكون هذا الطريق شيئاً آخر غير الدولة التى هو فيها، كطريق المطار فى نيروبى عاصمة كينيا.

□

ومع أن الطريق من جون هوبكنز إلى كليفيلاند ليس فيه شىء مميز عن أمريكا التى نعرفها جميعاً والتى زرتها من قبل.. إلا أن ترددى فى السفر إلى أمريكا كان قد قارب التلاشى تماماً حين كنت لا أزال فى هذا الطريق. بل ربما بدأت ألوم نفسى على تفريطى فى الفرص المتكررة التى اعتذرت عنها.

وطيلة الفترة التى قضيتها بعد ذلك فى أمريكا.. كنت أعود إلى التردد، لا لكى أتردد فحسب ولكن لأحكم على نفسى: هل أصبت؟ أم أخطأت؟.. لا أقصد فى هذه المرة فحسب، ولكن فى المرات الأخرى التى ترددت فيها فى المجىء.

وتعود بى الذكريات إلى أوقات كثيرة بات فيها كل مَنْ حولى مقتنعاً بأننى على

وشك الهجرة إلى هذا البلد! وأنا متعجب من أين جاءهم الاقتناع الذى لم ألمسه فى نفسى حتى الآن ولو لحظة واحدة! ولم أمهد له أبداً بأى إجراء!!.

هل أنا محقّ فى تعجبى؟

أم أننى هاجرت من دون أن أدرى؟

تعالوا بنا نقرأ هذه الصفحات المتفرقة لعلنا نستطيع أن نستكشف معاً الإنسان والمكان والزمان..

بل لعلكم تستطيعون أن تكتشفوا ما لم أستطع استكشافه حتى الآن وإن رأيته بعينىّ، ووصفته لكم فى هذه الصفحات!

١١ ابريل ١٩٩١ — د. محمد الجوادى

1

هل تغيّرت أمريكا

هل تغيرت أمريكا

(١)

هل تغيرت أمريكا.. هل غيرت أمريكا نظرتها إلى العالم؟

كنت أتحدث فى عشاء (بالنسبة لى إفطار رمضانى) فى نادى كليفيلاند للتزحلق على الجليد (Cleveland Skating Club) فى اليوم التالى لوفاة الأديب البريطانى جراهام جرين، ولا أعرف ما الذى قادنى إلى أن أقول: إنه من الطريف أن جراهام جرين لم يحصل فى الخمسينيات على تأشيرة دخول الولايات المتحدة الأمريكية بسبب تعاطفه مع الاتجاهات الشيوعية وذلك تحت سيطرة سياسة المكارثية التى تعتزم أمريكا التخلى عنها نهائياً هذا العام.. ربما.. أردفت: إن حمى عداوة الشيوعية كانت تنتاب أمريكا فى هذه الفترة.

أما اليوم فقد تفضلت إحدى السيدات الحاضرات فروت لى كيف يأتى الروس

اليوم إلى أمريكا فى جماعات، وأنها شخصياً تُفاجأ فى المدرسة التى تعمل بها بمجموعة مترابطة من الأطفال الروس جاءوا مع بعضهم، وقبلتهم المدرسة مع بعضهم أيضاً، ومهدت لهم دروساً تعليمية تهيىء لهم الانخراط فى التعليم الأمريكى بأقصى سرعة.. وسرعان ما ينجح هؤلاء فى الانخراط فى الحياة الأمريكية.. هؤلاء الذين جاءوا وكأنهم لا يعرفون حرفاً من الإنجليزية على حد تعبير محدثتنا!!.

إذاً أمريكا لم تتغير، ولكنها لازالت توظف كل ما هو متاح لها فيما هى محتاجة إليه.. والحاجة تتغير مع الزمن، وتغير أمريكا بالتالى فى توظيفها للمتاح فتبدو وكأنها تتغير!!.

❑

تسألنى مزيداً من الإيضاح فدعنى أتحدث معك عن قطاع الطب.

تصور لو أن أى قسم من الأقسام فى أى مستشفى من المستشفيات الأمريكية قد استبعد من أطباء هذا القسم أولئك الأوروبيين والشرقيين والعرب واللاتينيين (القادمين من أمريكا الجنوبية) أى كل أولئك الذين حصلوا على شهادة المعادلة قبل أن ينخرطوا فى الطب الأمريكى، احصر هؤلاء واستبعدهم من العمل فى هذا المستشفى. ستجد أنك ربما تختزل القسم إلى أقل من نصفه وربما إلى أقل من ربعه.. هل سيتوقف القسم. لا. لن يتوقف فى أمريكا عملٌ أبداً، ولكن مستوى الأداء والامتياز سينخفض بالطبع.

أمريكا ليست بلد الأمريكيين وحدهم وإنما هى بلد كل العاملين المجدين المتميزين، هكذا فهم الأمريكيون معنى أمريكا منذ بدأوا يقيمون إمبراطوريتهم..

وهكذا أفهمتهم امبراطوريتهم فيما بعد من دون أن تتحدث الامبراطورية.. إنما هم يشبون فيجدون بلدهم يتقبل مَنْ يضيف إليه فيجدون أنفسهم جيلاً بعد جيل حريصين على أن يتقبلوا كل مَنْ يؤملون فيه أن يضيف إليهم.

وهكذا يمكن أن تتضاءل العنصرية القومية فى أمريكا حتى تصل فى رأى البعض إلى العدم، وفى رأى البعض الآخر إلى العدم المعدوم! ولكن بعض الساسة الأمريكين يأتون فى بعض اللحظات ليؤججوا مشاعر عنصرية تحت شعارات أخرى براقة فاذا هم ينتقصون من روح أمريكا ومزاياها.

ولكن أمريكا فى الوقت ذاته ليست بلد كل المهاجرين ولا كل الطموحين أو كل الشاردين أو الذين يجيئون من شُذاذ الآفاق. أمريكا بلد الذين يجيئون لمهمة محددة تحتاجها أمريكا قبل أن يحتاجوها هم.

هل من حقى أن أستطرد لأحكى لك ياسيدى أن بلاداً عربية مرت فى العقدين الأخيرين بالفرصة الكبرى التى تتيح لها أن تفيد من التجربة الإيجابية التى خاضتها أمريكا حينَ طَّعمت شعبها على النحو الذى طعمته به. والذى لازالت تطعمه به؟

نعم كان فى وسع بلاد العرب الغنية وهى تستجلب التكنولوجيا العظيمة التى استوردتها أن تتخلى بعض الشيء عن قومياتها المحدودة لتعطى الجنسية الكاملة لأولئك الخبراء والفنيين الذين يديرون حياتها التكنوقراطية بل وأن تغريهم على حمل هذه الجنسية بكل الوسائل التى تملكها، ساعتها لم يكن من حق أحد أن يفكر فيما بينه وبين نفسه فى أنه موجود هناك فى تلك البلاد إلى حين، وإنما كانت هذه المجتمعات قادرة على تذويب عدد كبير من الكفاءات الممتازة فى كيان هذه

المجتمعات، على نحو ما فعل الأمريكان الأوائل بإخوانهم البريطانيين والألمان والفرنسيين والعرب.. الذين ذهبوا بعدهم بمائة سنة أو مائتين.

كان فى وسع هذه الدول العربية أن تحتفظ وللأبد بأربعة آلاف طبيب مصرى من خيرة الأطباء المصريين يصبحون فى خلال عشرين أو ثلاثين عاماً مرتبطين بهذه الدول من جميع النواحى بارتباطات اللسان والمستقبل والماضى والأسرة والاستثمار والولاء، كما حدث للأوروبيين فى أمريكا.

وأنا أتلفت حولى فأجد الطبيب الفلبينى أو الإيرانى أمريكياً ـ مواطناً أمريكياً تماماً. بينما أسرته بأكملها فى الفلبين أو إيران.

أسأل إحدى الفتيات عن الملامح البولندية فيها أهى بولندية؟.. فتقول: بل أبواها جاءا من بولندا.. وهذه الزميلة ولدت فى سالزبورج ولكنها أمريكية فحين ولدت هناك مات أبواها فى طريقهما إلى الولايات المتحدة، ومديرة التأمين الصحى يوغوسلافية الأب والأم، ومديرة النشر ألمانية الزوج والأب، وسكرتيرة قسم الأسنان أيرلندية الأب ألمانية الأم، وطبيب الأسنان إيطالى الأبوين، وسكرتيرة قسم الأوعية الدموية إيطالية الأب أيرلندية الأم، وزميلتنا الجديدة فى الرعاية المركزة سويدية الأب.

ما أكثر مَنْ هم حولى الآن من الذين لم يُولدوا فى أمريكا ومع ذلك فإنهم أمريكان.. ولكننا فى بعض البلاد العربية وعلى رأسها مصر مصممون على ألا يكون مصرياً إلا مَنْ ولد من أبوين مصريين، وبعد حين سيتطور القانون من تلقاء نفسه بالتقادم وبدون حاجة إلى نصوص ليصبح: ومن جدين مصريين، ثم من سلالة مصرية إلى الجد الرابع!!!، بل ربما وصل الوضع إلى هذا الحال!.

ربما يكون الموقف مختلفاً فى مصر، وهى التى استنت للجنسية قوانين فى منتهى العبقرية والليبرالية، ولكنى عبرت عن أوطان عربية أخرى باسم مصر، لأنى أعرف حدودى فى النقد، ولأنى أحب لبلادى أن تبقى على نحو ما عرفها العالم عبقرية وليبرالية

(٢)

وأعود للسؤال الذى بدأتُ به هذا الفصل: هل تغيرت أمريكا حين بدأت ترحب بالروس بعد أن كانت ترفض مجرد دخول الأديب البريطانى جراهام جرين لأنه ربما يناصر الشيوعية مع أنه لم ينتم إلى الحزب الشيوعى إلا بضعة أسابيع عابرة!!.

ما أسهل أن يجيب المرء على مثل هذا السؤال بطريقة يجتمع فيها الذكاء والخبث ويقول: بل روسيا هى التى تغيرت، حين تركت الشيوعية، وحين تركتها رحبت بها أمريكا.. ولكن المسألة أعمق من هذا بكثير. إن أمريكا بلد مؤسسات وبلد سياسات قبل أن تكون بلد أهواء، أو علاقات مودة أو تشفٍّ!!

أمريكا تقدر أنها فى حاجة إلى مائة ألف عامل بسيط، وإلا فإنها ستعانى تسلط العمال البسطاء ودكتاتوريتهم، حتى وإن كانت محدودة الأثر.. إذاً فلا مانع من أن يغض البوليس الطَرْف عن الذين يقيمون بصفة غير شرعية ليقوموا بمثل هذه الأعمال البسيطة. حتى إذا ما وصلت أمريكا إلى المرحلة التى تحس فيها أن البطالة تهدد اقتصادها، عندئذ يفتح البوليس عينيه أو يتظاهر بأنه يفركها وهو يرى هؤلاء المهاجرين المقيمين بصفة غير شرعية.

نفس الأمر فى الطب ـ ربما أوافقك (وأنا سعيد بالطبع) أن الطب هو قمة المهن،

وأنه سواء فى أمريكا وفى مصر وبنجلاديش يمثل الطموح الأعظم لما يسمى بطبقة «الكريمة» فى شباب الوطن، نعم. ولكن المسألة فى الطب أعمق من هذا - إن الطب يؤدى وظيفة إنسانية مُلحة أكثر مما يتحكم فى عنصر من عناصر سيادة الدولة نفسها.. ولهذا فإن طموح أى مجتمع ناجح إلى أن تكون الوظائف المؤداة فيه على أعلى مستوى لن يمانع فى أن يعطى الفرصة فى أداء هذه الوظيفة لمن هم أقدر عليها.. فإذا كان الأطباء الأمريكيون قادرين على أن يؤدوا الأداء الأمثل فى سبعين بالمائة من مواقع الخدمات الطبية الحيوية فلابد من أن تُشغل الثلاثون فى المائة من المواقع الأخرى بالكفاءات التى ترتفع بها إلى ذات المستويات المأمولة، وإذا كان الأطباء الأمريكيون غير قادرين إلا على خمسين فى المائة فلابد أن يتاح للخمسين فى المائة الأخرى مَنْ هم أقدر عليها.

صحيح أن المجتمع الأمريكى يتمنى أن يتولى بنفسه مائة فى المائة من المواقع بل ويعمل جاهداً على تحقيق هذا الهدف، بل وتتيح له الإمكانات الموجودة أن يفعل هذا، بل وإحصاءاته قادرة على أن تقول هذا دون معارضة، ولكن حقيقة الأمر شىء آخر.

سأضرب لك مثلاً بمعمل للقثطرة القلبية يضم عشرين طبيباً أمريكياً قادرين تماماً على أداء مختلف أنواع القثاطر بنجاح والتزام تامين، ولكن هناك إلى جانبهم خمسة من الوافدين المتأمركين حديثاً يملكون قدرة على الإضافة إلى هذا المعمل بحيث يتفوق على معمل آخر ليس فيه هؤلاء الخمسة، ربما تتوفر لهم قدرة أكثر على الابتكار، أو التطوير، أو على الدراسات، أو على توفير الوقت، أو توفير الإجراءات والخطوات أياً ما كانت، بل ربما من وجهة نظر اقتصادية بحتة عندهم

القدرة على توفير العملاء!! أى تمويل المعمل بالمرضى سواء من خارج أمريكا، أو من داخلها، ربما تكون عندهم بحكم شخصياتهم قدرة على إيجاد سمعة لهذا المعمل فى الأوساط المحلية داخل أمريكا، أو الأوساط الدولية خارجها، ربما تكون عند هؤلاء الرغبة الأكثر تأكيداً فى البقاء فى هذا الموقع لأكثر من عشر سنوات قادمة بينما الأمريكيون الأصليون ينتظرون الفرصة ساعة وراء ساعة للصعود إلى مواقع أكثر أهمية، أو أكثر ربحية، سواء فى معامل أخرى أو مناطق أخرى أو فى مواقع رئاسات، هذه هى بعض العوامل التى تحكم اتخاذ القرار بإدماج المتأمركين الجدد فى مواقع ممتازة، ربما لا يحلم بها الأمريكى حفيد الأمريكيين، ولكن الأمريكى الذى يتخذ القرار يفعل هذا كما يفعل أجداده الأمريكان من قبل حين كانوا ينسون مسألة الأبوين المصريين!!

❑

وهذه هى **روح أمريكا**، وإذا فقدت أمريكا هذه الروح فلن تكون هناك أمريكا، لن تكون أمريكا فى ذلك الوقت مشكلة نتحدث عنها فحسب، وإنما سوف تكون عدماً ليس هناك من داع للحديث عنه.. إلا عن وجوده الذى سبق العدم.

ربما تستغرب منى ياسيدى هذه القسوة فى التعبير، وتظنها شططاً للقلم، ولكنها الحقيقة.

تسألنى وأين تذهب قوة الدفع يومها؟ ألا تستطيع قوة الدفع هذه أن تنقذ أمريكا عشرين عاماً أو ثلاثين حتى تعود إلى رشدها؟ وتستأنف توظيف أجناس الأرض فى خدمة تقدم أمريكا؟.. أقول لك: لا.. لن تستمر هذه القوة أبداً كما تظن.. لأن أمريكا فى تقدمها تطير، تحلق بعيداً عن كل ما يخلد بالإنسان إلى الأرض حين

يتبع هواه.. قوة الدفع هذه تنقذ السيارات أو المجتمعات التى تسير.. ولكنها لا تنقذ الطائرة أبداً!!

وتسألنى كيف يحدث ذلك؟ أقول لك: هل رأيتَ الناس الذين يجيدون السباحة يتدافعون للقفز من القارب الموشك على الغرق فيعجل تدافعُهم بغرق القارب.. تماماً هذا هو الوضع الحالى فى أمريكا، إذا أحس ناجحوها أن الكيان الأمريكى افتقد روح الامتياز والتميز، وبات يخلد إلى الماضى بلا عمل ساعتئذ سرعان ما سيتدافع هؤلاء الناجحون إلى ترك أمريكا تغرق بالمخلدين فيها.

لك أن تتصور أننى فى تفكيرى هذا شبيه بأديب محلق، ولكن المجتمع الأمريكى نفسه يعرف معنى ما أقول، ويراه بعينه كل يوم حين يجد الشركات والمؤسسات الفاشلة تغلق أبوابها وينتشر الذين كانوا فيها ليبدأوا «أمريكا» من جديد!!.

(٣)

شاهدت فى التليفزيون الأمريكى لقطات غير متتابعة (بسبب انشغالى عن متابعتها بعض الأيام) عن قضية أقامها بعض الموظفين الأمريكيين ضد شركة يابانية كبيرة فصلتهم من عملهم بإجراءات قانونية، سليمة فى الشكل طبعاً، يتهمونها فيها بالظلم والتحيز لليابانيين. تسألنى هل كانت الحلقات مُوجهة؟ أقول لك: نعم.. ولكنها كانت موجهة ضد هؤلاء الأمريكان. أياً ما كان الأمر وانتصر المحامون لهذا الطرف أو ذاك فمن الواضح جداً أن الشركة كانت على حق.

لاشك أن الدفاع عن الأمريكيين كان ممتازاً، وقد استطاع محاميهم أن يحرج ممثل الشركة اليابانية مرة تلو أخرى، ولكن الحقيقة التى قدمها العمل الفنى كانت أن هؤلاء المفصولين يبتزون الشركة اليابانية.

أنا لا أعلم كيف انتهى العمل الفنى على شاشة التليفزيون. ولا أعلم الهدف الذى كان وراء هذا المسلسل، ولا أعلم مَنْ الذى أنتج العمل. ولكنى أشهد لك، شهادة لوجه الله، أن كمية الصدق الفنى فى العمل كانت خير ما فى العمل كله..

ربما ترك العمل الفنى فى نفسك أنه ضد الأمريكيين.. ولكن الحقيقة التى لابد أنك ستدركها بعد برهة قصيرة أن العمل الفنى كان يهدف إلى مصلحة الأمريكيين لأنه كان يوقظهم لا أقول من النوم، ولكن من حلم بسيط من أحلام اليقظة المستمرة التى كاد انتباهها يضيع، ولا أقول ضاع منها انتباهها.

وأعود لأتحسر على مسلسلات التليفزيون العربى وأقول: «هكذا ينبغى أن يكون الفن» أو على الأقل.. هكذا ينبغى أن يكون بعض الفن! لكى يبقى بعض آخر للإمتاع، وبعض آخر للمؤانسة، وبعض آخر للفن نفسه!.

❑

أريد بعد كل هذا الحديث أن أنقل لك عبارة قرأتها الآن وبعد كتابة هذا الحديث بشهر أو أكثر تؤكد هذا المعنى، الذى سوف أقوله:

«إن أمريكا ليست لأحد».

العبارة منسوبة إلى أحد قضاة محكمة الاستئناف فى كاليفورنيا واسمه «رينوسو» (Renoso) وهو أحد الذين شاركوا فى وضع القواعد الحاكمة لسياسة الهجرة إلى أمريكا، وهو يتحدث فيها عن وحدة الشعب الأمريكى فيقول:

«ما كان الأمريكيون اليوم.. وما كانوا فى أى يوم من الأيام أمة واحدة لغوياً أو عقائدياً.. إن أمريكا وحدة سياسية فحسب، وليست وحدة ثقافية أو لغوية أو دينية أو قومية».

(٤)

هل الأمريكيون مُرْهَقون متعبون أم مُرَفَّهون منعمون؟ هل يعمل الأمريكيون أكثر مما يستمتعون بحياتهم؟ أم هم يستمتعون بحياتهم أكثر مما يعملون؟ أم هم يوازنون بين المتعة والإجهاد فى كفتى الميزان؟

ربما يكون حكمى مجانباً الصواب لأنى سأتحدث، بحكم مهنتى وعملى، عن طائفة الأطباء التى يصدق عليها الوصف القائل إنها محترفةُ عمل أو محترقةٌ عملاً فى كل مكان سواء فى أمريكا وفى مصر..

وحتى إذا تحدثت عن الممرضات أو السكرتيرات الطبيبات فإنى أتحدث عن نفس المجال تقريباً، فالعاملون فى المهن الطبية الموازية أو المساعدة يكتسبون مع الوقت قسوة الأطباء على أنفسهم.

ولكنى مع هذا كله، وفى هذه النقطة بالذات، أستطيع أن أقول لك إن المجتمع الأمريكى قد استطاع أن يجبر الأطباء على بعض الراحة.. تسألنى كيف حدث هذا؟ فأعطيك بعض الأمثلة لبعض الوسائل التى نفذ بها المجتمع سياسته غير المنظورة.

الوسيلة الأولى أن عطلة نهاية الأسبوع السبت والأحد مقدسة تماماً، مع أن الطب لا يتوقف عن العمل كما هو معروف ولابد من أن يكون من بين الأطباء نوبتجى فى المستشفى.. وفى ظل أن العمل فى عطلة نهاية الأسبوع إجبارى ومحدد لكل طبيب مرة واحدة كل عدة أسابيع فقد أصبح الأطباء بالتالى يستمتعون بالعطلات الأخرى المتاحة لهم، أى أنهم أصبحوا يفقدون عطلة ليستمتعوا بثلاث عطلات.. بعد أن كانوا يرتبطون بالعمل ربع الوقت أو عشر الوقت مثلاً فى كل نهايات الأسابيع..

وأحب فى هذا المقام أن أضرب مثلاً بنفسى، فلم يحدث أننى فى حياتى عرفت نظاماً محدداً للراحة يوم الخميس والجمعة إلا فى الشهور التسعة التى كنا فيها ثلاثة نواب فقط فى قسم القلب بطب الزقازيق، وكان على كل منا أن يتولى كل العمل يومى الخميس والجمعة كل ثلاثة أسابيع... بالنسبة لى كنت أقضى عطلة فى النوبتجية، وعطلة فى القاهرة الثقافية... وعطلة ثالثة بعيدا عن القاهرة، وظللت منتظماً على هذه الحال طيلة تلك الشهور التسعة، ولم أتمكن أبداً من أن أمضى على هذا النحو المنظم بعد ذلك!.

ونعود إلى الأمريكيين فنجد أن عمل الفريق يُجبرهم على العمل فى أوقات محددة إذ ليس الفريق متاحاً فى كل حين، بل يصعُب تماماً تشغيله فى غير أوقاته.. وهكذا أصبح على الأطباء الذين يمارسون تقنيات معينة أن يعرفوا أن الساعات الأربع والعشرين التى يعطيها الله لنا كل صباح ليست للعمل المتواصل، وإنما هى لأشياء كثيرة منها العمل الذى تحدد وقته بالدقيقة من قبل لأنه مرتبط بفريق كامل.

❑

الوسيلة الثانية التى استطاع بها المجتمع الأمريكى أن يبعد الأطباء عن العمل القاتل هى الخروج بالأطباء من أماكن عملهم من حين لآخر وبكثرة ربما تقول عنها إنها فاقت المعقول أو المطلوب. فالندوات دائماً فى الفنادق، والمؤتمرات الدورية دائماً فى أماكن متباعدة، وكل عام تعقد **جمعية القلب الأمريكية** ندوتها فى مكان غير الذى عقدت فيه ندوتها السابقة، والمؤتمر أسبوع كامل الاشتراك فيه شبه إجبارى وهذا لا يعنى أن جميع الأطباء يدفعون الاشتراك. والأطباء فيه

متوقفون عن العمل فى مستشفياتهم إلا لحالات الطوارىء التى يقوم بها حوالى ١٠ ٪ فقط من القوة البشرية المتاحة .. وكلية **أطباء القلب** هى الأخرى لها أسبوع آخر.

ربما أنتهز هذه الفرصة الآن لأحدثك عن النشاط العلمى المفروض على أطباء القلب، ولعلك لاحظت فى الفقرة السابقة أن هناك جمعيتين علميتين: جمعية أطباء القلب الأمريكيين، والكلية الأمريكية لأطباء القلب، هذا غير جمعيات ضغط الدم، واختلال النظم، والفسيولوجيا الكهربية، والمهمازات، والموجات فوق الصوتية، والتصوير الصبغى، والرنين المغناطيسى... الخ الخ) فإذا كان الطبيب مهتماً بمجالين فقط من هذه المجالات العشرة إلى حد أنه يشارك فى اجتماعاتها ومؤتمراتها فإنه مجبر على أن يترك العمل الروتينى إلى أماكن بعيدة عن بيته وعن مستشفاه لأربعة أسابيع على الأقل كل عام.

❑

ولكنى مع هذا أعتقد أن هناك من الوسائل ما هو قادر فى المستقبل على أن يمنع الأطباء من قتل أنفسهم.

أعتقد مثلاً أن ثقافة الأبناء فى الأجيال الجديدة كفيلة بجذب آبائهم معهم إلى المتاحف والأوبرا والمسرح والسينما حينما يزداد رقى هذه الفنون وابتعادها عن التكرار وحرصها على الفن الرفيع والتجديد والإبتكار حتى تحتفظ لنفسها بمكان فى عصر الفيديو والكمبيوتر، أحب أن أقول إن الأجيال الجديدة محظوظة تماماً أو سوف تكون كذلك بعد ضياع الأجيال التى مرت بالبشرية طيلة النصف الثانى من القرن العشرين..

وأحب أن أسجل من الآن ما بدأت ألحظة تحت الرماد من أن هذه الأجيال سوف تكون قادرة على توجيه الأجيال السابقة عليها إلى كثير من أنماط السعادة والرقي.

أعتقد كذلك أن التطوير الرائد فى مناهج الدراسة والتزايد المستمر فى إقبال المهنيين والمشتغلين بالعلوم المختلفة على الإنسانيات سوف يُفسح المجال لإنسان أكثر رقياً. وبالتالى لطبيب أكثر إنسانية مع نفسه.

وأعتقد أن وسائل الإعلام جميعاً ستفقد مع الزمن الحمى التى تفرض عليها السطحية والإثارة وستكون فى المستقبل حريصة على هدوء الرؤية والتعمق وسوف يتأثر بها الناس أيضاً.

وأعتقد أيضاً أن الحاجة الملحة إلى كثير من الإنفاق وكثير من العمل من أجل تدعيم وتوسيع قواعد الأصول الثابتة فى المؤسسات الصحية والطبية على مستوى القطاعين الجماعى والفردى، أعتقد أن هذه الحاجة سوف تخف بعض الشيء بما سوف يكون متاحاً ومتراكماً من أصول ثابتة ضخمة أنفق القرن العشرون معظم أرباحه على بنائها أو تسديد ديونها.

(٥)

أحب أن أحدثك بعد هذا كله عن ثراء الأمريكيين. هل زاد ثراؤهم.. أو أنهم كما يحب الناس فى بلدى أن يتصوروهم بدأوا يعانون المعاناة التى تنتهى (بعد عمر طويل) بالفقر.

لو كنت زرت أمريكا فى ١٩٥١ أو ١٩٦١ أو ١٩٧١ أو ١٩٨١ ثم زرتها فى ١٩٩١ فسوف تحس أن أمريكا أصبحت حذرة فى إنفاقها، وأصبحت تشكو بصوت

مرتفع من أنها لا يجب أن تنفق على هذا البند مثلاً كل هذا الإنفاق، أو أن التأمين الصحى غير قادر على تغطية نفقات علاج ٣٨ مليون أمريكى، أو أن معظم نفقات الإدارة الأمريكية يمكن اختصارها احتياطاً للمستقبل..

لن تنجو من أن تطالع هذه الأفكار صباح مساء كل يوم فى كل جريدة وكل تقرير تطلع عليه، ولن تنجو أيضا من سماع هذه العبارات فى دردشتك مع الأمريكان أينما كانوا، ومع كل هذا تتأمل ثروة الأمريكى فتراها تزداد يوماً بعد يوم، وتتضخم، ترتفع الودائع فى بنوكهم كما لم يسبق لها أن ترتفع، وأصولهم الثابتة تتضاعف بما لا يحتاج إلى إحصاء، وأكثر من هذا فإن الدولار أصبح يمثل بالنسبة للاقتصاد العالمى قيمة أكبر بكثير مما كان يمثل فيما مضى، ولك أن تقارن بين سعر الدولار اليوم بالنسبة لأى عملة، وبالنسبة للعملة ذاتها منذ عشر سنوات فإذا أنت تجد الدولار هو الرابح..

وحتى فى الأحوال القليلة التى ينهار فيها الدولار أمام عملة أخرى فإن الدولار وأصحاب الدولار يفعلون هذا من أجل عيون الدولار.. يغرون أثرياء منطقة ما حتى يحولوا أموالهم إلى الدولارات بما يقدمون عليه من رفع سعر الفائدة وما إلى ذلك من المغريات، ويدعمون الدولار حتى لا يكف عن الارتفاع حتى إذا وصلوا إلى نقطة ما لا يعرفها سوى خالقهم هبطوا به فجأة فهبطوا بكل قيم الأشياء التى تحولت إلى دولار، وهم ، وحدهم، المستفيدون.. لأنهم حصلوا على كل ما يريدون بالدولار العالى.. ثم أصبح الدولار فى أيدى الناس من حولهم رخيصاً!!.

غاية ما أريد أن أقوله لك هو أن الأمريكان أصبحوا اليوم أكثر وعياً فى إنفاقهم مما كانوا عليه من ذى قبل.. أريد أن أقول لك ذلك حتى أصحح لك ما قد يترامى إلى ظنك من أنهم أصبحوا أقل ثروة عما كانوا عليه من قبل!!!.

(٦)

دعنى الآن أحدثك عن كتاب شائق أتيح لى أن أطالعه هذا الأسبوع، ولكن لا بأس أن ألخص لك الفكرة التى فيه.

الكتاب اسمه:ـ (الأجيال: تاريخ مستقبل أمريكا: ١٥٨٤ ـ ٢٠٦٩) Generations: The History of America's Future (1584 - 2069) المؤلفان هما شتراوس (٤٤ عاماً) ـ ونيل هوى (٣٩ عاما) والكتاب صدر عن دار نشر Morrow ويباع بحوالى ثلاثة وعشرين دولاراً.

دعنى ألخص لك الفكرة التى عرضها المؤلفان حيث قسموا أجيال أمريكا إلى ثمانية عشر جيلاً وذلك بأن جعلوا الجيل الواحد ٢٢ عاماً ـ (معلوماتى السابقة أن بعض علماء الاجتماع اعتمدوا ٣٣ عاماً فى المتوسط بحيث يصبح القرن ممثلاً لثلاثة أجيال)، ولم يصنفوا الناس حسب إنجازاتهم وتواريخها، ولكنهم أخذوا الزعماء والبارزين بتواريخ ميلادهم ـ هل تعرف ماذا يعنى هذا؟ أبسط لك الأمور وأضرب لك بمصر مثلاً كنت كثيراً ما استعمله لإثارة لمحات المقارنة الصحيحة فى حديثى السياسى مع بعض مَنْ تحدثت إليهم، ولا أذكر إن كنت قد سجلت هذه الفكرة فى مقال أو كتاب لى من قبل أم لا، كنت أقول إن مصر حُكمت طيلة الفترة من ١٩٣٦ وحتى ١٩٨١ (حوالى نصف قرن ماعدا فترة قصيرة تولى الحكم فيها الرئيس محمد نجيب) بثلاثة من مواليد ثلاث سنوات متتالية ـ فقد ولد الملك فاروق فى ١٩٢٠، وولد عبدالناصر فى ١٩١٨، وولد أنور السادات فى ١٩١٩ (فى بعض الأقوال فى ١٩١٨) كنت أورد هذا القول فى التدليل على عدة معان:

أولاً: أن رجال الثورة لم يكونوا صغار السن حين تولوا الحكم فقد سبقهم إليه

ومنذ ١٥ عاماً ملك أصغر منهم فى السن كان في كثير من الأحوال حريصاً على أن يحكم لأنه يملك.

ثانياً: إن الحكمة الزائدة التى تميز بها أنور السادات كانت تعتمد ضمن ما تعتمد على عامل السن أو بفارق السن إذا ما قورن بعبدالناصر (مع عدم إغفال الجوانب الشخصية فى كل منهم جميعاً) ما علينا من هذا الاستطراد الذى يجب أن أعتذر عنه، وهأنذا أعتذر!!

❑

شتراوس وهوى ياسيدى يذهبان إلى أبعد مما أذهب بكثير جداً، إنهم يقسمون الأمريكان منذ ١٥٨٤ وحتى أوائل القرن الحادى والعشرين إلى ثمانية عشر جيلاً، ويجعلون لكل جيل ميزة واسماً مميزاً، ويأخذون لكل جيل شخصاً من المشاهير الذين ولدوا فى الفترة الزمنية التى حددوها للجيل ليجعلوه «العينة» ـ عينة الجيل ـ أو «الرمز» إلى هنا والأمر بسيط أو قل إنه بسيط.

لكن شتراوس وهوى ينظران إلى الأمور من زاوية أخرى هى زاوية ما نقول عنه الدورات ـ أو ما قاله مؤرخ عظيم ملخصاً فلسفته فى التاريخ ـ من أن التاريخ يعيد نفسه.

وهكذا فإن هذين المؤلفين يضعان كل أربعة أجيال فى دورة وتتعاقب الدورات ـ فالدورة الواحدة على هذا تضم أربعة أجيال: الأول هو جيل **المثاليين** ثم يليهم جيل **الفاعلين** ويليهم جيل **المدنيين** وتنتهى الدورة بجيل **المتأقلمين** لتبدأ بعد ذلك دورة جديدة تبدأ بالمثاليين ثم الفاعلين ثم المدنيين ثم المتأقلمين..

دعنى ألخص لك الدورات والأجيال وصفات الأجيال وعينات هذه الأجيال فى الصفحات التالية:

الدورة الأولى: المستعمرون Colonial ولك أن تترجمها بالاستعماريين، أو سكان المستعمرات والدورة الثانية دورة الثورة، والدورة الثالثة دورة الحرب الأهلية، والدورة الرابعة دورة القوة العظمى، والدورة الخامسة هى الدورة التى نعيشها الآن!!

فلنبدأ بالدورة الأولى، فى هذه الدورة وهى التى تضم بالطبع أربعة أجيال، الجيل الأول هو جيل البيوريتان Puritan والبوريتان كما نعلم هم القوم الحريصون على التطهر من كل الأدران والخطايا إلى حد التزمت، وفى الأدب العالمى نقرأ هذه العبارة فى وصف بعض مجتمعات أو أشخاص العصور الوسطى ـ هؤلاء بالطبع مثاليون ـ وهم بداية الدورة وهؤلاء يمثلون مواليد الفترة من (١٥٨٤ ـ ١٦١٤) وعينة هؤلاء: جون ونتروب.

الجيل الثانى (١٦١٥ ـ ١٦٤٧) جيل الفرسان Cavalier هؤلاء بالطبع وكما يتضح حتى من تسميتهم فاعلون إيجابيون ـ وعينة هؤلاء هو انكريز ماذر وسوف أحدثك عنه بعد قليل.

الجيل الثالث (١٦٤٨ ـ ١٦٧٣) جيل المتألقين Glorious وهؤلاء بالطبع وكما يتضح من اسم جيلهم يمثلون المرحلة الثالثة من الدورة الأولى، وصفتهم بالطبع أنهم مدنيون، وعينة هؤلاء هو كوتون ماذر وهو ابن انكريز وسوف أحدثك عنه وعن أبيه وجده بعد قليل.

والجيل الرابع (١٦٧٤ ـ ١٧٠٠) هو جيل التنوير Enlightenment وهم قوم متأقلمون يمثلهم وليام شيرى.

دعنى أحدثك عن أقطاب هذه الدورة الأولى رسأبدأ بالحديث عن العائلة التى تضم قطبين هما قطبا الجيلين الثانى والثالث فى الدورة الأولى. عـائلة مـاذر هذه تمثل عصراً كان فيه رعاة الكنيسة فى مساتشوستس هم القادة فى الحياة العامة والعقلية.

أما ريتشارد ماذر (١٥٩٦ ـ ١٦٦٩) فقد ولد فى إنجلترا وتعلم فى أكسفورد، وسببت له أفكاره البيورتانية مصاعب مع الكنيسة الإنجليزية مما أبعده عن تولى المسئولية، وقد ترك إنجلترا فى ١٦٣٥ وبدأ حياة جديدة فى مساتشوستس ومنذ ١٦٣٦ وحتى وفاته ظل راعيا للكنيسة الطائفية أو الإبراشية Congregational فـى دورشستر وهو الذى ألف كتاب المزامير الذى يسمى Bay Psalm Book .

وأما انكريز ماذر الذى اختاره المؤلفان عينة للجيل الثانى (١٦٣٩ ـ ١٧٢٣) فهو ابنه ـ وقد عمل راعياً لكنيسة بوسطن الشمالية (أو الثانية) منذ ١٦٦٤ وحتى وفاته، وكانت له محاولات مشهورة جعلته بمثابة العدو الأول لأى نوع من التحديث فى نظام نيو انجلند كنيسة أو حكومة، وقد عارض بقوة أولئك الذين أرادوا تجديث نظام الكنيسة أو قوانين التطهر، وقضى ماذر أربعة أعوام فى لندن فيما بين ١٦٨٨ و ١٦٩٢ عند وليام الثالث حتى حصل منه على موافقة بتوحيد بليموث ومساتشوستس. كما عمل ماذر هذا مديراً لجامعة هارفارد فيما بين ١٦٨٥ و ١٧٠١ وكان قريباً من الباحثين والعلماء على الرغم من تحفظه الدينى والسياسى، وساند من موقعه كمدير للجامعة حملة التطعيم ضد الجدرى، وكان هذا بالطبع موقفاً غريباً من رجل دين على مثل مذهبه.

يهمنى أن أذكر لك أن انكريز ماذر ولد حقيقة فى دورشستر لأن أباه كان فيها

منذ ١٦٢٥ كما ذكرت لك فى الفقرة السابقة. ولكن انكريز ماذر درس فى هارفارد كما درس فى كلية ترنيتى فى دبلن، وقضى سنوات طويلة من حياته مبشراً فى الجزر البريطانية.

❑

أما كوتون ماذر الذى اختاره المؤلفان عينة للجيل الثالث فهو ابن انكريز وحفيد ريتشارد وقد رُسم كاهناً فى ١٦٨٥ وقد أصبح بذلك مساعداً أو مشاركاً لوالده فى كنيسة بوسطن الشمالية، وتولى منصب راعى الكنيسة حين سافر والده إلى لندن كما ذكرنا.. ثم تولى مسئولية الكنيسة بعد وفاة والده.

وقد ألف كوتون ماذر هذا ما لا يقل عن ٤٥٠ كتاباً، وقد تأثر بنيامين فرانلكين بأحد كتبه وهو كتاب Essays to do God الذى ألفه ١٧١٠، وكان كوتون كوالده صديقاً للعلم والتعليم ساعد فى إنشاء كلية «بل» وكان أول أمريكى ينتخب زميلاً للجمعية الملكية فى لندن، ومثل هذا الشرف يعطيك فكرة عن هذا التألق الذى يمثله كوتون ماذر الذى ترى صوره فى القواميس والموسوعات الأمريكية معبرة تماماً عن هذا التألق. هذا وقد ولد كوتون فى بوسطن.

بقى أن أحدثك عن وليام شيرى، وقد ولد ١٦٩٤ فى إنجلترا وتوفى عام ١٧٧١، وقد عمل كحاكم لمستعمرة مساتشوستس فيما بين ١٧٤١ و ١٧٦٥، وتولى لفترة قصيرة قيادة القوات البريطانية فى شمال أمريكا.

كان شيرى مسئولاً عن الاستيلاء على لويزبورج فى ١٧٤٥ فى أثناء الحرب الفرنسية الهندية وعندما ضمت إنجلترا مساتشوستش إلى جانبها فى الحرب استطاع

شيرى تحرير النظام النقدى وإصلاحه. وقد تولى حكم جزر ألباهاما فيما بين ١٧٦١ و ١٧٦٧.

❑

دعنا نتحرك إلى الدورة الثانية دورة الثورة أو الدورة الثورية Revolutionary وفى هذه الدورة هى الأخرى أربعة أجيال.

الجيل الأول: جيل اليقظة أو الصحوة Awakening (١٧٠١ ـ ١٧٢٣) وعينة هذا الجيل الرجل العظيم بنيامين فرانكلين الذى لا شك أنك تعرفه، وهذا الجيل بالطبع جيل مثالى.

الجيل الثانى: جيل الحرية Liberty (١٧٢٤ ـ ١٧٤١) وعينة هذا الجيل هو الرجل العظيم جورج واشنطن الذى لا شك أيضا فى أنك تعرفه، وهذا الجيل بالطبع جيل فاعل.

الجيل الثالث: جيل الجمهوريين Republican (١٧٤٢ ـ ١٧٦٦) وعينة هذا الجيل هو الرجل العظيم توماس جيفرسون، وهذا الجيل بالطبع جيل مدنى، يؤسس دولة ومؤسساتها.

الجيل الرابع: جيل التوفيق Compromise وهؤلاء ولدوا فيما بين (١٦٦٧ ـ ١٦٩١) ويمثلهم أندور جاكسون ـ وهؤلاء الموفقون، بالطبع، قوم متأقلمون.

أستطيع أن أؤكد لك الآن يا سيدى القارىء أنك قد بدأت تتفهم فلسفة المؤلفين فى هذا الكتاب ـ ربما لأن معرفتك بهؤلاء الرجال الذين يمثلون عينة الدورة الثانية ـ دورة الثورة تفوق بالطبع معرفتنا ومعرفة كل الناس بالدورة الأولى

حيث كانت أمريكا لاتزال فى ظلام المستعمرات أو تحت تأثير ضبابها الذى لم ينقشع بعد.

❑

دعنا نمضى مع المؤلفين مع جيل الدورة الثالثة دورة الحرب الأهلية Civil War هذه الدورة ياسيدى تضم ٣ أجيال فقط، فليس فى دورة الحرب وقت للمدنيين، أقصد - بل يقصد المولفان - أن أحداً من الذين ولدوا فى أثناء الحرب لن يكون مدنياً.

الجيل الأول (١٧٩٢ - ١٨٢١) جيل ما وراء الماديات هكذا أفهم قصدهما من تسمية هذا الجيل بجيل، ربما جاءنى الفهم من عينة هذا الجيل، وهو الرجل المحبب إلى قلبى إبراهام لنكولن الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية (١٨٦١ - ١٨٦٥) وهذا الجيل بالطبع جيل مثالى.

الجيل الثانى وهو جيل فاعل حسب تطور الدورة ويشمل مواليد الفترة (١٨٢٢ - ١٨٤٢) وعينتهم هو أولزسيز جرانت وهو جيل المذّهبين Gilded، وجرانت هو الرئيس الثامن عشر للولايات المتحدة الأمريكية، ولد ١٨٢٢ وتوفى ١٨٨٥ وتولى الرئاسة فيما بين ١٨٦٩ - ١٨٧٧ وهو من مواليد أوهايو، وهو الذى قاد قوات الحلفاء إلى النصر فى ميسورى عام ١٨٦٦، وعين قائداً أعلى للقوات الأمريكية فى ١٨٦٤ ثم سرداراً للقوات الفيدرالية تحت قيادة «لى» فى ١٨٦٥ ثم انتخب رئيساً لدورتين رئاسيتين وأخفق فى الترشيح للثالثة وقد جاءته السياسة من باب النجاح العسكرى الذى حققه، وقد تكونت شخصيته بفضل العزم والدقة والثقة والقدرة على التعلم من التجارب ولكن ألمعيته العسكرية لم تكن قادرة على حل مشاكل الأمة.. هكذا يقول

الأمريكان عن قائدهم فى ١٨٧٠ قبل أن يقول البريطانيون عن تشرشل كلاما مشابها فى أعقاب انتصار الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية، وأعداؤه يقولون عنه: إنه رئيس ضعيف ويكاد المؤرخون يوافقونهم على ذلك.

الجيل الثالث والأخير فى هذه الدورة (١٨٤٣ ـ ١٨٥٩) وهو جيل التقدميين Progressive جيل متأقلم ويمثل هؤلاء الرئيس تيودور روزفلت.

❑

تبدأ بعد هذا كله الدورة الرابعة دورة القوى العظمى.

وأول أجيالها (١٨٦٠ ـ ١٨٨٢) هو جيل المبشرين أو رجال الإرساليات ـ وهم مثاليون [حسب تقسيم المؤلفين] ويمثل هؤلاء فرانكلين روزفلت.

ثانى أجيال هذه الدورة (١٨٨٣ـ ١٩٠٠) يطلق عليهم المؤلف تسمية الجيل الضال أو الضائع Lost ـ وهو فاعلون ـ ويمثل هؤلاء دوايت أيزنهاور.

ثالث أجيال هذه الدورة (١٩٠١ ـ ١٩٢٤) جيل مدنى ـ وهذا هو الجيل الذى نعرف كثيراً من شخصياته ـ بل إن من هذا الجيل الرئيس الأمريكى الحالى [أى في ١٩٩١] چورچ بوش، ومنه أيضا معظم الرؤساء الأمريكيين الذين عرفناهم فى السنوات الماضية، عينة هذا الجيل عند المؤلف هو الرئيس العظيم جون كنيدى.

رابع أجيال هذه الدورة (١٩٢٥ـ١٩٤٢) جيل متأقلم ـ ويسميه المؤلفان جيل الصمت ـ ويأخذان عليه مثلاً والتر مونديل، نائب الرئيس الأمريكى الذى تراه أنت وكل العالم اليوم يحظى بإنتقاد الأمريكيين لأنه لا يفعل شيئاً..

❑

أما الدورة الخامسة فأول أجيالها هو جيل الازدهار Boom (١٩٤٣ ـ ١٩٦٠) وهو جيل مثالى عينته عند المؤلفين هو نويت جنجريش.

ثانى أجيالها هو الجيل الثالث عشر Thirteenth لم يسمياه حتى الآن إلا بهذا الأسم وهو مواليد (١٩٦١ ـ ١٩٨١) ومن المفترض أن يكونوا فاعلين. ويأخذان عليهم مثلاً توم كروز وهو فنان أمريكى ناشىء محبب إلى قلوب الأمريكيين.

ثالث أجيال هذه الدورة هم مواليد (١٩٨٢ ـ ٢٠٠٣) من المفترض أن يكونوا مدنيين ـ والمؤلفان يعجزان عن تسمية هذا الجيل فيأخذان له اسم الدورة نفسها.

وآخر الأجيال هو الجيل الذى لم يولد منه أحد بعد (٢٠٠٣ ـ ٠٠٠٠٠) ليس له اسم بعد. وليست له صفة وليست له عينة!!.

❑

هل قصدت من استعراضى معك لهذه الدراسة على هذا النحو أن أبين لك أن الأمريكيين ليسوا المثاليين فحسب، وليسوا الفاعلين فحسب، وليسوا المتأقلمين فحسب، وليسوا المدنيين فحسب، ولكنهم مزيج من تعاقب كل هذا من لدن مولدهم وإلى حين تبرز صفاتهم فى أعمالهم الجماعية فتصبغ الأجيال والحقب الزمنية بما نراه واضحاً ومؤثراً فى التاريخ المعاصر.

على أية حال فإن هذه الدراسة نموذج للدراسات التى تتناول التاريخ الاجتماعى من منظور يحاول أن يفهم تعاقب الحوادث فى ضوء فلسفة قد تخطىء وقد تصيب، ولكنها تجيب عن السؤال القائل: لماذا حدث؟ وكيف حدث؟ بطريقة تهيىء الأذهان لقراءة تاريخ المستقبل.

وتاريخ المستقبل شىء مهم جداً، رغم أنى من أشد المقتنعين بأنه من المستحيل أن يمضى الزمن بطريقة خطية (Linear) فنفترض مثلاً زيادة فى الدخل إلى

١٢١٪ فى العام القادم إذا كان العام الماضى قد حقق فى نفس الظروف الزيادة إلى ١١٠٪.

نعم أنا من أشد المعارضين لمثل هذا التفكير الخطى ولكنى مع ذلك من أكثر المحبذين لاستعماله لبناء إطار أولى - وخط تمهيدى فحسب.

نعم لن يصدق ولكن لابد من وجود معيار نقيس به قيمة نفترض وجودها حتى إذا كنا متأكدين تماماً من أنها لن تكون هكذا.. لأن هذا عندى أفضل من العدم!.

(٧)

أحب أن أحدثك الآن بشيء من التفصيل أو الإيجاز [لا أدرى]، عن حياة الأمريكيين اليومية!!

ربما أبدأ بالإسكان وخاصة إذا كان المؤلف من بلد لا يعانى من شيء مثل معاناته من الإسكان!!

سنتحدث كثيراً بالآكر، فلابد لك من أن تعرف كم يساوى الآكر ACRE الأكر ياسيدى مقياس مساحة وهو يساوى ٤٣,٥٦٠ قدماً مربعا أو ٤٨٤٠ ياردة مربعة أو ١٦٠ عموداً rods مربعاً. والآكر ياسيدى مربع الشكل كل ضلع من أضلاعه يساوى ٢٠٨,٧ قدماً. وفى النظام المترى الذى نعرفه جميعاً ياسيدى الآكر يساوى ٤٠٤٧ متراً مربعاً. [تذكر أن الفدان يساوى ٤٢٠٠ متر مربع تقريباً] أى أن الآكر يمثل ٩٦,٣٪ من الفدان تقريباً، وفى هذا النظام فإن الهكتار يساوى ٢,٤٧١ آكر. وفى الموسوعة التى رجعت إليها لأنقل عنها هذه المعلومات - وهى موسوعة كتاب العالم - الناشر Field Enterprises Educational Corporation، شيكاغو. فى هذه الموسوعة

رسم توضيحي يبين لك كم يساوى الآكر بمساحة البيوت المقسمة (البلوكات) فى أمريكا.. وأنت ترى فى هذا الرسم أن الآكر يساوى المساحة التى تحتلها سبعة بلوكات كلٌ منها ٥٠ قدماً × ١٢٥ قدماً. سأقرب لك المسألة بالنظام المصرى (المترى). تصور بيوتا متلاصقة من اليمين والشمال على صف ولحد لكل بيت منها واجهة طولها ١٥ متراً وتمتد هذه البيوت متوازية جميعاً فى العمق بطول ٣٧,٥ متراً إذن فكل بيت من هذه البيوت مساحته ٥٦٠ متراً تقريباً، الآكر ياسيدى هو سبعة من هذه البيوت الضخمة الفخمة.

تصور أننا أخذنا كل بلوك من البلوكات فقسمناه قطعتين (على طريقة رأس البر مثلاً) كل قطعة ٢٨٠ متراً... إذاً هذه المساحة على طريقة الإسكان الإقتصادى تكفى ٣ شقق (أحيانا ٤ ونادراً ٢) ومثل هذه البيوت [الأربعة عشر] تكون مع بعضها آكر واحداً.

تعال نتأمل حال الأرض الزراعية فى مصر عندما تتحول [للأسف] إلى أرض مبانى، أنت تعرف أن الفدان ٢٤ قيراط - الآكر يساوى على أقل تقدير ومع الإكرام الواجب لك - ٢٣ قيراط، وعادة فإن الفدان يمكنه أن يهيىء أرضاً لإقامة ٢٤ بيتاً أو ١٦ بيتاً من مستوى أرفع. قل إن الأكر يهيىء ٢٣ بيتاً أو ١٥ بيتاً من مستوى أرفع وقارن ذلك ببيوت الأمريكان التى أحدثك عنها الآن.

خذ مثلاً ياسيدى هذا البيت الصغير الذى أسكنه - طابقه العلوى ثلاث حجرات نوم فقط وحمام. فى طابقه الأول حجرة استقبال وحجرتا نوم ومطبخ وحمام. هذا البيت ياسيدى يتمتع بأرض واجهتها خمسون قدماً على شارع رئيسى وله فى العمق أقصد لأرضه فى العمق ٢٢٥ قدماً. إذن فهذا البيت يملك من الأرض ٥٠ ×

٢٢٥ قدماً وهو ما يزيد عن ربع فدان!! هذا الربع فدان فى ريف مصر كاف لإقامة ستة بيوت على الأقل، فيها من الحجرات أكثر بكثير مما فى بيوت الأمريكان.

أظننى الآن قد وصلت معك إلى تصور قائم على المقارنة، ولعل صورة هذه البيوت الجميلة المتناثرة على المساحات الخضراء الممتدة قد اتضحت أمام ناظريك الآن.

كل بيت يطل على الجهات الأربع. أمامه الشارع الذى يأخذ منه رقمه، خلفه مائتا قدم على الأقل منها مائة قدم يمتلكها فضاء تتصل بمائة قدم فضاء أخرى هى التى تمثل عمق البيت المناظر المطل على الشارع التالى. وعن يمين وعن شمال فضاء بعضه مرصوف لتمر منه السيارات إلى الجراج خلف المنزل، وهذه هى البيوت ياسيدى.

ليس هناك بيت فى مدينة أوضاحية «مرتفعات كليفيلاند» كلها شذَّ عن القاعدة، وارتفع أكثر من دورين، إنما كل البيوت حريصة على نفسها لم تصبها حمى الهدم والأسمنت المسلح التى تجتاح مصر فيما يشبه الوباء الذى يستعذبه المصابون به. ويظنون ارتفاع درجة الحرارة المصاحب للحمى نوعاً من التدفئة المركزية غير مدفوعة الأجر.

وكل هذه المنطقة التى أسكن فيها ياسيدى مسماة بأسماء إنجليزية: لى، كنجستون، فيرمونت، فايرهل، تايلور، كوينستون، برنستون، شارلستون، مارلبورو، نورثن بارك.... إلخ.

(٨)

والناس يسكنون بيوتهم.. لكلٍ بيته، ولكل بيتٍ صاحبه، وهكذا الحال فى سبعين فى المائة من مساكن الأمريكيين.. وتتبقى بعد ذلك ثلاثون فى المائة من المساكن للمواطنين الذين لا تمكنهم ظروفهم من بناء المساكن أو اقتنائها إلا بعد حين.. حين يُتاح لهم الدخل أو حين تتاح لهم الأسرة التى تستلزم مسكناً.. أو حين يتاح لهم الاستقرار.

أحب أن أستأنف هذا الحديث عن بعض جوانب الحياة اليومية فى الولايات المتحدة الأمريكية لكى تتأمل بنفسك هذه الجنة أو هذا الجحيم.

أنت تعرف مثلاً أن الحياة هنا قامت على مبدأ الاعتماد على السيارات الخاصة. وحين كنا لا نزال دون العاشرة كنا (أنا وشقيقى أحمد) نستمع بشوق إلى صديق للعائلة عاد من أمريكا وكان أول ما يحكيه هو أنه لا أحد هناك إلا ويمتلك سيارة. حتى إن كل العاملين فى فرن الخبز يركبون سيارات من ذوات الأبواب الستة.. لهذا فليس غريباً عليك أن ترى السيارات وكثرتها اللامتناهية هنا، ولكنك مع هذا تجد الأتوبيسات العامة على فخامتها وجمالها وتكييفها قليلة العدد. متباعدة الزمن فى مرورها عليك.. وعلى سبيل المثال فإن عودتى من المستشفى إلى البيت فى الأسبوع الأول كانت تستغرق ربع ساعة بالتاكسى ولكنها تستغرق ما لا يقل عن ساعة بالأتوبيس رغم أننا نسلك نفس الشوارع بلا اختصار على الإطلاق. ذلك أننا فى الأتوبيس ننتقل ما بين أتوبيسين أولهما ينقلنا إلى ميدان واسع فسيح، ولكنه بلا حياة على الإطلاق، وهو ميدان دائرة الجامعة، أو حلقة الجامعة. ثم ننتظر قرابة نصف ساعة حتى يأتى أتوبيس آخر.. هذا إذا عدنا بعد الساعة الثالثة.. أما إذا عدنا

قبل الساعة الثالثة (وهو ما لم يحدث) فإننا نكون حينئذ معرضين لانتظار الأتوبيس الثانى قرابة ساعة!! لأنه فيما قبل الثالثة لا يأتى إلا كل ساعة.

❑

لعل أسوأ ما فى الأتوبيس هو ذلك الوقت الطويل الذى تنتظره فيه بين مجموعة قليلة من البشر لا تبعث أبداً إلا على الخوف، بل والرعب، هل تستأهل المسألة هذا الرعب.. أم أننا من كثرة ما حذرونا (حتى ونحن لا نزال فى أقطارنا) من هؤلاء الأمريكيين أصبحنا نخشاهم بأكثر من اللازم، ونخشاهم جميعاً: الصالح والطالح.. نعم ياسيدى ربما يكون رأيك أننى أبالغ فى قولى أن هؤلاء لا يبعثون على الاطمئنان أبداً. ألا ترى هذه الملابس التى لاتدل إلا على أنهم خرجوا فى سرعة متناهية حين علموا بوجود الضحية (الذى هو أنا مثلاً) حتى يقتلوه ويسلخوه ويعودوا بجلده وكل ما فى جلده.. انظر إلى هذه الوجوه، هل تتوقع من هذه الوجوه أن تستجيب لرجاءاتك حين تصبح ضحية فى أيديهم.. والجأ إلى الله أن يزيل عنى الخوف. ولكن أليس من حقى على نفسى أو من حق نفسى علىّ ألا أرمى بها إلى التهلكة؟

هكذا تتدافع مشاعر الخوف والاطمئنان حتى يأتى الأتوبيس، والأتوبيس لا يأتى.. اللهم ارحمنا برحمتك من أنفسنا.. ومن عبادك.

هذه هى أتوبيسات هيئة RTA أى هيئة النقل السريع أو ما يناظر هيئة النقل العام بالقاهرة أو الأسكندرية أو مرفق النقل الداخلى بالزقازيق، قد أكون راغباً فى أن أحدثك كثيراً بشىء (لا يخلو فى نظرك) من التحامل على هذه الأتوبيسات، وكيف

أن نظام النقل الداخلي في أمريكا لا يرقى إلى أوروبا بعد أن حدثتك عن اتساع الفجوة الزمنية بين كل أتوبيس والتالي له. وربما لم أعبر لك تماماً عن مدى الرعب الذي كان يعتريني في زيارتي السابقة لأمريكا أو في هذه الزيارة حين أقف في محطة من محطات الأتوبيس ربما وحيداً تماماً وربما محاطاً بأحد الزنوج أو بعضهم يأتون بحركات لا تبعث إلا على الرعب وقراءة الشهادتين قبل أن تلقى حتفك.. ربما يكون السبب في كل ذلك أني مُقلّ إلى أبعد الحدود في ركوب هذه الأتوبيسات هذه المرة والمرة السابقة، ولهذا فلك أن تأخذني على أنني صاحب انطباعات فحسب ولست صاحب خبرة أو رأي.

❑

ولكنني اليوم فقط بدأت أدرك كم تتكلف الخزانة الأمريكية من أجل بقاء هذه الأتوبيسات في خدمة الطوائف التي تضطر إليها.. نعم كنت أتحدث إليك فيما مضى من فقرات عن أن الاعتماد هنا على السيارات الخاصة، ولكني لم أستطع توضيح الصورة الحقيقية التي لمستها اليوم وهأنذا أفعل كي أكون أميناً على الصورة.

ركبت الأتوبيس من محطة ميدان الجامعة أو حلقة الجامعة (حسب الترجمة الحرفية)، كانت معي تذكرة من النوع الترانزيت أي التي أركب بها أتوبيسين متعاقبين وهي لا تكلفني إلا دولاراً واحداً هو كما تعلم لا يسمن ولا يغني من جوع في أمريكا. ركب معي الأتوبيس شخص آخر. نحن الآن في أول محطة لهذا الأتوبيس الذي يبدأ في ميدان الجامعة وينتهي في البيتش وود.

أنت تعلم من فقرة سابقة أنه فيما قبل الساعة الثالثة لا يأتي هذا الأتوبيس إلا كل

ساعة مرة. وبعد الساعة الثالثة يأتى كل نصف ساعة.. وتزداد هذه الفجوة أيام السبت والأحد.. ولا يعمل هذا الأتوبيس بعد الساعة السابعة مساء.. أى أنك لن تجده لا فى الثامنة ولا فى التاسعة... إلخ. تماماً كأتوبيسات الأقاليم فى مصر منذ عشرين عاماً وربما أكثر من عشرين عاماً، وفى أيام الآحاد لا تعمل معظم الأتوبيسات هنا، وفى أيام السبت تنتهى دورتها فى حوالى الخامسة وثمان وثلاثين دقيقة!!

تسألنى كيف سار هذا الأتوبيس فى تلك الرحلة. سأحكى لك بالتفصيل الممل، فقد انتظر الأتوبيس حوالى ٧ دقائق فى محطة البداية فلم يركبه أحد بعدنا. بعدنا هذه تعنينى أنا وشخص آخر فقط، غير السائق بالطبع. وبعد محطتين اثنتين نزل الشخص الآخر وبقيت بمفردى.. محطتى كانت السابعة أو الثامنة. لم يصعد أحد قبلها الأتوبيس وبالطبع لم يهبط أحد.. قررت، من باب التأمل، أن أكمل رحلتى مع هذا الأتوبيس إلى نهاية الخط وطوال حوالى عشرين محطة يستغرقها خط سير الأتوبيس لم يصعد أحد ولم يهبط أحد.. إذاً هذا الأتوبيس تحرك من ميدان الجامعة إلى ساحل البيتش وود من أجل موعده فحسب. وتحرك هذه المسافة كلها بطوله وعرضه ودخله منها لا يتعدى دولاراً واحداً.. أقل من ثمن نصف لتر من الوقود.. لن أقول لك أكثر من ذلك.

ليس لى شأن كما تعلم بالبيتش وود إنما كنت أتتبع مسار هذه الأتوبيسات من باب ما نسميه فى الرحلات «بالجولات الحرة»، عدنا من البيتش وود، لم يكن ينتظرنا هناك أحد على الإطلاق، وبعد تحرك الأتوبيس بدقيقة إذا بسائقه يقف به، هناك وراء الأشجار كانت سيدة تشير إليه، كانت فى ملابس الرياضة القاسية،

وكانت فى عقدها الخامس أو ربما السادس. وكان السائق يعرفها، وصعدت الأتوبيس بملابسها الرياضية.. وكان من الواضح أنه ليس معها شيء على الإطلاق. ربما استغنت بمعرفة السائق لها (وبالتأكيد معرفة المفتش أيضا) حتى عن أن تحمل «الأبونيه» الذى يبين أن من حقها الركوب!!.

نعم ياسيدى تبوأت السيدة مقعدها، وحدثت السائق عن رياضتها فى ذلك الصباح وبعد خمس محطات أخرى صعدت سيدة أخرى بدينة بإفراط إلى الحد الذى أثر على قلبها بالهبوط. وتبوأت هى الأخرى مقعدها الذى يبدو أنه كان مخصصاً لها من دون كل المقاعد.

وبعد ثلاث محطات أخرى صعدت سيدة سوداء أخرى. بينها وبين السيدة البدينة حديث متصل بدأ بالأمس أو ربما من أمس الأول أو قبل ذلك. والأتوبيس يمضى بنا حتى جاءت محطتى!!

هل الحكومة الأمريكية مظلومة أو ملتزمة؟ أين يذهب الدعم ياسيدى.. هل هذا إهدار للدعم.

الحقيقة أن المظلوم هو شعبنا المصرى الطيب الكريم الذى عانى ولايزال يعانى حتى ولو لم نرفع عنه الدعم الهزيل!.

(٩)

لعلك تريد بعضاً من الحديث عن المرور فى الولايات المتحدة الأمريكية، بعد ما سمعت عن طرافته. فعلى الرغم من الشوارع العريضة الواسعة والميادين الأكثر اتساعاً فإن هناك كثيراً من القواعد والحدود التى يجب الالتزام بها. وعلى سبيل

المثال فإن إشارات المرور فى كثير جداً من الأحيان مهيأة بحيث تقودك إلى الامتناع عن السير فى اتجاه ما، وأحيانا أخرى إلى السير فى نفس الاتجاه!! لا تعجب من ذلك فإن فى النظام الأمريكى ما يجعل بعض الشوارع ذات اتجاه واحد فى أيام العمل، وذات اتجاهين فى عطلة نهاية الأسبوع، أو فى غير ساعات العمل!! وقد أعدوا أنفسهم لذلك بأن جعلوا الإشارة تتكون من رؤوس أو نقاط مضيئة. يضىء بعضها على النحو الذى تكون به سهما فتعنى المرور، وفى ذات الوقت تضىء نفس الإشارة من الجهة الأخرى على النحو الذى تبدو به على هيئة حرف × فتعنى بالطبع عدم المرور.. وإذا كانت الإشارة تعنى المرور كان السهم رمز المرور مضيئاً بالأخضر. أما إذا كانت تعنى عدم السماح بالمرور كان حرف الإكس بالأحمر. وعلى هذا النحو أيضاً تجد الإشارة للمشاة. حين «تخضر» فإنها تقرأ لك بالحروف أنك تستطيع المشى. وحين «تحمر» فإنها تقرأ لك «لاتمش»!!

ومع هذا فإن من حق أى مواطن يمشى على قدميه (أحب أن أقول من حق كل راجل، ولكنى أخشى المطبعة أن تصححها كل رجل فيصبح المعنى مشوهاً تماما كأنه ليس من حق السيدات)، أقول من حق كل مَنْ يمشى على قدميه أن يكسر الإشارة ويمشى، وتحترمه السيارات مع هذا تماماً.

أما اللافتات الإرشادية التى تقودك طوال طريقك فهى نموذج حىٌّ للحضارة الأمريكية التى قامت على الوضوح التام الذى لا لبس فيه، الوضوح الذى يعنى التحديد أى الذى يكون القول السائد فيه هو «وعلى سبيل الحصر» لا «على سبيل المثال».. ولأنهم يأخذون الأمور على سبيل الحصر لا على سبيل المثال فإنهم يقللون إلى أدنى قدر ممكن من المسائل الخلافية والاجتهادية والتفسيرات

المتضاربة.. تلك المسائل والأمور التى تحكم اليوم أكثر من ٩٩٪ من مشكلات الإدارة المصرية حين تتصدى هذه الإدارة لمسئوليتها!!

بقىَّ أن أذكر لك أنك تجد عند تقاطع شوارع المدينة مع الطرق التى تؤدى إلى الطرق السريعة التى تمر بالمدينة من خارجها لافتات تذكر رقم الطريق. والطرق السريعة فى أمريكا مرقمة كلها، أو هى أرقام فحسب، وقد انتبهوا عند ترقيمها إلى أن يعطوا الطرق التى من الجنوب إلى الشمال (أو بالطول كما نقول) أرقاماً فردية. وأن يعطوا الطرق التى من الغرب إلى الشرق (أو بالعرض كما نقول) أرقاماً زوجية. وهكذا فإنك لن تضل طريقك أبداً.. اللهم إلا أن تكون فى طنطا متوجهاً إلى الإسكندرية فتأخذ طريق القاهرة الإسكندرية وتصمم على السير فى اتجاه القاهرة إلى أن تكتشف هذا الخطأ بعد بضعة كيلو مترات.

(١٠)

فى كل ما حققته أمريكا وما تحققه لا تزال أمريكا حكومة وشعباً تؤمن بالكتاب والمكتبة..

لم يزعزع هذا الإيمان الدفين فيها أنها هى التى نشرت التليفزيون وبرامج التليفزيون..

لا تزال المكتبة عند هؤلاء القوم شيئاً مقدساً.

والمكتبة هى إحدى المعالم السياحية البارزة فى كل مدينة وكل حى من أحياء أمريكا، مبناها فخم ضخم تحوطه الحدائق أو مساحات الانتظار، ومواعيدها مناسبة لكل الفئات، والتسهيلات التى فيها لا تخطر ببال.

ومع هذا كله فقد اتسعت المكتبات الأمريكية العامة لمجاراة روح العصر، فأصبحت تعتمد على الكمبيوتر فى الفهرسة، والتزويد، والاستعارة، وأصبحت تضم قاعات خاصة بالكمبيوتر والبرامج المسجلة على الشرائط الممغنطة الصلبة Hard Desk ولكن كل هذا يتم من منظور مساعد للكتاب وليس بديلاً عنه.

ولا تزال ترى أمارات الخير وبشائر الأمل فى مستقبل هذا الشعب حين ترى الشبان والشابات وفى أيديهم الأعمال الأدبية يقرأونها فى قاعات الانتظار، أو وهم قادمون لزيارة المرضى فى المستشفيات.

أما المكتبة الطبية الأمريكية فشىء مبهر، وأنا كما ترى أتحدث عنها كشىء واحد ولا أقول المكتبات. ذلك أننى أريد أن أدلك على ما فعلوه بهذه المكتبات حين جعلوها جميعاً تتصل بقاعدة معلومات قوية تهيىء للطبيب (أو الممرضة) أن يتلقى أى مقال يريد أن يقرأه فى خلال يومين على أقصى تقدير، وذلك بفضل برنامج للبحث عن المعلومات يأخذ فى اعتباره المسافة بين موقع الطبيب السائل عن الشىء، وموقع المكتبات التى فيها هذا الشىء، وينتقى أوتوماتيكياً لهذا الطبيب أقرب هذه المكتبات إليه حتى لا تتكلف المكتبة الطالبة كثيراً من نفقات البريد.

أحب أن أضرب مثلا بالطلبات التى كانت أمامى فى مكتبة مستشفى كليفيلاند. فكثير من هذه الطلبات كان موجوداً فى مكتبة جامعة CWRU فى كليفيلاند نفسها. تسألنى ولماذا لا يخطفون رجلهم إلى مكتبة جامعة كيس ويسترن، ويبحثون هناك عما يريدون قبل أن يسألوا عنه الكمبيوتر. فأجيبك فى هدوء وماذا يفعل الكمبيوتر إذا خطفوا أرجلهم، تماماً (مع عكس المنطق) كما يتمنى مصرى أمريكى أن ندخل

الكمبيوتر فى مصالح الحكومة فتجيبه ياسيدى القارىء بقولك: وماذا نفعل بجحافل الموظفين؟

❑

وقد كنت فى غاية السعادة حين أتاح لى الحظ أن أطلع فى ركن الكتب الموجود فى أحد المحلات العامة على مجموعة كبيرة من الكتب التى خُفضت أسعارها إلى أقل من الدولار، وأسعدنى أكثر أن أرى بين هذه المجموعة مجموعات الكتب التى تمثل الحلقات أو المسلسلات التليفزيونية الشهيرة.

وقد وجدت أن حلقات «أيام حياتنا» Days of our lives موجودة فى أحد عشر كتاباً على الأقل.

ووجدت من مسلسلة «عالم آخر» Another World اثنى عشر كتاباً، ومن مسلسل دالاس الشهير أحد عشر كتاباً، ومن مسلسل «بينما يتقلب العالم» As the world turns أحد عشر كتاباً كذلك.

والطريف أن الذى يقوم بنشر هذه المجموعات ناشر كندى ومقره فى كندا هو Pioneer Communication Network وتُطبع هذه الكميات الضخمة فى كندا وتحمل علامة تجارية اسمها Soaps & Serials وتُوزع كما ترى فى كافة أنحاء الولايات المتحدة، وقد ينزل بها التخفيض إلى حوالى ٦٧ سنتاً أى أن الثلاثة بدولارين.

وتسألنى عن سر سعادتى، لعلك توافقنى على أن الأدب التليفزيونى لابد أن يكون مكتوباً وإلا تحول إلى مجرد أداة لملء أو لسد الفراغ بين ألعاب تليفزيونية مبهرة.. أى بعبارة أخرى لابد أن ترقى الفكرة الفنية والأدبية فى مادة أى عمل تليفزيونى إلى درجة أن تكون قابلة للصياغة فى كتاب.

وربما أعود لأستفيض معك فى نقاش هذا الموضوع فى موضع آخر.

(١١)

لايزال الطعام الأمريكى رخيصاً وفى متناول الناس جميعاً.

ربما لا يزال عندهم ذلك الخير الذى كنا نفخر به فى مصر من دون أن نحمد الله عليه، حين يكون فى وسعك مهما كان دخلك أن تجد طعاماً يكفيك الجوع.

وقد كان من حظى أن أتناول الطعام فى عدد من المطاعم الراقية التى تختلف جنسيات طعامها من المكسيكى إلى اليونانى إلى الإيطالى إلى الفرنسى إلى الصينى، وذات مرة قال أحد أصدقائنا وكان يابانياً ألا تودون أن تأكلوا طعاماً أمريكياً. ووجدتنى أعلق أنه لا يوجد شىء أسمه الطعام الأمريكى.. اللهم إلا إذا كنت تقصد تلك الوجبات السريعة من أمثال الهوت دوجز، والبيزاهت، والماكدونالد، وحتى هذه فإنها تطوير لأطعمة أخرى فالبيزا هت هى الطبعة الأمريكية من البيزا الإيطالية، وهكذا.. أنا لا أعرف إن كنت مصيباً فيما أقول أم لا.. ولكننى وجدت المستمعين من زملائى الذين كانوا معنا فى السيارة يوافقوننى... والله أعلم.

ولكنى مع هذا أريد أن أحدثك على سبيل المثال عن هذا المطعم الذى كثيراً ما يزود مؤتمرات قسم الباطنة العامة بالطعام، اسمه السيد البطل MR.HERO وقد جعل شعاره المطبوع على الأكياس الخاصة به أنه منقذ العالم من الأطعمة السريعة التقليدية!! تسألنى عن هذا الإنقاذ الذى تولاه فأقول لك إنه يقدم سبعة أنواع من السندويتشات وهو يبعث لنا حوالى سبعة من كل نوع فى كيس، وعلى الكيس اسم

النوع بالقلم الفلوماستر، كيس لسندويتشات الديوك الرومى [فى البلاد التى تنتمى للحضارة الرومية يسمونه بالديك التركى وفى بلاد كمصر والبلاد العربية ارتبطت بتركيا يسمونه بالرومى]، وكيس لسندويتشات اللحم البقرى المحمر، وثالث لسندويتشات لحم التونة، وخامس لسندويتشات الجمبرى، وسادس من لحوم الخنزير، وسابع من نوع آخر من لحوم الخنزير، وكل سندويتش ملفوف فى أوراق السيد البطل منقذ العالم من الأطعمة السريعة المعتادة. مع أن مسألة إنقاذ العالم هذه فيها نظر!!.

❑

وأحب أن أذكر لك، بهذه المناسبة، أن أمريكا قد انتبهت منذ ما قبل منتصف الثمانينات إلى خطورة استعمال الأكياس «البلاستيكية» على البيئة والغلاف الجوى، وعادت أمريكا إلى استخدام الأكياس الورقية التى كنا نعرفها جميعاً فى مصر ولانزال نظنها من بقايا عهد عصر ما قبل الانفتاح.

وفى أمريكاً يحرصون الآن تماماً على الإفادة من الصحف القديمة فى صناعة الأكياس الورقية، وعلى الإفادة من علب الصفيح الفارغة التى تستخدم للمشروبات والمأكولات كذلك.. وعندهم الآن «نظام قومى» لإعادة التدوير أو إعادة الدورة Recycling يقتضيهم أن يجمعوا هذه المواد، وأن يضعوها فى أكياس مخصوصة بحيث تذهب، بعيداً عن القمامة، إلى المصانع التى تتولى إعادة تصنيعها.. وتجد الأكياس الورقية مكتوباً عليها أنها صُنعت من المواد المدورة أو من مواد ناشئة عن «إعادة الدورة». وهكذا..

وللإنصاف أذكر أن هذا النظام متبع فى المملكة العربية السعودية منذ مرحلة مبكرة، وبالنسبة لى فقد رأيته فى السعودية بدون الاسم طبعاً قبل أن أراه فى أمريكا - لا أذكر بالتحديد فى أى المرات ٧٨ أم ٨٨ أم ٨٩؟ ولكنه أصبح اليوم بمثابة حمى جميلة تجتاح أمريكا كلها وفى معظم مصالحها وبيوتها وشوارعها أماكن مخصصة لإعادة الدورة Recycling.

(١٢)

اهتمام مراكز البحوث الأمريكية والجامعات هنا بموضوع ما قد يصل إلى حد الجنون!

هذه هى حقبة أزمة صدام مثلاً فإذا بالدراسات التى تتناول الموضوع من كل زاوية لا تنتهى.

أنت تعرف أن نظامهم التعليمى فى الجامعة يقوم (فى أغلب الأحوال) على ما يسمى بنظام الساعات المعتمدة، وهو نظام يتيح للطالب أن يختار مقرراته فى حدود، وتكون النتيجة أنه ينجذب إلى موضوع الساعة.. أحياناً لأنه سيجد مواده متوافرة، وأحياناً لأنه يرضى فضوله، وأحياناً لأنه يمهد نفسه لشىء ما فى الوظائف القادمة بعد انتهاء هذه الأزمة.

وفى كثير من الأحيان يُعبر الطلاب من خلال اختيارهم للمواد التى يدرسونها عن رغباتهم الشخصية، وفى هذا المجال يذكر أستاذ مسلم فى جامعة أمريكية أنه وزع استبياناً على طلابه فى نهاية الفصل الدراسى وكان من بين أسئلته: لماذا اخترت هذه المادة؟ وجاءته إجابة طالبة يهودية تقول: "to fight Islam" لأحارب

الإسلام، ربما لم تكن تعرف أن هذا الأستاذ مسلم، وربما كانت تعرف ولا تبالى.

وقد تداولت الصحافة العربية فى منتصف الثمانينات، على ما أظن، ما اسمته بفضيحة التحقيق فى مؤتمر إسلامى فى جامعة هارفارد مولته المخابرات الأمريكية بخمسين ألف دولار، وهذا المبلغ كما تعرف مما تقرأ عن المؤتمرات المصرية (لا الأمريكية) ليس شيئاً ذا بال خاصة إذا علمنا أنه شارك فى هذا المؤتمر ما لا يقل عن ثلاثين عالماً أتى معظمهم من الشرق الأوسط خصيصاً له.

(١٣)

هل نجت أمريكا من حمى الطائفية والتفريق العنصرى أم أنها لا تزال تعانى؟

سؤال كان لابد لى من أن أتأمل الواقع أمامى لأجد عليه إجابة.

ولابد أن أطلب إليك أن تحاول معى معرفة نسبة السود بين هذا الشعب، فأحياناً ما يهيىء للمرء منا أن ٩٠ ٪ من الأمريكان سود على عكس ما قد يعتقده الكثيرون منا أيضاً أن ٩٠ ٪ من الأمريكان بيض - فى الأتوبيس مثلاً ١٠٠ ٪ سود - بين طوائف معينة ١٠٠ ٪ سود - فى الأسواق العامة، فى مداخل الفنادق... إلخ، وعلى الرغم من أن هذا البلد هو بلد الإحصاءات فإنك لن تستطيع أبداً أن تقتنع بكثير منها.. ومع ذلك فهم يقولون إن ٦٠ ٪ من سكان ولاية أوهايو مثلاً من السود، والله أعلم.

تأمل بعد هذا إعلانات التليفزيون فمن الغريب أن تجد الإعلانات وقد قصرت النجومية على السود..

هذا إعلان شهير عن دجاج كنتاكي: في هذا الإعلان نجد أبطال رياضات كمال الأجسام وكلهم من السود، وهم يستمتعون بهذه الوجبة، وينفثون شرر النار من أفواههم بعد تناولها، ثم إذا بهذا الشرر قادر على أن يضع كرة السلة فى السلة بلا مجهود! مع أن دجاج كنتاكى هذا كما تعرف ياسيدى ليس إلا كثيراً جداً من المتبلات فوق قليل من الدجاج، وهو يكفى بالكاد لإطعام شخص أقل من العادى فيما يتعلق بكمال جسمه.. أريد أن أسألك هل لا يصلح هذا الإعلان بنجوم بيض؟ اعتقد والله أعلم أن مثل هذه القوة العضلية البارزة لا توجد فى البيض أبداً بنفس القدر الذى هى فيه فى هؤلاء السود الذين يبعثون الشرر القادر بعد ذلك على أن يخطف كرة السلة ليضعها فى سلتها.

(١٤)

وأخيراً..

أحب أن أقول لك إنه لا يزال عند الناس فى أمريكا [عموماً] شعور الصداقة، خذ مثلاً هذه المسافة التى أقطعها فى مرتفعات كليفيلاند فى طريقى إلى الأتوبيس أو إلى السوبر ماركت أو لمجرد المشى، ها هم الناس يبدأوننى بالتحية حتى أولئك الجلوس فى شرفات منازلهم عن بعد.. ولكنهم على النقيض من ذلك حين يكونون فى مجتمع مزدحم. تجدهم متحفظين إلى أبعد الحدود..

وفى المستشفى تجد الزملاء والزميلات حريصين على أن يطمئنوا على أحوالك كلها: سكنك، صيامك، سفرك، هواياتك، وقت راحتك.. ولكن ليس من اللحظة الأولى..

وحتى فى الأتوبيس تجد السائق يفتح معك حديثاً عن عملك، وعن مواعيدك ولكن ليس من المرة الثانية أو الثالثة التى يراك فيها ولكن ربما من الرابعة.

هل أريد أن أقول إن الأمريكيين ليسوا إنجليزاً؟ نعم بالطبع.. ولكن هل هم شرقيون؟ نعم وربما أكثر من الشرقيين الذين نعرفهم الآن.

2

أمريكا تستعيد أم تستعير روح النصر

أمريكا تستعيد أم تستعير روح النصر

(١)

أول سؤال وجهته إلى صديقىّ اللذين تفضلا بمرافقتى من الفندق إلى المنزل كان عن هذه الأعلام الأمريكية الكثيرة المرفوفة على كثير من المنازل وكان الجواب: بمناسبة الحرب، قلت ولكن الحرب انتهت منذ أسبوعين بالنصر، قالا: نعم ولهذا يحتفظ بها الأمريكيون!!.

وطوال إقامتى وجدت الشعب الأمريكى وقد أصابته روح جديدة: روح تستعيد الانتصار على العراق! وتستعيد بهذا الحدث (الإعلامى) روح الانتصار!.

أما أن أمريكا انتصرت فأمر لا شك فيه.. وأما أن المعركة كانت صعبة فأمر هو الشك بعينه!! ولكن الإعلام الأمريكى لابد أن يصورها كذلك ليجعل للانتصار معنى!.

أريد أن أقول إنه لم يكن هناك مبرر على الإطلاق لكى تخرج أمريكا من هذه المعركة بغير النصر! ولكن الأمريكيين لا يريدون إبراز هذه الحقيقة لأنهم بإبرازها يضيعون روحاً استعادوها. ثم أظهروا للناس وأنفسهم أنهم استعادوها!! لأنهم كانوا منذ حرب فيتنام فى حاجة إلى استعادتها!!.

روح النصر التى تغمر الأمريكيين اليوم روح مستعارة.. وهم أول مَنْ يعرف ذلك.. فأمريكا وجدت نفسها أمام فرصة سانحة ربما لن يجود التاريخ بمثلها ومن المؤكد أنه لم يجُد فيما مضى بمثلها على الإطلاق..

وقد عاملت أمريكا الفرصة السانحة التى أتتها كما يتعامل الرجل كبير السن مع كنز ذهبى لامع يجده فى الطريق الخالى إلا منه فإذا هو مصمم على ألا يتناول الكنز إلا بعد الاطمئنان تماماً إلى انتفاء شبهة المفرقعات عنه، لأنه لا يزال يذكر قصة الألغام التى كان العدو يلقيها على الناس على هيئة أقلام وساعات، فإذا ما انتهى من كل الشكوك استدعى للكنز الذهبى خبراء المفرقعات! وأكثر من هؤلاء الخبراء، من دون أن يدفع لهم أجراً من جيبه، وإنما هو قد استطاع أن يقنع أصحاب البيوت المهجورة القريبة من موقع الكنز بأنه لابد لهم أن يشاركوه عملية إنقاذه لكنزه لأنه يشك فى أن خادمه نسى فى داخل كنزه (الذى وقع منه!!... وهكذا أصبح تعبيره عن الكنز مصمماً على وصف تملكه!!) مادة مفرقعة قد تودى بحياتهم إذا ما وُجدوا بالصدفة بالقرب منه ساعة انفجاره.. وأصحاب البيوت المهجورة الواقعة فى الشارع الذى فيه الكنز يدفعون الأجور لخبراء يتولون تطهير الكنز من ألغام وهمية أو شبه وهمية.. والرجل المسن يأخذ نصيباً من أجور الخبراء نظير استجلابهم من شركة هو المساهم الأكبر فيها.. وبعضاً آخر نظير أجهزته التى

يبيعها لهم من شركة أخرى هو صاحبها المنفرد، وبعضاً ثالثاً نظير تعليمهم وتدريبهم فى معهد أمنى يسيطر عليه بماله وخبرته.. ومع كل هذا يحتفظ بالكنز، ثم يحكى الرجل العجوز لأولاده وأحفاده المقيمين فى البعد كيف أجهد نفسه فى التقاط هذا النصر الثمين.. بينما كان هناك كنز آخر قريب لو وفقه الله إليه لكسب أضعاف ماكسب من الكنز الأول.. أقصد بالطبع حل مشكلة الفلسطينين.

على أية حال فالانتصار الأمريكى فى حرب الخليج أياً ما كان حجمه هو أصدق تعبير عن الشخصية الأمريكية اليوم فى مجال الأعمال.

وقد خاضت أمريكا الحرب وأدارتها من باب علم إدارة الأعمال وليس من باب الحماس.

وكل ما حققته أمريكا فى هذه الحرب هو انعكاس أمين لما وصلت إليه أمريكا فى مجال إدارة الأعمال..

وكل ما افتقدته أمريكا فى هذه الحرب هو انعكاس أمين أيضاً لكل ما تفتقده سياسات إدارة الأعمال فى أمريكا.

❑

وطوال ساعات وأيام ممتدة كنت حريصاً على أن أصل إلى بعض الأضواء الكاشفة التى حكمت تصرفات أمريكا فى حرب الخليج الثانية.. ربما استغرقت فى تفكير عميق ومتصل فى بعض الأحيان، وربما انتبهت على لمحات سريعة ومتقطعة فى أحيان أخرى، ربما أسرفت فى التأمل حيناً، وربما أسرعت بالاستنتاج حيناً آخر، ربما حاولت تحمق بعض الظواهر فى بعض الأوقات، وربما اضطررت إلى البعد عن تفسير الظاهر بغير ما هو ظاهر، ولكنى مع هذا استطيع أن أزعم بأن

هناك عدة عوامل حاكمة كانت من أهم خصائص السلوك الأمريكى فى حرب الخليج الثانية وهو السلوك الذى قاد إلى النصر الذى نعرفه. سواء استعادت أمريكا روح هذا النصر. أو استعادت أمريكا به روح النصر.

هذه العوامل الحاكمة هى:

- تركيز العمل فى خط واحد.
- النقطة المثلى هى الهدف وليست النقطة القصوى.
- التمويل قبل التخطيط (وبالطبع قبل التنفيذ) .
- التجريب فى نطاقات محدودة.
- التوثيق القابل للاستدعاء الفورى.
- وسائل الاتصالات المتعددة غير المتقاطعة.
- تقبل الأمر الواقع كواقع.
- تقدير الأمثال.
- استثمار اللغة.
- نمذجة السلوك الإنسانى.
- نمو التفكير الرياضى البيولوجى.

هل تسمح ياسيدى القارىء أن أتحدث عن هذه العوامل بشىء من التفصيل:

(١) التركيز فى خط واحد:

هذا هو أبرز (وأصـــدق وأدق) وصف للاتجـــاه الذى يســـيطر اليـــوم على البيروقراطية الأمريكية فى دواوين العمل وفى البيوت أيضاً.. لا تجد موظفاً يلتفت إليك ولو بالتحية إذا كان مشغولاً مع عميل سبقك إليه.. وأنت تطلب التليفون فيأتيك الصوت من على الجانب الآخر أن انتظر دقيقة قبل أن تتكلم، ويحولك إلى موسيقى الانتظار ربما لعشرة دقائق حتى ينتهى الطرف الآخر من حديث تليفونى على خط آخر!!

هل هذا هو الهدوء أم هو البرود؟

قد نختلف فى التعريف والتوصيف.. ولكن العقلية الأمريكية اليوم لا تعمل فى أكثر من اتجاه فى ذات الوقت، وقد كانت معركة الخليج نموذجاً حياً للاقتصار على اتجاه واحد فى كل حين.

- الحرب الإعلامية تأخذ شهوراً من وقت العالم.
- القرارات الدولية والمشاركات تمضى خطوات لا يعوزها التعقل ولا الصبر الشديدان.
- الهجوم الجوى يستغرق هذه الأسابيع الطوال، وليس من هجوم سواه.
- ترتيب الأوضاع يستغرق كل هذا الوقت وبدون نظر إلى شىء آخر.
- الانسحاب يتم كما لو كان مسألة بيروقراطية تجرى على مهل شديد.

ربما أنى قد بالغت فى تصوير الأمر، وربما أنى انخدعت بالنتائج التى تحققت

على مستوى التخطيط والتنفيذ فى هذه الحرب التى كانت ناصيتها بيد الأمريكيين، ولكنى، فيما يبدو لى، أعكس إحساسى بطريقة عمل الأمريكية، وبخاصة فى مجال الطب.

(٢) النقطة المثلى هى الهدف:

كل مَنْ درس التفاعلات البيولوجية والكيميائية يفهم هذا المعنى جيداً... وسأحاول أن أختزله فى مثل بسيط وهو أن أنسب درجة حرارة لجسمنا هى حوالى ٣٧ درجة مئوية مثلاً.. إذاً فليست زيادة درجة الحرارة أو قلتها هدفاً، وإنما الهدف هو الوصول إلى نقطة معينة على المنحنى، عند هذه النقطة يتم التفاعل المطلوب بأحسن ما يكون من نتائج.

وأتركك يا سيدى القارىء تتأمل موقف الإدارة الأمريكية كلها من حرب الخليج فى ضوء هذه الحقيقة.

- الخلاف الظاهرى الذى لم نسمع عنه إلا بعد انتهاء الحرب بين الرئيس بوش والقائد شوارتسكوف حول تدمير قوة صدام حسين.. وما ظهر للناس جميعاً بعد ذلك من حرص أمريكا الشديد على صدام حسين وبقائه بدرجة محسوبة من القوة والنفوذ!!.
- التعبئة الدبلوماسية فى الأمم المتحدة حتى صدور القرار الأخير بتحديد ١٥ يناير، مع أنه كان فى وسع الحلفاء التبكير بهذا الموعد (على مستوى القرارات) ولكنه كان الموعد المثالى على مستوى التعبئة الحربية.
- الضوء الأخضر الذى أعطى لصدام حسين فى الوقت المناسب تماماً حين كانت سيارته قد تخطت الإشارة السابقة وأصبحت فيما بين إشارتين..

فأما الإشارة السابقة فقد غفل عنها عسكرى المرور العربى لأنه كان يفقد أداة من الأدوات وهى الديمقراطية.. وكانت حرية الصحافة مغيبة غالباً (وبفعل دينارات عراقية فى بعض الأحيان).

الإشارة التالية كان لها جهاز مرتبط لسبب تكنولوجى بحت بالولايات المتحدة فى غرفة تحكم مركزية.. والناس يرون عمود الإشارة ولا يرون الإشارة.. وقد تفضلت السيدة السفيرة الأمريكية فى العراق فأعطت القائد الملهم انطباعها أو معلوماتها عن طبيعة الإشارة وأنها خضراء.

وكانت سيارة صدام مهيأة لعبور الطريق بأكثر مما هى مهيأة للاستجابة للفرامل التى كان صدام قد قلل وعطل وأهمل استخدامها منذ زمن بعيد فى ظل ظروف الإسراع المستمر.

- الجرعات الإعلامية المحسوبة فى تقدير أوهام صدام وأوهام الناس عن صدام مع الاحتفاظ بروح التحفظ عند القادة الأمريكيين.

(٣) التمويل قبل التخطيط (وبالطبع قبل التنفيذ):

قد تستطيع حكومات أو إدارات كثيرة أن تفخر بأنها وفرت التمويل أو نسبة منه قبل البدء فى تنفيذ مشروع ما.. وفى الغالب يكون التمويل جزءاً من مرحلة التخطيط أو هو المرحلة الأخيرة منها، إلا أمريكا، فقد استطاعت هذه البلاد بقدرة قادر أن تروض نفسها على أن تجعل التمويل أولى خطوات التخطيط إلى الحد الذى يعرفه كل المتعاملين مع مشروعات التعاون المشترك مع الأمريكين من أنهم يخصصون منحة أولية لإجراء دراسة الجدوى قبل البدء حتى فى طرح التصورات المتعلقة بأى مشروع.

وقد نجحت أمريكا فى حرب الخليج فى توفير التمويل وبأكثر مما هو مطلوب لكل خطوة من قبل أن تبدأ هذه الخطوة.

(٤) التجريب فى نطاقات محدودة:

يحرص الأمريكيون على استخدام ما يسمونه «موديل» أو «نموذج» للمشروع يبدأون به ممارستهم للأفكار النظرية على الطبيعة. فيكتشفون من خلاله ثغرات التخطيط، وعيوب النظام القائم من أجل تحقيق الهدف.

وفى الحرب ربما يصعب تصور وجود فرص للتجريب فى نطاقات محدودة.. ومع هذا فقد ساعدت قلة حنكة الرئيس العراقى وحماقته الأمريكيين على إيجاد فرص ذهبية للتجريب فى نطاقات محدودة.. فكانت «معركة الخافجى» مثلاً نموذجاً مبكراً جداً لدراسة خطط المعارك البرية عند الجانب العراقى مما أدى إلى زيادة الثقة فى تطويل أمد الهجوم الجوى.

(٥) المعلومات والتوثيق القابل للاستدعاء الفورى:

أمريكا اليوم أعظم الحضارات قدرة على الأرشفة، ووضع كل شىء فى كل الملفات التى تتعلق بهذا الشىء. ولكن أمريكا التى تبذل من نفسها كل هذا الجهد فى توثيق كل خطوة وزمنها ومكانها وحالها وقدرها.. إلخ لا تفعل ذلك من باب حب الأرشفة (أو أداء الواجب كما نفعل) ولكنها تهيىء من كل هذا الأرشيف ذاكرة قوية قادرة سريعة منظمة تستطيع أن تستدعيها فى ثانية واحدة..

والتسابق اليوم بين بنوك المعلومات ونظم المعلومات يدور حول المدى المتناهى فى الصغر من الثانية لاستدعاء المعلومات.

وفى كل اللحظات التى كان على القائد الأمريكى فيها أن يفاضل بين خيارين كانت بنوك المعلومات تفاضل له بين تلال من المعلومات والبيانات إلى الحد الذى كانت نسبة الخطأ تتلاشى، ونسبة الزيغ تنعدم.

ومع هذا فإنى متأكد أنك سوف تطالع فى الشهور والسنوات القادمة انتقادات عنيفة من النواب والشيوخ الأمريكيين للمخابرات الأمريكية ووزارة الدفاع لأنها على سبيل المثال لم توفر للجيش الذى تولى عاصفة الصحراء معلومات عن تكلفة سندويتشات الفول المصرى التى كان من الممكن نقلها بالطائرة إلى القوات الأمريكية فى عطلة نهاية الأسبوع كبديل ممتاز للكشرى الأمريكى!! بدلاً من انتظار هذا الكشرى من أمريكا فيأتى بعد ٢٤ ساعة من تصنيعه.

(٦) وسائل الاتصالات غير المتقاطعة:

نجحت أمريكا فى أن تطور نظم اتصالات بحيث يصبح أمام كل زميلين (فى كثير من المؤسسات التى أتيح أن أتأمل طريقة عملها) الفرصة لاتصال بعضهم ببعض من خلال ثلاث وسائل على الأقل.

ومع هذا فقد احتفظت هذه النظم بالقدرة على الخصوصية فى الاتصالات بحيث يمكن بشىء قليل من التحكم الفعال إبعاد بعض المعلومات عن متناول الكثيرين، وإبقاء هذه المعلومات فى إطار السرية المطلوبة، وأذكر على سبيل المثال كيف تطورت نظم الاتصالات داخل القسم الواحد فى المستشفى الواحد إلى الحد الذى لا يستطيع أعضاء القسم ملاحقته. ولكنهم ساعة لجوئهم إلى هذه الوسائل يجدون مَنْ يدلهم عليها فى التو واللحظة. وقد صادفت أثناء عملى فى كليفيلاند كلينيك كثيراً من الطرائف حين أتيح لى مثلاً أن أدل اثنين من هيئة الأطباء

العاملين هناك على السبيل إلى معرفة ما إذا كان المريض قد أجرى فحص الدولار المقرر له الآن أم لا دون الذهاب إلى حجرة الفحص، وذلك من خلال نهاية من نهايات الكمبيوتر اكتشفتها معلقة فى مدخل معامل صدى القلب كلها.

وهذه المعلومات لا سبيل إلى احتكارها لأن احتكارها يضيع وقت المؤسسة فى سؤال موظف مخصص لاحتكارها وتنظيمها بينما إشاعتها هى الأوفر.

وعلى الطرف الآخر كانت هناك معلومات أخرى تتعلق بأمور بيروقراطية بحتة هى فى الواقع أقل أهمية بالنسبة للأطباء، ولكن النظام لا يسمح بإشاعتها وتداولها على هذا النحو، ومثل هذه المعلومات يصعب الوصول إليها على الجميع إلا أصحاب الخصوصية!!

والحديث عن مستويات المعلومات والتحكم فى تدفقها وسريانها يطول.. ولكنى أحب أن يتأمل القارىء معى كل سيناريو حرب الخليج ليتأمل هذه المستويات المتعددة وتعدد المعلومات نفسها.

(٧) تقبل الأمر الواقع كواقع وكواقع فقط:

أصبحت نفسيات الأمريكيين قادرة على تقبل الأمر الواقع ولكن فى حدود وجوده فحسب.. فالأمريكيون لا يخفون رءوسهم فى الرمال ولكنهم أيضاً لا يسلمون بالحقوق المُدّعاة من خلال الأمر الواقع.. وعند الأمريكيين قدرة على التجاوز عن الخطأ إذا ما كان فى الانشغال بالخطأ لضياع لوقتهم.. وتستطيع مثلاً أن تأخذ مكان غيرك فى الطريق بسيارتك فإذا هو هادىء صامت إذا استطعت أن تفعل ذلك فى غفلة منه، ولكنه ثائر إذا لمحك وأنت تحاول ذلك فإن الأمر لا يزال بيده أن يمنعك.

أريد أن أزيد هذه النقطة وضوحاً فأقول لك إن الأمريكيين يبحثون فى ثنايا الواقع عن بعض الحق - ولكنهم يقصرون هذا البحث على الأحوال التى يجدون أنفسهم فيها مضطرين لقبول الأمر الواقع - أو فى حاجة إلى وجوده أو قبوله.. فإذا ما انتفت الحاجة للاضطرار، فالأمر الواقع عندهم ليس إلا شيئاً قابلاً للزوال وأحياناً أخرى: جديراً بالزوال، وأحياناً قليلة: واجب الزوال بأيديهم هم!!.

(٨) تطوير المعتقدات:

للحضارة الأمريكية اليوم قدرة بارزة على التحرر من الحكم والأمثال والأقوال المأثورة التى تحكم الحياة.. قارن هذا بعقلياتنا حين نحاول أن نتأمل المثل العربى القديم على أن يكون فى بعض الأحيان أقرب إلى منظور «خدعوك فقالوا» وكيف نواجه الفشل مهما كانت خبراتنا وأدلتنا أقرب إلى الواقع والصواب.

هذه هى مجلة النيوزويك الشهيرة تخصص صفحة كاملة لهذه الأقوال التى تلعب بها البورصة كل أسبوع.. ترتفع بأسهم بوش مرة وتنخفض بها مرة أخرى وهكذا تفعل مع كل الشخصيات... مستخدمة الأسهم الصاعدة ↑ وأحيانا المتوازية ← ← ثم تضع بعض الأقوال المأثورة الشائعة فى ركن، وتضع فى مقابلتها الأمثال الحديثة التى أسفرت عنها الظروف الجديدة.

قد اختصر لك بعض الأقوال المأثورة التى عدلتها النيوزويك فى عددها الصادر فى منتصف مارس ١٩٩١ حين تتناول شعار المظاهرة الأمريكية الذى كان يقول «لا دم من أجل البترول»! فتضع بدلاً منه مثلاً جديداً يعبر عن الحقيقة التى انتهت إليها الحرب من الحصول على «البترول بلا دم»!!.

كان المثل "No blood for oil" فأصبح المثل "Oil for no blood" هل رأيت تعبيراً أبلغ وأكثر قدرة على السخرية والتصوير معاً من هذا القول المأثور المحوَر!!

هكذا تمضى النيوزويك فى إمتاعك بلاغياً وفى الوقت ذاته تضاعف من حزنك على العراق وزعيم العراق!!

وهكذا تصبح الحضارة الأمريكية (والأداء الأمريكى فى الحرب) قادراً على أن ينتفع دائما باتجاه الريح حسبما تأتى الريح لاحسبما كان يعتقد فى اتجاهها قبل أن تقلع سفينة الحياة .... أو سفينة الحرب.

تستطيع أن تبالغ فى التعبير عن هذا الخلق عند الأمريكيين فتقول إنهم لا يعبدون إلا الواقع، ولا يعتقدون إلا فى الظروف، ولكنك لا تستطيع مع هذا أن تنكر على هؤلاء ثروتهم الضخمة من الأقوال والأمثال الكفيلة بهدايتهم فى بحار الظلمات التى تحيط بالبشرية من كل جانب.

(٩) استثمار اللغة:

كنت أتحدث فى عشاء رومانسى جميل بين أساتذة رفيعى الثقافة عن فضل الأمريكيين على اللغة الإنجليزية. فقلت إن الأمريكين أعطوا هذه اللغة بُعد «البلاغة» بعدما أعطاها الإنجليز بُعد «الدقة» ... وأنه لكى نفهم هذا الفضل الأمريكى على اللغة الإنجليزية يكفينا أن ننظر الآن مثلاً إلى قائمة الطعام التى سيحضرها لنا القائم بخدمتنا فى هذا المطعم ونتأمل الصياغات المختلفة للعبارات المفترض أنها تؤدى وظيفة محدودة جداً فى وصف أطباق هى فى الأغلب تقليدية جداً.. فقد كان المطعم أحد المطاعم المكسيكية الكلاسيكية. لم يكن الأساتذة

الأفاضل فى حاجة لمثل هذا ليوافقونى على رأيى، بل كان عندهم من الفهم العميق ما دعاهم إلى إثبات موافقتهم التامة على مزاعمى هذه.

ولكنى وجدت نفسى أستفيض فى الحديث (بحرفية الأزهريين القدامى) عن بعض مظاهر البلاغة الطاغية فى استخدام الأمريكين للغة.. فلا تكاد تجد إعلاناً واحداً لا يصلح لأن تضعه فى امتحان البلاغة لطلاب المرحلة الثانوية للبحث عما فيه من مجاز لفظى أو لغوى أو استعارة أو كناية أو تشبيه بليغ على أقل تقدير.. دعك من الجناس والطباق والسجع والمحسنات البديعية التى لا تنتهى.. وقبل كل هذا هناك الأفكار التى لا جدال فى أنها مستحدثة حتى وإن جادلت بسهولة فى مغزاها وصحتها.

أحب أن آخذك معى بعض الشىء لاستكمال ما قلته ساعتها من أن الألمان قوم عظماء لاشك وقد أعطوا (شأنهم فى ذلك شأن العرب) لغتهم قدرة عظيمة جداً على «التعبيرية» حتى وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم من دقة تعبيرية بالغة.. ولكن لا الألمان ولا العرب استطاعوا أن يستغلوا اللغة كما استغلها الأمريكيون. فأنت ترى النص القانونى أو التاريخى فى اللغة الألمانية أو اللغة العربية وقد صيغ صياغة ممتازة تسمح لك بعد تأمله أن تتبين الصواب من الخطأ، والمشروع من المحظور، والواقع من الخيال، والمرغوب من المتروك. نعم تستطيع أن تصل إلى كل هذا من خلال الصياغة فى بناء الجملة العربية أو الألمانية فى نسيج النص اللغوى المتاح متى تأملته، ولكنك لا تستطيع أبداً أن تزعم أن هذا النص الألمانى أو العربى قادر على أن يصدمك بما يريد بمجرد قراءته.. قارن هذا بما تجده من نفسك من هذا النص الأمريكى المفكك (غالباً) فى صياغته حين تجد نفسك قد

فهمت منه كل ما يريد هؤلاء القوم أن يوصلوه إليك بكل ما حمّلوا به اللفظ من إيحاءات ربما لا يستطيع أن يحملها، ولكن الأمريكيين بطريقة ما جعلوه قادراً على هذه الوظيفة.

قد يضع الأمريكيون اللفظ مثلاً فى غير موضعه.

ولكنهم بهذا الوضع يوفرون على أنفسهم ثلاثة سطور كاملة من التعبير الجميل الدقيق!.

وقد يضع الأمريكيون بعض كلمات متجاورة كأنها معطوفة ومعطوف عليها، ولكنهم لا يقصدون إلا التعبير عن صراعات بين الأفكار التى تمثلها هذه الكلمات من دون أن يزعموا لأنفسهم - حتى لحظة التعبير - قدرة على فهم علاقة هذه الصراعات. ولهذا فهم يكتفون بالفصل بين هذه الكلمات وبين ما تمثله من معان بتلك الشرطة البسيطة.

أريد أن أقول إن الأمريكيين أخذوا اللغة على أنها وسيلة من وسائل النجاح فى الحياة والتعامل اليومى، واستغلوها أوسع استغلال (ولك أن تقول أبشع استغلال)، وربما أنهم تبسطوا معها إلى الحدود التى يمكنك معها أن تقول إنهم ابتذلوها تماماً، وربما تكون رومانسياً مثلى فتقول إنهم أعطوا لغة الإنجليز البلاغة بعد ما أعطاها الإنجليز الدقة. ولكنك فى كلا الحالين تبقى موافقاً على أن هناك فرقاً كبيراً بين اللغة الإنجليزية فى تلك الجزر البريطانية وبين هذه اللغة الأمريكية فى القارة الواسعة المسرعة القادرة على تحطيم كل شىء من أجل أى شىء يتصادف أن يكون هو الشىء المراد، ولهذا فلا تندهش إذا سألك واحد من الأمريكيين ذات يوم عما إذا كنت تتكلم اللغة الأمريكية!!.

(١٠) نمذجة السلوك الإنسانى:

بلغ تقدم العلوم الإنسانية والاجتماعية فى جامعات ومعاهد الولايات المتحدة الأمريكية الحد الذى مكّن من إتمام دراسات متقدمة حول كثير من الموضوعات التى تبدو لنا وكأنها محكومة تماماً بالعامل الشخصى أو العامل الوقتى، وأنه لا مجال أمام العلم لدراستها على نحو تفصيلى..

من ذلك أن جامعة هارفارد بالاشتراك مع عدد من الجامعات القريبة منها مثل Tufts و MIT أتمت مشروعاً بحثياً أسمته «مشروع مفاوضات هارفارد» وذلك من خلال دراسة قرارات الصراع، وكان من أبرز نشاطات هذا المشروع، على سبيل المثال، تطوير أفكار عملية «الوساطة ذات النص الواحد» التى استخدمتها أمريكا فى مفاوضات كامب ديفيد من أجل السلام فى الشرق الأوسط (١٩٧٨) حيث كان هناك نص واحد أُجريت عليه تعديلات كانت كفيلة بجعله مقبولاً من الطرفين.

ولعل مما ساعد مثل هذه الجامعة التى هى من أبرز مؤسسات الحضارة الأمريكية على النجاح والتقدم فى مثل هذه الدراسات ذلك الصبر والدأب فى تعمق دراسة الجوانب المختلفة من النشاط الإنسانى السيكولوجى والعقلى والاجتماعى إلى الحد الذى جعل التنبؤ بردود الأفعال الخاصة جداً ممكنا جداً.

وعلى هذا النحو استطاعت أمريكا وحضارة أمريكا أن تتعامل فى سهولة ويسر مع كل الأطراف فى حرب الخليج بدءاً من الرئيس صدام حسين ومروراً بكل الرؤساء والزعماء الآخرين، مايجور، وميتران، وكافيو، ومبارك، وكول، وفهد، والأسد، والشاذلى بن جديد، وأوزال، وانتهاء بالرئيس الإيرانى رافسنجانى الذى

كان من الصعب على أى منجم الوصول إلى «تنجيمة» محتملة لموقفه وموقف إيران فى كثير من لحظات الحرج الظاهرة فى حرب الخليج الثانية.

(١١) التفكير الرياضى - البيولوجى:

مع أن الأمريكيين قوم عمليون جداً فإنهم فى دراسة السلوك الإنسانى نظريون جداً.. ثم إنهم عند الوصول إلى قرار ما يتميزون بأنهم أصحاب قدرة على البعد عن القرار الواحد، والتأكيد على البدائل المتعددة.

سأنقل لك فقرتين من كتاب كنت اطلعت عليه منذ مدة فى الإنجليزية، وقرأته كاملاً خلال هذا الأسبوع بعد أن وجدته لحسن الحظ قد صدر فى اللغة العربية. الكتاب اسمه «نحو التآلف والاتفاق أو بناء علاقات إيجابية» مؤلفاه هما روجر فيشر وسكون براون - ومترجمه هو الدكتور محمد محمود رضوان، وقد أشرفت الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية بالقاهرة على ترجمته وإخراجه، ونشرته الدار الدولية للنشر والتوزيع (١٩٩١).

الفقرة التى يطيب لى أن أدلك عليها تتحدث عن اختلاف الرؤى بين مستوى المدير الأوسط ومستوى المدير التنفيذى الأعلى.. ليس فى الفقرة شىء جديد عليك.. أنت تعرف كيف يفكر المدير الأوسط وكيف يفكر المدير التنفيذى الأعلى فى الموضوع ذاته.. لكنى أدعوك إلى تأمل قدرة الحضارة الأمريكية على وضع كل هذا فى جدول وبناء دراسات نفسية واجتماعية، ومدى استغلالها بعد ذلك لهذه الحقائق فى متن السياسة.

المدير الأوسط:	المدير التنفيذى الأعلى:
الرئيس يغير سياسته كما تغير الحرباء جلدها.	الذين يعملون معى يستجيبون لتوجيهاتى ببطء.
هناك كثير جداً من الأعمال الكتابية فى هذه المؤسسة.	العاملون يتأخرون فى تقديم تقاريرهم الشهرية.
أنا أعمل معظم الفترات المسائية وعطلات الأسبوع ولكن رئيسى يغادر العمل فى الساعة السادسة مساء.	حينما كنت فى مستواهم كنت أعمل ليلاً ونهاراً لكى أحصل على ترقية.
هذه الشركة تكافىء الخبرة الغريبة، يحضرون غرباء ليرأسونى.	العاملون الذين ندربهم يهجرون من أجل المنافسة.
ربما أستطيع أن أحصل على دخل أكبر فى مكان آخر.	إننا ندفع أجوراً لعمالنا أعلى بكثير مما كنت أتقاضى وأنا فى مثل سنهم.
عندما أبلغ مستوى أعلى سوف أكون أكثر تحكماً فى حياتى.	ليس لدى مرءوسىّ فكرة عن الضغوط التى تقع علىّ.
إننا لا نسمع عن السياسات الجديدة أبداً إلا فى اللحظة الأخيرة.	إننى لا أسمع من العاملين معى عن مشكلة يواجهونها إلا فى اللحظة الأخيرة.

إن رئيسي لا يثق بي؛ إنه دائماً يظهر من فوق كتفي.	إنني أحطم ظهري لكي أقضي وقتاً مع العاملين معي وأدربهم. إنهم لا يقدرون ما أقوم به من عمل.

❑

الفقرة الثانية تحتاج منك إلى خلو البال حتى تتأمل طبيعة المشكل فيها، وتصل إلى التفهم الكامل لما قد نسميه نحن في حياتنا العامة بحساب الأرباح والخسائر في علاقة ثنائية بسيطة جداً... وانظر معي كيف يستطيع هؤلاء «النظريون» أن يضعوا مثل هذا النموذج «الحاد» للصراع «الفعال» في علاقة ثنائية كهذه العلاقة.. دعك من كل هذا التقديم الذي أقدم به الفقرات واقرأها على مهل.

لقد قارن مُنظّرو الألعاب دينامية العلاقة الثنائية بنموذج يطلق عليه «**مــأزق المسجونيْن**»، ففي إحدى الأمثلة القصصية لهذا النموذج هناك مسجونان متهمان بارتكاب جريمة خطيرة، وقد وُضع كل منهما في الحبس الانفرادي، وكان المدعي على يقين من أنهما مذنبان، ولكن كانت تعوزه الأدلة الكافية لإدانتهما، وهكذا أخبر كلاً من المتهمين أن أمامه اختياراً بسيطاً: أن يعترف، أو لا يعترف.

- فإذا تعاون المسجونان معاً ولم يعترف أي منهما، فإن كلا منهما يمكن أن يتوقع الحكم بالسجن سنة واحدة جزاء حيازة سلاح بطريقة غير قانونية.
- أما إذا اعترف كلاهما فإن كلاً منهما سيحكم عليه بالسجن ثماني سنوات جزاء الجرائم الخطيرة.
- أما إذا اعترف أحدهما ولم يعترف الآخر فإن رافض الاعتراف يمكن أن يتوقع الحكم بالسجن عشر سنوات، ولكن الذي اعترف سوف يلقى معاملة رفيقة باعتبار أنه «شاهد الملك»، ومن ثم يمكن أن يتوقع أن يطلق سراحه ويوضع تحت المراقبة البسيطة..

هذا مع العلم بأن السجينين لاُ يمكّنان من أن يتصل أحدهما بالآخر.

والآن، فكل من السجينين يواجه مأزقاً: «إذا كان الآخر سيعترف، فمن الخير لى أن أعترف كذلك. إذ أن ثمانى سنوات أفضل من عشر، أما إذا لم يكن سيعترف فمن الخير لى أن أعترف أنا، إذ أننى - حينئذ - سوف يطلق سراحى برفق، وهكذا يبدو أنه من الخير لى أن أعترف بغض النظر عما يفعل الآخر، ولكن إذا اعترف كل مننا فإننا - معاً - سنكون أسوأ حالاً مما لو رفضنا - معاً - أن نعترف».

كان هذا هو «مأزق المسجونيْن» فهل تستطيع الآن أن توافقنى على أن هناك ما يسمى بالتفكير الرياضى البيولوجى الذى استطاعت هذه الحضارة الأمريكية حتى الآن أن تُجد فى صياغته، وأن تجيد، وإن لم تكن قد بلورته تماماً بعد!!.

ثم هل تستطيع بعد ذلك ياسيدى القارئ أن توافقنى على أن هذا الجانب من الحضارة الأمريكية كان ذا شأن عظيم فى حرب الخليج.

❑

هل تأذن لى ياسيدى أن أختم هذا الفصل بالفقرة الثانية التى وعدتك بها وهى فقرة من خرافات إيسوب الشهيرة عن الريح والشمس:

«ذات مرة ثار نزاع بين الرياح والشمس، أيهما أقوى وأشد. وفى سبيل إنهاء الجدال تحدت الشمس الرياح فى مباراة: أيهما يستطيع أن يحمل عابر طريق على أن يخلع معطفه فهو الأقوى. كانت الشمس واثقة أنها ستفوز، ولذلك تركت الرياح تأخذ الفرصة الأولى، أما الشمس فقد اختفت وراء سحابة تنتظر، وأما الرياح فقد أثارت عاصفة ثلجية، ولكن كلما اشتد عصف الرياح تشبث عابر الطريق بمعطفه حول جسده، وفى النهاية لم يسع الرياح إلا أن تستسلم، وحينئذ خرجت الشمس من وراء السحابة، وبدأت تضىء وترسل أشعتها بكل قوتها نحو عابر الطريق الذى بدأ يحس الحرارة والدفء، وإذ أخذت الحرارة ترتفع رويداً رويداً فإنه خلع معطفه وجلس فى الظل ليستريح».

3

كليفيلاند : المدينة والمجتمع

كليفلاند : المدينة والمجتمع

(١)

حوالى ١٧٦٥ أى منذ أكثر من مائتى عام كان الجنرال جورج واشنطن أول من تنبأ بهذه المدينة. تعبير غريب طبعاً أن تقرأ فى تاريخ مدينة أن فلاناً هو أول مَنْ تنبأ بها. لكننى لا أجد أدق من هذا اللفظ لأعبر عن أن واشنطن لاحظ أن مصب نهر كايهوجا فى بحيرة إيرى يناسب مجتمعاً تجارياً سريع النمو.

بعدها بحوالى ثلاثين عاماً وفى ١٧٩٦ جاء موسيس كليفيلاند بفريق من شركة كونكتيكت للأراضى، واختار موقعاً كان يسمى بالاحتياطى الغربى وأقام عليه نواة كليفيلاند.

فى ١٨١٠ أصبحت هذه المدينة هى المجتمع الرئيسى فيما يسمى بإقليم

كايهوجا. أحب هنا أن أذكر لك أننى أترجم County بإقليم. والكلمة فى الإنجليزية فيما يبدو مأخوذة من الكونت، فالكلمة على هذا تشير إلى ممتلكات الكونت. وقد تترجم بمقاطعة أو إقليم، ولعلها هى المرادف للإقطاعيات والابعاديات.

وفى أوائل القرن التاسع عشر بدأت صناعة السفن فى هذه المدينة. كان لابد بعد ذلك من تطوير الاتصال النهرى البحرى لهذا المجتمع الجديد، ولابد أن نفهم أن كثيراً من التحضر الذى أصابته أمريكا كان نتيجة سعيها الحثيث فى تطوير مرفق النقل والمواصلات، والطرق السريعة، والطائرات، والمطارات، والتليفونات، والفاكس، والبريد الجوى الأمريكى منذ أوائل القرن التاسع عشر.

خذ مثلاً على ذلك إنشاء قناة إيرى فى ١٨٢٥ ثم توصيل هذه القناة بنهر أوهايو نفسه بعد سبع سنوات فى ١٨٣٢ ، وما صاحب ذلك من ازدهار صناعة السفن وتجارتها فى مجتمع كليفيلاند الجديد.

فى عام ١٨٣٦ بلغت كليفيلاند مجداً عظيماً هكذا يرون أو يروون... وذلك: أنه فى ذلك العام وصل تعداد سكانها إلى حوالى ستة آلاف نسمة!!. وها هى كليفيلاند فى أواسط القرن التاسع عشر- تبدأ فى تشغيل مينائها فى حوالى سنة ١٨٥٢ وتبرز فى أثناء الحرب الأهلية كمركز صناعى هام، وفى ١٨٧٠ تتأسس فيها بفضل جون روكفلر شركة ستاندرد الشهيرة للبترول وتبدأ معالم المدينة والتحضر والحكومة المحلية تأخذ طريقها إلى كليفيلاند فى مطالع القرن العشرين.

وفى أثناء الكساد العالمى العظيم فى الثلاثينات بنت كليفيلاند أول مشروع للإسكان الشعبى فى الولايات المتحدة الأمريكية.

فى السبيعينات حظيت كليفيلاند بشهرة اقتصادية سلبية حين أصبحت أول

مدينة أمريكية كبيرة تعانى الإفلاس منذ الأزمة الاقتصادية فى الثلاثينات، وتحطمت صناعة السفن فى كليفيلاند بسبب ارتفاع اليد العاملة، ولكنها سرعان ما استعادت وضعها فى الثمانينات، وأصبحت مرة ثانية من أهم المراكز الأمريكية.

هذه هى كليفيلاند - عاصمة إقليم من أقاليم أو هايو، وتبقى لأوهايو «الولاية» عاصمتها كولومبوس.

(٢)

من الطبيعى أن أعدد لك الجامعات فى هذا الإقليم (لا فى الولاية كلها).

لعلك طالعت فيما مضى من كتابى هذا إشارة إلى جامعة كيس ويسترن التى تقع فى نفس المدينة. هناك كذلك جامعة كليفيلاند الحكومية (أجدنى مضطراً إلى ترجمة State فى كل اسم جامعة تحتوى هذا اللفظ بكلمة الحكومية، وكنت فيما مضى أتبع ما اعتدنا عليه فى مصر من ترجمتها بجامعة ولاية كذا. مع أنه لا توجد ولاية مثلاً اسمها كليفيلاند).

تمثل هذه الجامعة اندماج جامعة «كاس» وجامعة ويسترن ريسيرف الذى تم عام ١٩٦٥ ولكن تاريخ هذه الجامعة يعود إلى حوالى ١٨٢٤.

نأتى إلى الكليات العليا:

بالدوين ولاس	أنشئت عام ١٥٤٨
كايهوجا	عام ١٩٦٣
ديك	عام ١٨٤٨

معهد كليفيلاند للفنون	عام ١٨٨٢
معهد كليفلاند للموسيقى	عام ١٩٢٠

(٣)

«البلان ديلر» هى كبرى جرائد أوهايو، وهى الجريدة التى أستعيض بها هنا عن الأهرام القاهرية كل صباح. وتقع هذه الجريدة فى مائة صفحة على الأقل كل يوم، فلا تقل صفحاتها الرئيسية عن ٥٠ صفحة عدا ملاحق الإعلانات الملونة التى تبلغ ثلاثة أضعاف هذا الحجم، وهى تتضخم إلى أكثر من هذا بكثير فى أيام الآحاد بالطبع، ولكن صفحات كاملة من هذه المائة مخصصة بالطبع للإعلانات التى لابد أن تكلفتها أقل بقليل من التكاليف المناظرة فى مصر. وإلا فكيف بالله عليك تجد صفحة كاملة قد أفردت للإعلان فقط عن مسحوق غسيل وأنواعه وعبواته المختلفة مثلاً.

أستطيع أن أقول لك إننى كنت أطالع هذه الجريدة كل يوم على مرتين ففى حوالى الساعة السابعة وخمس دقائق وقبل أن تتحرك سيارة ربة البيت أطالع بسرعة أربعة أو خمسة مواضع من الجريدة:

أطالع آخر تطورات الحياة الدولية وبصفة خاصة حرب الخليج. أو قل بقايا حرب الخليج من حرب أهلية فى العراق، إلى أسرار تتكشف فى الولايات المتحدة، هذا فى عناوين الصفحة الأولى.

ثم أطالع فى نهاية الملزمة الثانية من الصحيفة أنباء الطقس وموعد غروب الشمس أى موعد الإفطار الرمضانى!!

وفى الملزمة الرابعة ألقى نظرة على السعر الخاص بالجنيه المصرى أمام الدولار فى الجزء المخصص لأسعار العملات الأجنبية، والجنيه المصرى على أية حال عملة أجنبية بالنسبة للدولار، ودعك من كون العملة الأجنبية عملة صعبة أم لا فهذه تعبيرات مصرية سيكولوجية!!

وفى الإعلانات المبوبة ألقى نظرة على الركن الخاص بأجهزة الكمبيوتر..

وفى صفحة برامج التليفزيون ألقى نظرة أخرى على برامج القنوات الرئيسية، وكل نظرة من هاتيك قد لا تكلفنى عشرين ثانية كما تعلم. ولكن تصفح المواضع المختلفة حتى تصل إلى ما تريد هو ما يأخذ منك الوقت.

بعد عودتى من المستشفى أقرأ على مهل هذه الجريدة المحترمة؛ صياغة الصفحات الأولى لا تختلف كثيراً عن صياغة «الأخبار» القاهرية، أما العناوين فأميل إلى «الجمهورية» منها إلى الأهرام أو الأخبار. أسماء المحررين والمراسلين تحظى باحترام تام من حيث أبناطها والعناية بها. وكثير من المواد لا تحمل توقيعاً على الرغم من إنها عصارة فكر وجهد مبذول. صفحة الرأى فى الداخل لها رئيس تحرير مسئول، واسمه موضوع فيما يسمى بالترويسة مع الناشر والمدير العام ورئيس التحرير. بل إن «الترويسة» نفسها موضوعة أعلى صفحة الرأى لا فى الصفحة الأولى. الاشتراك فى الجريدة أسبوعى، ويبدو أن الاشتراك السنوى الموجود عندنا لم يعد يناسب روح الحياة السريعة المتغيرة وإن كان سيظل مناسباً لمصر..

❑

يعجبنى فى هذه الصحيفة اهتمامها البارز بالكتب الجديدة، وبالحياة الثقافية

على وجه العموم، وللصحيفة ملحق أسبوعى لبرامج الإذاعة والتليفزيون يتناول كل شيء فى البرامج بالتفصيل، ثم إذا هذه المعلومات تتوزع كل يوم فى الصحيفة فى صفحة كاملة نصفها الأيمن للقنوات السبعة والعشرين (تسعة فوق تسعة فوق تسعة) والنصف الأيسر يلقى الضوء على برامج مختارة، وعلى برامج الراديو.

أحب أن أذكر لك أننى خرجت من مطالعة الصحف الأمريكية بانطباع أن إعلاناتها إعلانات وقتية بمعنى أنها تؤدى الغرض الوقتى ليس إلا. فى أوكازيون يوم السبت تجد صوراً لكل ما هب ودب، والأسعار فوقها، واسم المحل وعنوانه، وكان الله يحب المحسنين. طبعاً الصور منظمة وجميلة والأسعار مكتوبة بأبناط بارزة ولا بأس من فتاة تضحك أو طفل يصيح.. ولكن الإعلان كله على بعضه شئ من لزوم الشيء: مجرد خطوط، ومجرد تنسيق، وليست هناك مساحة لما يسميه فنانو إخراج الصحف براحة العين، وإنما هو استغلال للمساحة المتاحة بطريقة بدائية. طبعاً هم يعرفون ذلك وأعتقد أنهم يأخذون الإعلان من صاحبه كما يجهّزه، هذه مساحة ٣٠ × ٥٠ مثلاً فالمعلن يحضر لهم الإعلان جاهزاً إلى درجة أن الأفلام مفصولة ألوانها، وهم يطبعونها هكذا.

ولا أبالغ إذا قلت لك إنهم فى جريدة السبت أو الأحد يتحفونك بعشرات الصفحات الإعلانية الملونة ذات الأحجام المتنافرة. وليس لها أرقام اللهم إلا تسلسل خروجها من ماكينات التوضيب فوق بعضها.

والعاملون فى الصحافة يفهمون المسألة فى منتهى البساطة، فالصحيفة تستغل انتشارها وجمهورها بأن توزع هذه الإعلانات لأصحابها وتتقاضى منهم قيمة الإعلانات مقابل خروجها مع الصحيفة من دار الجريدة ودخولها معها البيوت.

والمعلنون بالطبع سعداء بما يدفعون للجريدة فهم سيطبعون الإعلان أياً ما كان الوضع وسيدفعون غالياً من أجل توزيعه بالبريد أو من أجل بث الصبية الصغار به على أبواب المساجد والمدارس كما تفعل البلاد النامية.

وقديماً، وفى مطلع الصحافة المصرية وقبل حوالى قرن من الزمان كان فى مصر صحيفة توزع بالمجان إذ تعتمد تماماً على الإعلانات. هنا فى كليفيلاند توجد أكثر من صحيفة من هذا النوع. ولكنى أعتقد أنه لا يزال من الأوقع أن تكون الصحيفة بثمن رمزى. ومع هذا فإن جيلاً من مديرى الصحف فى مصر لا يكاد يقدر نعمة «الثمن الرمزى» على الصحيفة ويريد أن يشتط بأسعار الصحف ما أمكنه ذلك مع أنهم يعلمون تماماً أنه مهما رفع سعر الصحيفة فلن يفى، وحده، بتكاليفها.

❑

تعجبنى فى «البلان ديلر» أيضاً تلك الكلمات الرصينة التى تتضمنها صفحة الرأى، بل عناوين هذه المقالات نفسها حيث التعقل والنظرة المتأنية بعيداً عن عبادة الرأى الشائع. وعبادة الرأى الشائع مأساة خاصة إذا كان هو رأى الشارع.

ويعجبنى أيضاً أن الجريدة لا تستنكف، شأنها شأن الصحف الأمريكية، أن تعطى لحرب الخليج خمس صفحات أو ست صفحات كاملة، ولكنى أتألم كثيراً للصور التى تنشرها عن خراب الكويت، أو تشرد الأكراد، أو ظلم نظام العراق لشعب العراق ولجيش العراق.

يعجبنى أيضا أن الجريدة خصصت للكاريكاتير صفحة وجزءاً من صفحة أخرى وأنها تنشر صوراً كاريكاتيرية لأكثر من عشرين رساماً، وكنت أتساءل هل كلهم

معينون ويتقاضون رواتب، أم أنهم شبان هاوون مثل الذين كانوا يراسلون الأستاذ مصطفى حسين فى ملحق الخميس الأسبوعى الذى كانت جريدة الأخبار تصدره، وحين زرت الجريدة سألتهم وعرفت أن هناك نقابة لرسامى الكاريكاتير وأنهم يشترون من هذه النقابة هذه الرسومات.

توزع «البلان ديلر» ٤٣٠ ألف نسخة يومياً، وفى الآحاد يرتفع توزيعها إلى ٥٧٠ ألف نسخة، وهى بهذا الجريدة الخامسة عشرة على مستوى الولايات المتحدة. مما يعنى نجاحاً حقيقياً لها إذا تذكرت أن كليفيلاند هى تقريباً المدينة الثانية عشرة من حيث ترتيب السكان. لهذا فإن «البلان ديلر» فخورة بأنها الأولى فى الاستحواذ على سكان منطقتها إذ يطالعها ٥٨٪ من قراء الصحف فى الاقليم الذى تصدر فيه. وهى الأولى كذلك فى الاستحواذ على سكان منطقتها فيما يتعلق بعددها الأسبوعى حيث يطالعها حوالى ٧١٪ من هؤلاء. وفى هذه المكانة تليها بفارق بسيط جداً (٧١٪ أيضا) الواشنطن بوست.

❑

مباني «البلان ديلر» تم بناؤها فى ١٩٢٠ على سبعة هكتارات، وفى خطة المستقبل أنها ستمتد إلى ٥٠ هكتار إضافية.

ويعمل فى هذه الصحيفة ألف وثمانمائة فقط من بينهم ثلاثمائة وسبعون صحفياً ومعلقاً وربما أدهشك حين أقول لك إن كل هؤلاء الصحفيين يعملون جميعاً فى صالة واحدة تضم ما يزيد على ٢٠٠ كمبيوتر!!.

طبعاً هذه التى اسمها «صالة» هى الدور الثانى كله. ربما تبلغ مساحتها مساحة

أكبر من صالة تحرير الأهرام، ولكنها ليست بجمال صالة تحرير الأهرام.. إنما هى مزدحمة ومكدسة ومُقبضة تماماً أيضاً.

منذ ثلاثين عاماً كان عدد العاملين فى البلاد ديلر ١٨٠٠ أيضاً، ولكن مع اختلاف النوعية. فقد كان هناك ٥٠٠ عامل فى قسم اللينوتيب وحده وكان هناك ٢٥ آخرون فى قسم السيترينوتيب. اليوم ليس هناك أحد فى هذين القسمين لأنه لم يعد لهما وجود.

مدير الشئون العامة يكمل هذا العام ثلاثين عاماً من العمل فى «البلان ديلر»، وهو يرى أن فى كليفيلاند مؤسستين عالميتين: الكلينيك التى يأتيها الناس من كل مكان، وشركة البترول الكبرى التى لها فروع فى كل دولة كأنها سفارات. وهو سعيد جداً بالعلاقة بين كليفيلاند كلينيك، وبين الصحيفة. وقد روى لى كيف ضيعت الصحيفة أكبر خبطة صحفية فى العام الماضى (١٩٩٠) حين حصل محررها على تصريح من الدكتور عاطف صدقى رئيس الوزراء (الذى كان يجرى فحوصاً فى كليفيلاند كلينك) بأن مصر ستشترك مع الحلفاء من أجل إنهاء احتلال العراق للكويت. ولكن رئيس التحرير المسئول يومها لم يبرز التصريح لا لشىء إلا لأن الذى حصل عليه محرر محلى فى مركز كليفيلاند الطبى. وفى اليوم التالى كانت عناوين صحف العالم كلها مخصصة لهذا الموضوع بعد تصريحات الرئيس مبارك.

كان من حظى حين زرت «البلان ديلر» وطفت بين أرجائها أن التقيت بكبير المحررين، وبرئيس القسم الفنى، وبمدير الانتاج، وقد أطلعونى جميعاً على كل خططهم وماضيهم، ولكنى فيما يتعلق بكتابى هذا لا أجد نفسى قادراً على التوسع

فى رواية تفصيلات العمل الصحفى. وفى الوقت ذاته لا أستطيع منع نفسى من تسجيل بعض اللمحات السريعة عن هذه الجريدة.

تتسع صالة تحرير الجريدة لكل الصحفيين (٣٧٠) ولحوالى ٢١٠ كمبيوتر شخصى أمامهم يستطيعون من خلالها الاتصال بالمندوبين، وكتابة ما يريدون وتنظيم أو تنسيق ما يسمى بالسكرتارية والديسك.

مطبعة الجريدة لا تبدأ العمل إلا بعد التاسعة مساء وتستمر حتى الرابعة والنصف صباحاً- وفى أيام السبت والأحد تبدأ المطابع مبكرة منذ السادسة لطباعة الملاحق!!

(٤)

تفخر كليفيلاند بأنها تضم أعرق أوركسترا سيمفونى أمريكى، وقد داومت على الاستماع إليه فى كل أيامى من خلال الراديو، وإن لم أسعد بحضور إحدى حفلاته، ولكننى حضرت مع أحد الزملاء الفرنسيين حفلة موسيقية فى جامعة كيس ويسترن، أقيمت الحفلة تحت شعار «موسيقى الجاز فى الشابل».

الفرقة مجموعة من طلاب الجامعة. اصطلاح طلاب الجامعة هنا لا يقتصر مثل مصر على طلاب مرحلة البكالوريوس ولكنها تعنى هؤلاء الطلاب وطلاب الماجستير والدكتوراه، وهذا الفرنسى الذى يقود الفرقة طالب ماجستير.

وقد بدأت الحفلة فى الثامنة وانتهت حوالى العاشرة.. أما عدد الحاضرين فقليل.. ولكن أحداً منهم لا يسلك سلوكاً يجعله أقل من مستوى الحضور.. العازفون سعداء.. والمستمعون سعداء.. وينتهى الحفل فينصرف كلٌ ومعه سعادته إلى حال سبيله.

(٥)

هل ذهبت «الفلاتس»؟ لابد أن تذهب «الفلاتس» ما دمت فى كليفيلاند! أو لم تذهب «الفلاتس» بعد؟!! ستكون فى غاية السعادة إذا ذهبت «الفلاتس».

هكذا تعاقبت التعليقات مرة بعد أخرى من العائلة التى أسكن بيتها، ومن الزملاء الأطباء فى الكلينك، بل من الزميل الأرجنتينى الذى كان مثلى يسكن فى هذا البيت فى أغسطس الماضى، وجاء لزيارتنا زيارة عابرة ليوم واحد.

قلت لنفسى: لابد أن أذهب إلى «الفلاتس» تحفة كليفيلاند، الطريق طويل، ربما لأنى قادم من شرق المدينة، والفلاتس فى غربها، ولكنه بالفعل بعيد.

القنطرة التى تعبر النهر جميلة إلى أقصى حد، فخامتها لا توصف، تأمل أن هذه المعجزات بنيت منذ مائة وخمسين عاماً ونحن فى مصر لا نزال ننتشى عند افتتاح كوبرى هنا أو هناك على النيل العظيم ونقول ساعتها: «ويعد هذا أطول كوبرى على النيل»، وأحياناً «أعرض»، وأحيانا نتواضع فنقول: «إنه يعبر النيل عند أعرض نقطة فى ممره».

كوبرى بنها على النيل الذى تغنى له داليدا وهى فى باريس «على كوبرى بنها يانور عينى منديل حبيبى طرف عينى» يتبرأ تماماً من أغنية داليدا ويؤكد للرائح والغادى أنه لم تقع عليه هذه الحادثة الرومانسية أبداً، وأنه إذا كان ولابد أن منديلاً طرف عين محبوبة فقد يحدث ذلك على كوبرى آخر إلا كوبرى بنها الاستراتيجى الذى تقف أمامه السيارات فى حالة انتظار وجمود ربما لنصف ساعة.. تيار الهواء

ساكن إذاً، والمنديل لا يتحرك، وبالتالى لا يطرف عيناً حتى وإن كانت عين داليدا..

كوبرى بنها هذا العظيم الذى كان أهم كبارينا الاستراتيجية، منذ بنى فى عهد الملك فؤاد حوالى سنة ١٩٣٢ يتواضع أمام هذا الكوبرى البسيط على نهر بسيط فى بلد بسيط، ومع هذا فنحن لا نزال فخورين بأننا دولة زراعية.. وبلد النيل. وأن عندنا طرقاً زراعية وطرقاً وكبارى تعبر النيل(!!).

قد تظننى ياسيدى فى حاجة الآن إلى الاعتذار عن هذا الاستطراد الذى لامبرر له.. لكن عذرى أنى كنت أحب أن أصور لك حالتى النفسية وأنا ذاهب إلى «الفلاتس» بأقرب ما يكون التصوير إلى الحقيقة.. وها أنت ترانى الآن وقد انتابنى الشعور بالتواضع.. وقلت لنفسى والآن سنرى «الفلاتس» حيث تتواضع أمامه كل فنادقنا وكازينوهاتنا ونوادينا التى على النيل الساحر فى القاهرة.

❑

لن أحدثك عن «الفلاتس» الذى كانت مضيفتى فخورة به وهى تطأ الأرض ولكنى أؤكد لك أن أى مقهى نيلى متواضع فى أى قرية من قرى مصر العامرة أكثر حياة ورقياً وفناً وفندقة من هذا «الفلاتس» الميت الصامت.. عندما أخذت مكانى فى أفخر صالونات «الفلاتس» زال تواضعى، وبدأت أفهم لماذا يقال إن مصر هى بلد السياحة والمتعة الجميلة. وإن مصر هى البلد الذى لابد للسائح أن يراه حتى وإن كانت الكبارى التى فيه لا تطرف عيون المحبوبات، ذلك أنه حتى «الكباريهات» فى مصر تطرف عيون المحبوبات.

سوف تتهمنى ياسيدى بالتحامل على «الفلاتس» قرة عين أهل كليفيلاند.. لك أن تتهمنى، ولكنى سأذكر لك كل مزايا الفلاتس.

هناك فى جانب جميل من «الفلاتس» توجد شجرة مستعارة من ذات الورق العريض يسمونه Bird of Pardise إلى جوارها شجرة أخرى من نوع Oleander هذا الشجر يحتوى على مادة مخدرة.. ربما لا يعرف الطيبون من أمثالك وأمثالى أنه يحتوى على هذه المادة المخدرة، ويكتفون بالإعجاب بشكله المتناسق.. أما أن الشجرتين مستعارتان فلأننا كنا فى مارس ولا يزال الجليد هو صاحب السيادة.. ولما تبزغ شمس الربيع بعد.. فإذا وُجِدت هاتان الشجرتان على هذا النوع البديع الرائع فإن هذه ميزة من مزايا الفلاتس.

الميزة الثانية إن للفلاتس مساحة واسعة لانتظار السيارات. ولكن هذه الميزة تتبخر (أو تتضاعف فى نظرك) إذا علمت بقية قصتها.. فهذا الجراج يديره مجموعة من القبضايات أو البلطجية المحترمين.. وصلنا إليهم بسيارتنا فإذا بهم يقولون: لا توجد أماكن بينما الأماكن فسيحة أمام ناظرينا.. فتحت مضيفتى محفظتها الصغيرة، وشاهدوا أوراق النقد من فئة الدولارات الخمسة.. أو قل على طريقة المصريين من فئة الشلن.. فقال هؤلاء إذا كان الأمر كذلك فهناك أماكن.. أخذنا التذكرة، ومضينا بالسيارة قرب باب الفلاتس وهناك أقبل علينا من كشكه الزجاجى حارس آخر.. أخذ السيارة منا بعد ما أخذنا تليفونها. وانطلق بها يضعها حيث يريد للنظام أن يتم.. فلما عزمنا على المغادرة كان هو الذى لمحنا من كشكه الزجاجى من دون أن نناديه وأتى لنا بالسيارة حيث وقفنا على باب المدخل..

أذكر هنا أن الدكتور رفعت حواس كان فى محطة مترو الأنفاق بباريس كثيراً ما

يلفت نظرى إلى حقيقة أن المترو يقف بحيث يكون باب عربة الدرجة الأولى (التى هى فى الوسط منه دائما) أمام فتحة الرصيف مباشرة بحيث لا يتعب (سعادة البيه راكب الدرجة الأولى) فى ملاحقة عربات المترو!!.

الميزة الثالثة فى الفلاتس أنه لا يتقاضى منك إلا هذه الإتاوة التى هى غير كافية لأن تكون حداً أدنى لفرد واحد!!.

(٦)

صحيح أن فى كليفيلاند وما حولها كثيراً من الأحياء الراقية والمواقع المتميزة شبه الآمنة ولكن كل ذلك لن يخلد فى ذهنك إلا مرتبطاً بهذا الرعب من هذه الجرائم التى لا تستحى وهى تفرض نفسها كل صباح فى عناوين صحف الصباح بل كل ساعة فى مقدمات نشرات التليفزيون المحلية.

كان أحد أصدقائنا قد جاء إلى كليفيلاند مشبعاً بما فيه الكفاية بكل القصص الحقيقية عن الإجرام هناك.. وحين وصل فى حوالى الساعة الثالثة صباحاً إلى ما كان يسمى بفندق الجامعة.. وجد حارساً أسود لم يكن من سلطته أن يتيح لزميلنا أى تسهيلات أو ضيافة إلا أن يبقى مع حقائبه فى المدخل حتى يأتى موظف استقبال هذا الفندق الجامعى فى الصباح!

صاحبنا يسأل الحارس: هل هناك جرائم قتل، والحارس يجيبه : نعم كثيراً ما أكون فى طريقى هذا فتحدث أمامى جرائم قتل وعنف.. ويشير إلى بعض المواقع وهو يروى قصص ما رآه، وتكون إشارة أصبعه فى بعض الأحيان قريبة جداً: هنا مثلاً، يستبد الرعب بصاحبنا ، ولكن ماذا فى وسعه أن يفعل؟

يستدير الحارس فيلحظ صاحبى أن فى جيبه شيئاً ما يبرز فى نهايته قبضة معدنية تماماً كتلك التى فى المطواة المسماة فى مصر بقرن الغزال.. يقرأ صاحبى الشهادتين وينتظر الموت، وفيما بعد يكتشف مع الأيام أن هذا الشىء الذى فى نهايته قبضة معدنية ليس إلا مشط الشعر الذى يستخدمه الزنوج..

ومن الطريف بهذه المناسبة أن صديقاً من أصدقائنا ذهب إلى الحلاق فسأله فى إنجليزية بسيطة: هل تريده على هيئة مربع أو على هيئة دائرة؟ وبحسن نية ظن صاحبنا أنه يسأل، على عادة أصحاب صالونات الحلاقة فى مصر، عن الهيئة التى يكون عليها تهذيب نهايات شعره فى مؤخرة رأسه، ويجيب صاحبنا من فوره: على هيئة دائرة.. فيفاجأ زميلنا فى النهاية بشعره، وقد تحول إلى الهيئة التى يراها فى شعر الزنوج: صندوق مدور من الشعر كتاج فوق رأس شبه أصلع!!.

(٧)

فى الأسبوع الأول من إبريل كان علينا أن نقدم الساعة فقد بدأ التوقيت الصيفى فى مدينة كليفيلاند، لعلك تظن أن الربيع على الأقل قد حلّ على المدينة، ... لا ياسيدى فلا يزال الجليد يكسو وجه هذه المدينة ببياض محبب إلى النفس ولكنه أحيانا غير مريح بالطبع. ولكنك لابد أن تلتزم بالتوقيت الصيفى! فى عز الشتاء!! إلى هنا وليس فى الأمر شىء.

ولكن الطرفة الكبرى ياسيدى أن مسألة التوقيت هذه من المسائل الخلافية بين الولايات، فهناك ولايات تقدم الساعة، وولايات لا تقدم الساعة.. وهكذا تصبح فى حيرة من أمرك وأنت تخاطب ولايات أخرى بالتليفون.. فلابد أن تحسب أولاً

فروق التوقيت الموجودة فى الولايات المتحدة الأمريكية فالتاسعة فى لوس أنجلوس هى الثانية عشرة فى نيويورك ثم تنظر هل تلتزم هذه الولاية بالتوقيت الصيفى أم لا .. فإذا كانت معك على نفس خط العرض ولا تلتزم بالتوقيت الصيفى فهى لازالت فى السابعة على حين أنك فى الثامنة، لا تبتئس إذاً إذا لم تجد الموظفين أو زملاءك يردون عليك فى ذلك المستشفى العظيم فى الولاية الأخرى..

وربما يكون هناك فرق طبيعى فى التوقيت بحكم خطوط العرض فإذا به يتلاشى مع تقديم الساعة فى ولاية أكثر بعداً عن الأطلنطى ولكنها تقدم ساعة بينما أنت تحادثها من ولاية على الأطلنطى لم تقدم الساعة.

لهذا فمن الطبيعى أن تجد الناس يسألون محادثيهم فى التليفون: كم الساعة الآن عندكم؟ وهم ينظرون فى ساعاتهم!

على أن أطرف ما فى موضوع التوقيت الصيفى ما حكاه لنا الدكتور أسامة سليمان من أن بعض المدن الصغيرة فى كثير من الولايات لا تلتزم فى كثير من الأحيان بتقديم الساعة رغم التزام الولاية كلها بذلك!! لماذا أيها السادة؟ فيقولون لك حتى لا نزعج البقر الذى تعود على تناول طعامه فى ساعات معينة فى الصباح، فإذا نحن نغير له مواعيده بحكم أن الساعة تتغير فى الظاهر فقط. وهم يقصدون «الساعة البيولوجية» التى سأحدثك عنها فى موضع آخر من هذا الكتاب.

❑

ها هو الربيع يبدأ فى كليفيلاند، وها هى الصحف تزف للناس فى إعلاناتها أسعاراً متعددة للشركات التى تتولى تنسيق الحدائق وزرع الشتلات، وها أنا اليوم

أستمتع طوال الصباح بمشاهدة هذا «الجناينى» النشط ومعه الشتلات الجميلة للزهور الصفراء والحمراء والزرقاء، يحرث الأرض بمحراث كهربائى يدفعه بيده ليس إلا.. صوت مزعج ولكن لا بأس فكل الآلات الأمريكانية مرتفعة الصوت على ما يبدو، ثم هو ينتقى الشتلات يغرسها فى أماكنها المحددة سلفاً، وها هو المنظر يتغير تماماً فى أقل من ٢٤ ساعة من شتاء تام إلى ربيع تام!!! صحيح أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة.. فهذه الطبيعة الجميلة، طبيعة حقاً ولكنها غرس الإنسان والطبيعة، والإنسان من صنع الله الذى أتقن كل شيء.

4

في بيت عائلة أمريكيّة

في بيت عائلة أمريكية

(١)

لا أعرف بالضبط هل أقع تحت طائلة قانون العقوبات الأمريكى إذا أنا تحدثت بشيء من التفصيل عن البيت الذى عشت فيه مع أسرة أمريكية فى كليفيلاند على الرغم من أن الأسرة تعلم تماماً أنى سأكتب عنها وعن بيتها.. وربما تعلم على وجه التقريب كثيراً من مضمون هذا الذى أكتبه.

كنت حريصا عند الترتيب لهذه الزيارة أن أقيم فى بيت عائلة أمريكية لأن قضاء مدة طويلة فى فندق ليس بالأمر التى تتحمله نفسية أى إنسان سوىّ حتى وإن تمنى بعض الناس ذلك فى ساعات ملل من مسئوليات البيوت!!

والواقع أن هذا كان هو السبب الثالث، أما السبب الأول فهو أننى كنت أريد ما

يريده كل إنسان على ظهر الأرض من أن يستكشف حياة الأمريكيين فى بيوتهم بعد هذه الصور المتلاحقة التى تطلعنا عليها جميعاً السينما الأمريكية عن البيت الأمريكى الفاخر، والأسرة الأمريكية المفككة.

أكاد أجزم ياسيدى ولكنى متأكد من أنك تصدقنى إذا قلت لك بدون يمين إن هنا أمريكيين أيضاً يريدون أن يشاهدوا على الطبيعة صورة ذلك البيت الأمريكى التى تقدمها السينما الأمريكية.. تماماً كما أن من المصريين مَنْ يريد أن يتأمل حياة القاهريين الذين تصورهم السينما المصرية وكأنهم لا يعرفون شيئا إلا كباريهات شارع الهرم.

هذان هما السببان الأول والثالث، أما السبب الثانى فسبب شخصى بحت، فقد كنت فى حاجة إلى فترة من الاستجمام البدنى والذهنى والاجتماعى أقضيها فى قراءة القرآن ومذاكرة كتب الطب وكتابة بعض التجارب الذاتية فقط، وكنت أعتقد [ويبدو أننى كنت مصيباً فى هذا الاعتقاد] أن وجودى فى بيت غير بيتى كفيل بهذا.. ولهذا كنت عازماً وقد نفذت ما عزمت عليه على ألا أقود سيارة، أو أخرج بليل أو أتحدث فى التليفون إلا فى أضيق الحدود.

وعلى قدر ما أسعدنى أن تحقق لى هدفى هذا رغم كل الدوافع والمغريات بشراء سيارة أو قيادة سيارة أو استئجار سيارة، فقد أسعدنى بالطبع أنى خلوت إلى نفسى فترات متتالية استطعت أن أكتب فيها ضمن ما كتبت هذا الكتاب.

❑

ولكنى أريد أن أحدثك قبل هذا عن أول الأزمات فى الوصول إلى منزلى الجديد. ذلك أنه فى صباح يوم الأربعاء السابق على سفرى تلقيت بالتلكس فى

الزقازيق رسالة فحواها أن العائلة الأمريكية لن تكون قادرة على استقبالى فى الموعد الذى حددته شركة الطيران المصرية فى الثانية عشرة وسبع دقائق بعد منتصف الليل ولهذا فإن علىّ أن أحاول تغيير موعد وصولى: إما مبكراً يوم الجمعة وإما فى صباح اليوم التالى يوم السبت. أو أن أقضى ليلة فى الفندق وقد حجزوا لى من باب الاحتياط ليلة واحدة يُلغى حجزها تلقائياً إذا لم أحضر حتى الثالثة صباحاً.

ومرّ فى تلك اللحظة أمام عقلى شريط الذكريات المقروءة حين كان المصريون يسافرون على مصر للطيران فقط ويضطرون لكثير من التغييرات غير المنطقية فى رحلاتهم من أجل الالتزام بمصر للطيران. وها هى مصر للطيران الناجحة الرابحة تعود فتضطرنا إلى مثل هذا فى مطالع العقد الأخير من القرن العشرين. فطائرتها لا تسافر أمريكا إلا يومى الجمعة والأحد. وإذا فاتتك طائرة الأحد ضاع عليك أسبوع كامل فى أمريكا لأنك حين تصل إلى أمريكا يوم الجمعة التالى فى الرابعة والنصف مثلاً تكون عطلة الأسبوع قد بدأت هناك. ومصر للطيران تدخل أمريكا من باب نيويورك وهو أصعب أبواب الجنة الأمريكية.

يكفيك منه أن تقف فى طابور لا يكف عن الانثناء والانحناء يميناً وشمالاً بين مسارات حدودها بتلك القوائم النحاسية الأنيقة بحيث يقف فيه ألفان أو يزيد من البشر. تتعجب للرقم «ألفان فى طابور» نعم. هذان الألفان هم ركاب أربع طائرات فقط. تسألنى ومن أين تأتى الطائرات الأربع فأذكرك ياسيدى أن هذا المطار يستقبل طائرة كل دقيقة. لا تتعجب ياسيدى من هذا واستمر معنا فى تصور رحلة مصر للطيران. النتيجة بالطبع أنك لن تستطيع أن تصل من طائرة مصر للطيران إلى أى مطار أمريكى آخر إلا بعد وقت وعناء. وبالتالى فإنهم فى مكاتب مصر

للطيران فى القاهرة يحتاطون ويحجزون لك موعداً على الطائرة التى تتحرك من نيويورك بعد وصول طائرتهم بست ساعات على الأقل!!. فإذا خطر ببالك وأنت فى القاهرة أن تطلب إليهم أن يضعوك على طائرة أسبق موعداً أخلصوا لك النصح بعدم التعجل فى مثل هذه المواقف لأنهم لا يضمنون الظروف.

مع هذا كله لستُ (مع أنى أنا العجول الذى تمثله عجلته عيباً بارزاً فى شخصيته الحافلة بالعيوب الأُخرى) بالذى يتقبل مثل هذه الخطوات البطيئة.. وماذا يبقينى أنا فى هذا المطار الكئيب الذى هو فى الحقيقة بمثابة مجموعة من الدول (لا دولة واحدة).. وأنا لا أبالغ فى هذا الوصف. فلكل شركة من الشركات فى هذا المطار شبه مطار مستقل، ولكى تتحرك من مطار إلى مطار هناك أتوبيسات لذلك ومسارات. وإذا كنت قادماً من مدينة نيويورك أو خارجها بالسيارة إلى المطار ودخلت بسيارتك فى مسار خاطىء فإنك لكى تعود إلى المسار الصحيح تقضى وقتا طويلاً يكون كفيلاً بضياع موعد طائرتك عليك.. والعودة فى اليوم الثانى كى تستقل طائرة الغد.. (وفى حالة مصر للطيران العودة بعد خمسة أيام)

❑

ها هى طائرة مصر للطيران تقوم من باريس متأخرة.. إذن سنصل نيويورك متأخرين ولكن قائدها الماهر يصل فى موعده!! أطلب استثنائى من الطابور لأنى أريد اللحاق بطائرة أخرى أزف موعدها.. وها هم يجيبونى إلى طلبى بعد أخذ ورد.. وهأنذا أمام مكتب شركة PANAM فى صالة الوصول ولا أحد فيه، ولا أحد يرد على التليفون المخصص للاستعلامات.. وهأنذا أعود مرة أخرى إلى مكتب مصر للطيران، ولا أحد يستجيب من مكتب PANAM... والحل الذى تسوله لى

خبرتى فى السفر أن انطلق بحقائبى من دون أن أسلمها على السير Check in وأن أكــون جاهــزاً تماماً لصـعود الطائرة بدون أن أسلم حقائبى مقدماً، وأن أتعهد بأخذها معى كحقائب يد فى طائرة PANAM وأن يتقبلوا هم هذا الوضع لأنها بحجمها الذى راعيته لن تزعج متن الطائرة.

كل ما يتطلبه هذا الحل هو عشر دقائق من الجرى أو السير السريع (حتى أصل من مطار الشركات الدولية الصغيرة المشتركة فى مطار أليطاليا (ومنها مصر للطيران) إلى المطار الأفخم للشركة الأمريكية PANAM) فى صقيع نيويورك، وعواصفها وأمطارها لا بأس من ذلك، وأن أكون حاملاً حقائبى ولا بأس أيضاً.. ما دام ذلك يوفر لى ست ساعات من الانتظار الممل فى مطار نيويورك الدولى J.F. Kenndy ولا تقل عنه هنا غير J.F.K جى أف كيه.. ويضمن لى أيضا راحة بعد هذه الساعات بأن آوى إلى فراش بدلاً من العذاب المتصل بعد رحلة طيران طويلة جاءت هى الأخرى بعد ليلة لم أر النوم فيها فى القاهرة إلا متأخراً جداً.

❑

خطر ببالى فى تلك اللحظة أنه أحيانا ما يكون من حظ الأشخاص الذين ترغب شعوبهم أو دولهم فى تخليدهم أن تطلق أسماءهم على مؤسسات يكثر ترداد أسمائها فيكونون محظوظين بكثرة هذا الترداد، وأحيانا أخرى يكون من حظ هؤلاء أن تطلق أسماؤهم على منشآت لا تتردد اسماؤها إلا مع شىء من اللعنة والملل والضيق كما هو الحال مع كل زائر لأمريكا حيث لابد له أن يذكر اسم كنيدى بكل ضيق، وربما بالسب واللعن إذا مرّ بمطار كنيدى وأن يكفر من سيئات الدون جوان. أو مع زائر القاهرة حين تضطره الظروف إلى طريق صلاح سالم حين تصيبه لعنه الازدحام والتوقف.. ما علينا!!

هأنذا أصل إلى مطار «بان أم» وأنجح بمزيد من التوفيق من الله فى إقناع السيدة المسئولة عن الترتيب فى وضعى على الطائرة المزدحمة، فيما بعد وجدت أن الطائرة حين أقلعت لم يكن فيها مكان واحد خال... ربما تعاطفت معى هذه السيدة لان اسمها كان مدام محمد... زوجها محمد وكفى.. هل هو مصرى أو أمريكى أو أفريقى أو عربى لا أعلم، هل أسلم أو ولد مسلماً لا أعلم. كل ما أعلمه هو أن اسمها الأخير والوحيد على البادج محمد! أما اسمها الأول فقد اكتفت منه بالحرف الأول فحسب.

ولابد الآن من هذا التليفون لأتصل بكليفلاند ليرسلوا السائق لاستقبالى فى المطار فى موعد وصول الطائرة.. ولكى تستعمل التليفون لابد من العملات المعدنية. ولابد من أجل الحصول على العملات المعدنية من ترك حقائبك جانباً والذهاب للحصول على العملات الأجنبية من الكاشير المخصص لذلك فى هذا المطار.... وقد وفقنى الله وأدركت الموظفين فى كليفيلاند قبل أن يتركوا مكاتبهم ويغادروها... ووعدونى من كليفيلاند بإرسال السائق!!. الآن ينتابنى الغرور لنجاحى فى كل هذه الخطوات، بل وأمامى بعد هذا كله فسحة من الوقت حتى تقلع طائرتى إلى كليفيلاند ومن ثم فإنى أستطيع الآن أن أبدأ الحوار الأمريكى حول كل ما يهمنى الحوار عنه.

❑

..... وتصل الطائرة إلى كليفيلاند وأجد الليموزين فى انتظارى على نحو ما حدثتك فى مقدمة هذا الكتاب، والسائق على علم مسبق بخط سيرى وهو يقول لى: إننا سنذهب للفندق حيث أقضى هذه الليلة، وفى الصباح يمكننى أن أذهب المنزل

المفترض أننى سأقيم فيه. لم أسأل السائق بالطبع لماذا؟ فالمنطق يقول إنه لابد أن هناك شيئاً فى الأمر وأنهم قد رتبوا الأمور على هذا النحو، ما دام السائق قد جاء فى الموعد المحدد.

وصلنا إلى الفندق وتركنى السائق، أنا الآن أمام موظف الاستقبال يبحث عن الحجز الذى باسمى فلا يجد حجزاً، وقبل أن أطلب إليه أن يعاود البحث كان السائق نفسه واقفاً أمامى مرة أخرى يعتذر لانه عندما أعطى لإدارة شركة الليموزين التمام باللاسلكى، قالوا له إن الطلب الموجود عندهم أن يوصلنى إلى «بيت الضيافة» وليس إلى «الفندق». ورغم أن المسافة بين الاثنين حوالى ٢٠٠ متراً إلا أن السائق عاد وحمل حقائبى، وتحرك بى وبالليموزين إلى بيت الضيافة حيث وجدت الحجز الخاص بى بالفعل.

انصرفت إلى سريرى فى حوالى الساعة التاسعة مساء بعد وجبة خفيفة استغرقت ربع ساعة، وحمام دافىء استغرق ربع ساعة أخرى، وخمس دقائق أمام التليفزيون، وخمس دقائق أخرى فى فتح الحقائب وترتيب ما قد احتاج إليه من حاجياتى، ويبدو أننى بمجرد أن وضعت رأسى على الوسادة دخلت فى النوم كما يقولون.

❑

فى الثانية عشرة تماما وقبل أن تنقضى ثلاث ساعات على بداية نومى كنت استيقظ بسبب ما نسميه الساعة البيولوجية التى فى أجسامنا.. هذه الساعة البيولوجية لا تعرف فروق التوقيت ولا يمكن تحريك عقاربها بهذه السهولة التى ضبطنا بها ساعتنا حين وصلنا مطار باريس أو مطار نيويورك، فهذا الجسد يستيقظ

فى القاهرة ما بين السادسة والسابعة صباحاً ولا يتأخر عن السابعة مهما كان منهكاً.. فلابد أن يستيقظ فى نيويورك فى الثانية عشرة التى تناظر السابعة فى القاهرة.. مهما كان منهكا.. فليستيقظ ثم لينم بعد ذلك... لا بأس، ولكن لابد له من أن يستيقظ!!.

أستيقظ إذاً، وأبدأ فى الوعى، أحس بالجوع الشديد فأتناول وجبة خفيفة أخرى وأبدأ فى محاولة للحديث إلى القاهرة بالتليفون ثم ما هى إلا دقائق، ويتملكنى التعب فأذهب مرة أخرى فى النوم العميق.

فى الرابعة صباحاً استيقظت مرة أخرى وبذلت محاولات للنوم حتى السابعة بلا جدوى، ولم يكن بد إذاً من أن أستيقظ وأفتح الستائر، ومنذ أن دقت الساعة الثامنة صباحاً وأنا أحاول الاتصال بالعائلة الأمريكية كى أتفق معها على الموعد الذى يمكننى فيه أن أحظى باستقبالها لى.. وفى كل حين تجىء سماعة التليفون بصوت مسجل يقول إن هذا الرقم قد قُطعت عنه الحرارة، نفس الرد الذى سمعتُه منذ كنت فى نيويورك.. حتى إذا كانت الساعة العاشرة تماماً كانت العائلة هى التى تحادثنى تليفونياً، سائلة عما إذا كنتُ قد استيقظت.. إذاً فها هى العائلة لا تزال فى كليفلاند. بعدما كنت قد بدأت مع زميلى المقيم فى كليفيلاند الدكتور حسام الشرقاوى البحث عن مكان بديل أُقيم فيه.

وأجيب بسرعة: نعم أنا الذى فى انتظاركم وأنا الذى عانيت من الاتصال التليفونى بكم..

لا عليك.. Never mind .

وماذا عن تليفونكم..

قالت: إنها تستعمل جهاز الإجابة الأوتوماتيكية..

انتابنى العجب، هل يضع إنسان فى شريط الإجابة عبارة تقول إن تليفونه قد فقد الاتصال.. ولكن ليس من حقى أن أتعجب مبكراً من مثل هذا التصرف، فأنا مازلت رغم كل شيء ضيفاً أجنبياً...

دعينى ، يا سيدتى، أعرف متى يمكننى أن أحضر إليكم بالضبط وأتصل بكم ثانيةً.. ها أنا قد حددت مع حسام موعداً وأعاود الاتصال بالعائلة فإذا نفس الإجابة فى التليفون مرة واثنين وثلاثاً وأربعاً.. فلنصبر وسوف تتحدث.. حتى إذا كانت الساعة الحادية عشرة تحدثت ربة العائلة.. يا سيدتى تليفونك لايزال يرد علىّ بما يعنى أنه لا يزال معطلاً.. طلبتك أكثر من أربع مرات.. لا عليك مما مضى ولكن اطلبى «مصلحة التليفونات»..

طيب حاضر! أرجوك! ولكن حاول أن تطلبنى مرة ثانية ما إن ننتهى من مكالمتنا هذه.. لا أمل أيضاً..

فى الثانية عشرة خطر فى بالى أن أطالع اسم هذه العائلة فى دفتر التليفونات الخاص بكليفيلاند ووجدت أن هناك صفحة كاملة من الذين يحملون لقب هذه العائلة.. أما اسم هذه العائلة فهو موجود فعلاً فى العنوان ذاته ولكن رقم التليفون مختلف.. هنا سر المأساة إنه ليس مختلفاً تماماً كما يتوقع القارىء من اقتران كلمة «تماماً» بكلمة مختلف فى حديث المصريين عما يتعجبون منه حين يقولون مختلف «تماماً» أو مختلف «خالص خالص».. إنما كان الاختلاف فى رقم واحد.. يالله.. فى ذات اللحظة كانت العائلة الأمريكية تتصل.. انتظرت فقد تعلن بنفسها عن اكتشاف الخطأ لأنها بالطبع لن تسكت فى الساعة الماضية عن بحث هذه المشكلة..

ولعلها طلبت بل لقد طلبت مصلحة التليفونات بالفعل وأجروا لها اختباراً وكلموها من السنترال ولم يعد هناك من احتمال للبس إلا أن يكون الرقم المطلوب (أى الذى معى) خطأ.. وهكذا طلبوا أن أقرأ الرقم المرسل بالتلكس.. وبدأنا مرحلة من التفهم الصحيح.. وحين راجعت الخطابات الأولى التى فيها عنوان العائلة اكتشفت أنها تضم الرقم الصحيح، ولكن الخطأ حدث فى آخر اتصال وهو الذى تم عن طريق التلكس، حيث اخطأت موظفة المركز الدولى فى كتابة (أو بعبارة أدق ! فى نقل رقم التليفون).

وصباح الإثنين حين كان علىّ أن أبدأ عملى كنت أعود من حين لآخر إلى القول المنسوب فيما أظنه للإمام الشافعى عليه رحمة الله:

«إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده»

❑

وحين جاءنى د. حسام الشرقاوى ود. عمر مسعود لاصطحابى إلى المنزل المفترض أن أعيش فيه آثرتُ أن نبدأ بقراءة الخرائط.

وكانت مفاجأة.. لو اتبعنا هذه الخرائط فسوف نمضى فى الطريق قرابة أربعين ميلاً حتى نصل إلى بداية طريق كبير يحمل هذا الاسم. ولكن بما أننا جميعاً متأكدون من أن منزل العائلة يقع فى مرتفعات كليفيلاند فلابد من أن نبتعد عن هذا العنوان الذى فى الخريطة.. وها نحن نعود للفندق فنسأل العائلة بالتليفون. وإذا بالشارع الذى يقع فيه المنزل يشترك فى اسمه مع طريق كبير، وأبسط لك المسألة بأن أقول إن الشارع يحمل اسم صلاح سالم مثلاً بينما هو موجود فى ضاحية

المعادى على حين أن شارع صلاح سالم الذى على الخريطة وفى فهارسها هو طريق صلاح سالم المعروف بالطبع.. ولا ينقذك من هذا إلا أن تكون على علم (كما كان زميلاى) أن طريق صلاح سالم لا يقع (بصور أو بأخرى أو فى أحد أجزائه) ضمن حى المعادى ومن ثم فلابد أن يكون هناك فى حى المعادى شارع يحمل نفس الاسم الذى يحمله شارع كبير جداً فى المدينة الكبيرة التى يقع فيها الحى.. وتبسط لنا العائلة وصف منزلها فعلى بركة الله.

❏

كانت ربة العائلة تقف خلف زجاج منزلها وتشير بأصبعها تصحح لنا: إن طريق الدخول إليها بالسيارة (Drive) إلى الشمال وليس إلى اليمين.. هكذا حتى تكون قبالة الباب بالضبط.. من حسن الحظ أن حسام وعمر يفهمان تماماً تقاليد الأسر الأمريكية، وهكذا انتظرا فى الخارج ولم يساعدانى فى حمل الحقائب ودخول المنزل بها.. ربة البيت تقودنى إلى حجرة نومى فى الدور العلوى وتعطينى فكرة سريعة عن حجرة التليفزيون والاسترخاء الخاصة بى فى البدروم، وإلى جوارها حجرة المغسلة.. والمطبخ فى الطابق الأرضى (الأول) ومع هذا أجدنى أسرع فى الاستئذان حتى لا أؤخر حسام وعمر على وعد بالاجتماع معها عند عودتى فى المساء... أو فى صباح اليوم التالى للاستماع إلى التعليمات الكاملة وفهم هذه التعليمات.. ومع هذا فقد أخذت النسخة المخصصة لى من مفتاح هذا البيت وانطلقت.

(٢)

حين عدت فى حوالى الثامنة مساء كان النور مضاء فى الطابق الأول.. ولكن

العائلة غير موجودة.. لعلها تركت النور مضاء ليؤنسنى حين أقدم. لابد أنهم نيام الآن فى الطابق العلوى.. أخذت أتحسس خطواتى إلى الطابق العلوى وأنا حريص كل الحرص على ألا آتى بأية حركة.. إلى اليمين حجرة بابها مفتوح ثم حجرتى ثم الحمام وإلى اليسار باب مغلق ثم حجرة بابها مفتوح.. لابد أنهم نيام وراء هذا الباب المغلق. أغلقت باب حجرتى وأخذت أرتب متاعى... ثم نزلت إلى الطابق الأرضى وأخذت أرتب الأطعمة التى اشتريتها من السوبر ماركت فى ذلك الرف الذى أخبرتنى ربة العائلة فى الصباح أنه مخصص لى فى الثلاجة، وفى ذلك الرف المناظر فى دولاب الطعام، وفى ذلك الجزء الأيسر من الفريزر. كان الفريزر ممتلئاً تماماً رغم سعته.. ومع هذا وجدت مساحة كانت كافية بالكاد للكبد واللحوم والسمك والدواجن التى أحضرتها اليوم.

❑

انتويت الصيام لأول يوم فى رمضان وللشهر كله وأويت إلى فراشى.

وفى حوالى الثانية عشرة «أيضاً» استيقظ جسدى لأنه تعود على ذلك بفعل الساعة البيولوجية كما أخبرتك وليس هناك من أمل فى أن يعدل عما اعتاد عليه بين يوم وليلة.

فى الخامسة والنصف استيقظت لأداء صلاة الفجر وظللت فى حجرتى حتى التاسعة.

فى التاسعة تماماً كنت فى الطابق الأرضى حيث وجدت ربة العائلة لاتزال فى المطبخ تتناول قهوة الصباح، وبدأنا الاجتماع، هذه ورقة طويلة بالتعليمات ناقشناها معاً.. لن أذكر لك تفاصيل كثيرة.. ولكنى سأدلك على بعض ما يهمك من أمر

الحياة الأمريكية اليوم، وقد تكون عندك فكرة أسبق منى، ولكنى سأحدثك بانطباعاتى حتى لو اتهمتنى بالتخلف.

❑

يبدو أنه لم يعد لجهاز البوتوجاز مكان فى المطبخ الأمريكى.. فالاعتماد اليوم على جهاز الميكروويف.. وعند هذه العائلة جهاز جديد.. ولكن كيف يمكن لى أن أعتمد عليه فى إعداد شرائح الكبدة المحمرة.. التى تحتاج زيتاً مقلياً؟ ربة البيت تتناول المرجع المناسب الموجود فى مكتبة المطبخ.. وفى المرجع المذكور أننى فيما يختص بالكبد بحاجة إلى تشغيل الميكروويف لمدة دقيقة ثم إلى أن أترك الطعام فى الميكروويف ١٥ دقيقة أخرى.. بينى وبينك لم أقتنع تماماً. ونويت أن ألجأ إلى الوسيلة القديمة إلى موقد الغاز الكهربائى..

وأسأل نفسى: هل انتابتنى الشيخوخة أنا الذى لم يترك جديداً إلا جربه.. لا ياسيدى فإن اليوم أول يوم فى الصيام وليس عندى فرصة أخرى لطعام آخر.

ولكن الأمر حُسم بطريقة أخرى فحين أقبل المغرب كانت ربة البيت على رأس مائدة الطعام بالقرب من المطبخ ومعها ثلاث من صديقاتها، وأصبح من الصعب علىّ أن أتقبل أن أزكم أنوف هؤلاء جميعاً ببخار الزيت المقلى.. حتى مع وجود هذا الشفاط الذى علمت منذ الصباح أنه علىّ أن أبدأ تشغيله بمجرد البدء فى استعمال موقد الغاز.

لن أقول لك إن الكبدة بالميكروويف كانت أحلى كبدة فى حياتى، ولكنها كانت بلاشك قريبة من هذا المعنى.

إذا كان لك أن تسألنى عما فعلت فى هذه الكبدة قبل أن تدخل إلى الميكروويف

فإننى ألخص لك القول بأنها غُمست تماماً فى الفلفل.. وأحيطت بزيت المازولا الشهير.. وبدعاء الصائم المضطر المغترب!!.

عودة إلى أول صباح لى فى المنزل: فى الضحى فقط وحين انتهت ربة البيت من اجتماعها تركتنى لتعود بعد حوالى نصف ساعة فى ملابس الخروج.. ساعتها فقط أدركت أن حجرة نومها هنا فى الطابق الأرضى.. أما ذلك الباب المغلق فلم يكن وراءه [طبقاً لما فهمت بعد ذلك من ورقة التعليمات] إلا المكنسة الكهربائية.. وأدوات التنظيف.

للعائلة ابن هو ريتشارد، وابنة هى كريستين.

الولد هو الأصغر ويعمل معملياً فى إحدى مستشفيات سلاح الجو الأمريكى.

والإبنة كريستين ٢٦ عاماً متزوجة وتعيش فى كولومبوس، أما ربة البيت نفسها فإخصائية اجتماعية. تعمل فى إحدى جمعيات مرضى السرطان فى الجانب الغربى من المدينة.

(٣)

دعنى أحدثك بعد ذلك عن روتين الحياة اليومى فى بيت العائلة الأمريكية. بالنسبة لى كانت هذه السكنى بمثابة النموذج الأمثل لما أريد:

- لن يضيع وقتى فى حكايات عن الوطن البعيد مع زميل مصرى.
- سأعيش الثقافة الأمريكية بمعنى الثقافة الواسع كأسلوب حياة وهو ما لا يتاح للمرء إلا إذا عاش معهم فى بيوتهم وخارج بيوتهم لا فى مجرد العمل وساعاته فحسب.

- بالإضافة إلى هذا هناك فاصل واضح بين حجرة النوم وبين حجرات الطعام والمطبخ والمعيشة ـ على حين أن شقق الحجرة الواحدة (الاستوديو) تكدس كل هذا وتكرسه فى مساحة محدودة قد تكون واسعة، ولكنها موحدة أو مشتركة على كل حال.

- فى حجرتى كرسى مريح ومكتب أكثر راحة، ودولاب حائط، ودولاب آخر، ومنضدة إلى جانب السرير ومكتبة فى الحائط ـ كل ما أبتغيه تقريباً.

- كل صباح هناك جريدة وقد تعودت أن أقرأ صحيفة الصباح حتى فى البلاد التى لا أعرف لغتها جيداً، وأعتقد أن مجرد تصفح صحف الصباح فى أى وطن لا يحتاج معرفة اللغة.

- هناك مطبخ حقيقى وليس مطبخاً يتكون على عجل وفى حالة طوارىء.. صحيح أننى لست مداوماً على الطبخ المستفيض إنما هى وجبات عاجلة تعودت عليها منذ بدأت اغترابى منذ أكثر من ١٧ عاماً ولكن لابد من مطبخ من أجل «إذا قدر».. أو فى «حالة» أو كما يقول الأمريكان «In Case» يقصدون من باب الاحتياط.

- هناك أدوات متعددة للنظافة على حين أنك فى الشقة الصغيرة ستجد نفسك مضطراً لتنفيذ كل عمليات النظافة بأداة واحدة.. أى أداة تقع فى يدك قبل غيرها ـ فلا مانع من أن تكنس بالمساحة أو تمسح بالمقشة.. إلخ).

- هناك الشعور بالوجود فى بيت وبالانتماء إلى أسرة..

- هناك من تفكر فى أنه سيسألك إذا تأخرت فى المساء عن عودتك ـ هذا الشعور

يريح الذين نشأوا على نشأة تجمع بين الفطرة السليمة والحرية الحقيقية، وأحمد الله أن أنعم عليّ بهذه النعمة.

- هناك الشعور بالانتماء إلى مجتمع بكل ما يحمله موقع البيت والمنطقة السكنية التى هو فيها من معان..
- هناك بعد ذلك كل الخبرة بتأثيث البيوت، وترتيبها، والإفادة من أركانها، وتوظيف المبانى للمعانى ، والمساحات للأغراض، ولمسات الفن الجميل سواء فى التشكيل أو التكوين أو الزخرفة أو الزهور أو الأثاث أو الألوان أو الترتيب..

❑

فى السابعة وعشر دقائق تفتح ربة البيت باب جراج السيارة بالريموت كنترول بينما هى لاتزال فى المنزل ثم تنزل إلى سيارتها فتبدأ فى إدارة محركها وتتركها وتعود لتستأنف ترتيب ما سوف تأخذ من متاع معها وقبل السابعة والربع تتحرك بالسيارة إلى الخلف ريثما أغلق أبواب المنزل بمفاتيحى وأستقل السيارة فى الكرسى الأمامى بينما الصديق والزميل البولندى الذى يسكن عند العائلة المجاورة قد سبقنى إلى الكرسى الخلفى أو يلحقنى فيه.

فى السابعة و٢٢ دقيقة أكون فى المستشفى وتستأنف ربة البيت طريقها إلى عملها ـ حوالى ٤٥ دقيقة. وتبقى هناك حتى الخامسة مثلاً، وتعرج فى طريق عودتها على مَنْ تريد من أصدقاء أو مصالح.

أما عطلة نهاية الأسبوع عندها فهى كذلك حافلة بالعمل والنشاط.

فى نهاية أسبوعى الأول كانت على موعد مع والدتها.. على بعد ١٥٠ ميلاً من

كايفيلاند.. ولهذا سافرت منذ الخميس، غابت الجمعة والسبت - وجاءت في مساء الأحد.. كان هذا الأسبوع يناظر عندنا عيد الأم في مصر ولكنه لم يكن كذلك في أمريكا ومع ذلك كانت هذه السيدة عند والدتها محملة بكثير من الهدايا!!.

في نهاية أسبوعي الثاني كان عيد الفصح يوم الأحد.. وكان عيد ميلاد أقرب صديقاتها إلى قلبها يوم السبت.

في نهاية الأسبوع الثالث كان عليها أن تسافر إلى بيتها الريفي حيث دعت أخاها وخطيبته لقضاء عطلة نهاية الأسبوع هناك حين قابلتهم معاً، لأول مرة عند والدتها قبلها بأسبوعين.. سافرت ربة البيت صباح الجمعة ولكنها كانت منذ ظهر الخميس مشغولة باستقبال ثلاثة ضيوف هم ابنتها وزوج ابنتها ووالده الذين خرجوا في سيارتين من كولومبوس في وداع الأب المسافر إلى كندا عبر كليفيلاند.

❑

وليس هذا هو كل السفر في حياة ربة البيت التي قاربت الستين. ففي أحد أيام الخميس كانت مسافرة إلى توليدو، لتحضر ندوة موضعها «النكتة كجزء من العلاج»، لك أن تعجب من أن تسافر هذه السيدة كل هذه المسافة لتحضر مثل هذه الندوة حتى إن احترمت موضوعها باعتباره موضوعاً مهماً حتى وإن بدا من اسمه أنه موضوع كاريكاتير عن ندوة لا موضوع ندوة.

ولكن عجبك يزول إذا علمت أنه لابد لهذه السيدة شأنها شأن كل الأمريكيين الذين يمارسون مهناً من أن تنتظم في برامج ما يسمى «التعليم المستمر» حتى تكون قادرة على أن تستمر في أداء مهنتها والبقاء في وظيفتها.

وعلى كل الذين يمارسون المهن المختلفة فى الولايات المتحدة أن يبحثوا بأنفسهم عن الندوات، وأن يحضروها ، وأن يسجلوا حضورهم بشهادات وتتضمن هذه الشهادات قيمة هذه الندوة من حيث الساعات المعتمدة حسبما تقدر الهيئة المشرفة على ممارسة المهنة: فإذا كانت هذه السيدة مثلا مطالبة بخمسين ساعة فى العام من التعليم المستمر فإنها لابد أن تحضر عشر ندوات من مثل هذه الندوات التى قدرت لها نقابة الاجتماعيين [مثلاً] أو اللجنة الدائمة للوظائف الخاصة بالخدمة الاجتماعية [مثلاً] أو جمعية الاجتماعيين [مثلا] خمس ساعات فى مقياس ساعات التعليم المستمر حتى وإن كانت الندوة تستمر لمدة ١٢ ساعة ما بين مناقشات ومحاضرات واجتماعات... إلخ. هذا هو الأسلوب الذى ينفذون به تعليم الكبار أو التعليم المستمر..

وفيما مضى ومنذ حوالى ١٢ عاماً بدأنا فى مصر برنامجاً للتعليم الطبى المستمر ثم أجهضناه... أجل أجهضناه. وكأن هذا الإجهاض شأنه شأن تصرفنا مع كل أجنتنا «الفكرية» والتنفيذية، التى نجهضها دون أن نستشعر حرمة قتل ما من شأنه أن يكون زادنا وثروتنا فى تطلعاتنا نحو المستقبل.

(٤)

جانب آخر من حياة ربة البيت الأمريكية أريد أن أحدثك عنه بشىء من التفصيل وهو اهتمامها بالثقافة والكتب. ففى الحجرة الرئيسية مكتبة صغيرة، وفى دولاب حجرتى مكتبة أصغر، وفى الحجرة المجاورة مكتبة أصغر وأصغر، وفى الطرقة التى أمامها مكتبة صغيرة أيضاً، وفى الحجرة الرابعة مكتبة أكبر من الصغيرة. وفى المطبخ مكتبة مطبخ صغيرة، وفى حجرة الاستقبال شبه مكتبة أيضاً.

أكون مبالغاً إذا أهملت الجانب الآخر من الموضوع ولم أحدثك عن أن المكتبة من هاتيك الصغيرات لا تضم أكثر من عشرين كتاباً، وأن مكتبات الدور العلوى كلها فيما يبدو حصيلة الاهتمام المفرط للابن بالسيارات - فعنده موسوعة السيارات عاماً بعد عام - وكتاب عن سيارات العالم، وآخر عن سيارات أمريكا وأعداد من مجلة Hot rod وهى مجلة للدعاية للسيارات تضم أو تتعاقد مع ست من الحسناوات، والمجلة تصور كل سيارة وعليها أو فيها أو على طرفها أو بجوارها فتاة عارية إلا قليلاً.. هل يا ترى يعجب القارىء بالسيارة من أجل السيارة أم من أجل الفتاة التى معها؟ لست أدرى.

أما مجموعة كتب المطبخ التى عند ربة البيت الأمريكى فشبيهة بمجموعة كتب الطب عند الأطباء المصريين الشبان، تجدهم رغم كثرتها يحتفظون بورق صغير يصورونه من هنا وهناك ويعتمدون عليه فى بعض عملهم. هذا هو ما حدث حين جاءت ربة البيت باعتزاز شديد بثلاث ورقات مصورة من مرجع ليس عندها منه نسخة وشرعت فى عمل «كيك القهوة»!!.

أما كتب ربة البيت نفسها تلك التى تستحضرها من حجرة نومها فتحدثك عن ثقافتها الحقيقية - فعند ربة البيت أكثر من موسوعة تلجأ إليها فى الحصول على المعلومة التى نختلف حولها، أو نحتاج إليها. وعندها مجلدات قيمة لأعمال أدبية من التراث العالمى، ربما تحتفظ بها كما تحتفظ أمريكا ببعض هذه الأشياء فى متاحفها القومية!. وعندها المجموعة الكاملة للمجلة العلمية للإخصائيين الاجتماعيين. وعندها أيضاً مجموعة متفرقة من الكتب فى الفن والتاريخ والآثار، وعندها بالإضافة إلى هذا كتابان فى الموسيقى.

أنا لست مبهوراً بمكتبة ربة البيت الأمريكية - ولست فى نفس الوقت مستخفاً بها إذا قارنتها بأى من مكتباتى، ولكنى أريد أن أحدثك عن أن الأمور لا تقدر إلا فى إطارها الصحيح. فإن الأمريكيات المتعلمات اللائى فى سن هذه السيدة قليلات إذا ما قورنّ بالأوروبيات من جيلهن، أو حتى بالأمريكيات من الجيل الذى بعدهن. ولابد أن تعرف أن فى أمريكا أمية ، ولابد أن أحدثك أن علاج الأمية فى أمريكا هو رابع المستحيلات لا أحدثك بذلك رثاء للأمريكيين أو استخفافا بهم، ولكن لأذكرك أننا فى مصر والبلاد العربية على وشك الدخول فى ذات المرحلة من استعصاء الأمية على الحل.. تسألنى لماذا؟.

وأظنك لست بحاجة إلى السؤال فهذا التليفزيون بقنواته الأربعين والفيديو من ورائه - ثم هذا التليفون ومن ورائه دائرة المعارف التليفونية المجانية كفيلان بأن يتيحا للأمى كل ما كان يستشعره من نقص يدفعه إلى تعلم القراءة والكتابة، كى يقرأ كتاباً أو صحيفة مثلاً أو فاتورة أو إيصالاً أو عقداً، أو ليكتب خطاباً إلى ابنه المقيم على بعد، أو طلباً للحكومة المحلية!! ها هو التليفون وها هو التليفزيون يشبعان فى البشر الحاجة إلى المعرفة من دون أن يمتلك المرء القراءة التى كانت أداة البحث عن المعرفة..

أعرف أننى بهذا التفسير ربما كنت أقرب إلى أن أسطّح الأمور وأننى ربما أتجاوز حدودى حين أتناول المعرفة بمثل هذا التناول السطحى، وحين أختزل الحاجة إلى المعرفة إلى هذه الأمثلة البسيطة.. ولكن الحقيقة التى لاشك فى أنها تصدمنا جميعاً هى أن هذه المعرفة التى تراها أنت وأراها أنا سطحية هى كل ما يهم الأمى وأكثر مما يهم الأمى. وإذا شبع الأمى بهذا وتوقف عند هذا فلن يشكو لك ظمأ ولا جوعاً.

وبودى أن أسألك: أليس فى وسع الأمريكى الأمى أن يتحصل اليوم من بين أفلام القنوات المتعاقبة فى التليفزيون الأمريكى على مشاهدة خمسة أو ستة أفلام كاملة.. هل كان فى وسع المثقف فى القرن التاسع عشر أن يقرأ روايات هذه الأفلام جميعاً فى شهر واحد!! أليست ساعات معدودة أمام التليفزيون كفيلة بأن يطالع الأمريكى ما يناظر ست صحف أمريكية يومية مختلفة الألوان والأقلام والاتجاهات؟.

نعم يا سيدى تبقى أنت، وأبقى أنا، ويبقى كثيرون معنا لا يستغنون عن قراءة الصحف ولا عن مطالعة الروايات، ولكنى أحدثك عن السواد الأعظم فى عصر أصبحت الثقافة فيه متأثرة إلى حد بعيد بفلسفة الـ Mass Communication، ولكن إذا لم تكن تأملت المعنى الحرفى فى اللغة الانجليزية فاعلم أنها لا تعنى إلا وسيلة الاتصال بالسواد الأعظم أو بالكتلة الكبيرة.

(٥)

هل أحدثك بعد هذا كله عن المنزل الأمريكى من مطبخه ربما كان من حقك علىّ ومن حق المنزل الأمريكى علىّ كذلك أن أتحدث عنه بشىء من التفصيل هو الآخر. فهذا هو مطبخ العائلة لا يكاد يتسع للدواليب التى فيه، ودواليبه لا تكاد تتسع للأرفف، والأرفف لا تكاد تتسع لما عليها.. الأطباق من كل حجم أكثر من ٥٠... وهناك أكثر من ٥٠ ملعقة وأكثر من ٥٠ شوكة وأكثر من ٥٠ سكينة.. عن المقالى حدث ولا حرج.. وهذه أدوات الميكروويف، وهذه أوانى لفرن البوتاجاز.. وهذه أوانى للموائد الفخمة.. وهذه أوانى للموائد المتواضعة.. وهذه علب من جميع المقاسات للثلاجة وللميكروويف.. وهذه علب أخرى للبهارات.. وعلب لوازم الآيس

كريم.. وعلب لوازم الكيك.. وعلب لوازم المائدة والسرفيس.. أدوات كبيرة وصغيرة.. أدوات للخلاطات.. والماكينات المختلفة.. أوراق مفضضة لحفظ الأطعمة المطهية، وأخرى سلوفانية، وأخرى ورقية. مساحيق الغسيل تفوق العشرة.. أطقم التوزيع لا حصر لها.. الفناجين يتعدى عددها المائة وكذلك الكئوس ولكلٍ استعماله: هذا للمشروبات.. هذا للشاى.. هذا للقهوة.. إلخ.

القهوة نفسها أنواع.. المحمصة أنواع كثيرة بعضها يحفظ فى علب بلاستيكية، وبعضها فى أكياس ورقية، وبعضها فى علب معدنية، وبعضها جاهز مباشرة لماكينة القهوة... وهناك أوان متنوعة للعصائر المختلفة، وأقول لربة البيت إن عندها أشياء كثيرة جداً جداً لأشياء كثيرة جداً جداً.. فتسعد بهذا التعليق ولكنها تردف بالقول بأنها مسألة عمر فمع مرور الزمن يضيف الإنسان إلى ما عنده.

كان علىّ فى هذا المنزل أن أستوعب أسلوب تشغيل أكثر من عشر آلات:

١ـ الغسالة الكهربائية، ونظامها مختلف تماماً عن غسالتى، وكلما حكيت عن وجوه الاختلاف هذه تعجب ربة البيت لهذا التقدم الاليكترونى الذى أصاب الغسالات!!

٢ـ المجفف، وربما كان أمره أسهل الأمور لأنك تضبط ساعته وتنظر فى النهاية إلى الملابس هل جففت أم لا؟ والحقيقة أنه لا يجفف الملابس فحسب وإنما يحمصها.

٣ـ البوتاجاز الكهربى، وربة البيت حريصة أن تجعلنى أستعمل الشعلة المناسبة لما أريد إنضاجه بينما أنا كعادتى استسهل الشعلة الأمامية اليسرى لأنها فى متناول يدى عن يمينى، وتعطى ما أريد، ويمكننى التحكم فيها بالقليل، ولكن ربة

البيت لا توافق على هذا المبدأ لأن نتيجته ستكون ضارة بحواف الأوانى الصغيرة التى تُوضع على هذه الشعلة فيصيبها اللهب من أطرافها أو بسطح البوتاجاز من حول الشعلة حين يصيب رذاذ الوقود واجهة البوتاجاز التى تضم عدادات الحرارة!!

٤ـ الميكروويف: وقد سبق لى أن صارحتك باعتقادى أنه لن يصبح هناك محل للبوتاجاز إذا تطور هذا الميكرويف فى السنوات القليلة القادمة على أيدى اليابانيين وبأموال الزبائن العرب.

٥ـ التليفزيون: وهو أسوأ الأجهزة لأنك لابد أن تكتب عليه بنفسك (بلمس الأزرار طبعاً) القناة التى تريدها قبل أن يبثها لك.. ما أحلى وأسهل الريموت الذى نشره اليابانيون فى بلادنا.

٦ـ الفيديو.. وكنت استخدمه، حيث وضع فى حجرة البدروم، لمشاهدة بعض برامج جمعية القلب الأمريكية.

٧ـ المكواة الكهربائية : سبحان الله كنت أظن الماركات التى نعرفها أرقى الأنواع فكيف نصف هذه التى لا يزيد وزنها عن الخمسين جراماً ومع هذا فإنها تجعل الصوف الثقيل مستويا بمجرد لمسة.

٨ـ ماكينة صناعة القهوة.. وأمرها سهل.. فهى تقريباً نفس الماكينة التى نعرفها جميعاً.

٩ـ المكنسة الكهربائية وهذه فى حد ذاتها تحتاج خبرة طويلة لأنها متعددة الأغراض والاتجاهات والاستعمالات.

١٠ـ التكييف المركزى وأمره سهل.

١١ـ غسالة الأطباق وأمرها سهل أيضاً لأن كل إناء يوضع فى محله ثم تدور.

١٢ـ الراديو بالساعة والمنبه وسوف أستعمل الراديو فقط.

فإذا أضفت إلى كل هذه الأجهزة خبرة لابد لك بها مع كل مفاتيح الإضاءة. ومفاتيح التحكم فى مفاتيح الإضاءة.. ما هذا؟ وهذا يضىء ماذا؟.. أدركت أن المسألة ليست بالبساطة التى تظنها من السهولة إذا ما أردت التأقلم على بيت جديد.

❑

قبل أن تسافر العائلة فى أول مرة أوصتنى ربة البيت خيراً بقطتها الأثيرة «باتشى»، وأسألها: ولماذا لاتأخذينها معك ياسيدتى؟. الجواب: حتى لا تتعب أعصابها بأماكن لم تتعود عليها، أو بالركوب فى سيارة قد تهتز فتقلق باتشى النائمة دائماً.. من هذا الدولاب تستطيع أن تأتى لباتشى بالطعام إذا نقص طعامها.. وفى هذا الاناء تضع لها الماء.

والمسئولية عن حيوان أعجم أمانة ثقيلة، وكل فترة لابد أن أذهب لأطمئن إلى أن باتشى لا تزال بخير، ولكنى أسائل نفسى: ماذا تفعل هذه القطة النائمة؟ لست أدرى. هل تأكل الفئران؟ أعتقد أن أى فأر مهما كان ضئيلاً قادر على أن يأكل هذه القطة وأن ينتهى من مضغ لحمها كله فى خلال أسبوع واحد. وحتى هذا الفأر المصنوع من الموكيت والبلاستيك والملقى أمام باتشى على الأرض كفيل بها، هكذا انتابنى الإحساس تجاه هذه القطة، وقديما كنا نعرف خيال المآته على أنه يخيف الطيور.. الآن يبدو أن هناك خيال مآته من نوع آخر كهذا الفأر الخيالى الذى يعطى الثقة للقطة بأنه لازالت هناك فئران فى الحياة الدنيا.

بعد أيام من إقامتى اكتشفت شيئاً خطيراً حمدت الله عليه.. كانوا يسألوننا فى مراسلتهم أن نحدد إذا كنا مدخنين أم لا. لأن العائلات التى سنقضى عندها وقتاً ترغب فى تحديد هذه النقطة منعاً لإزعاج أى من الطرفين. جارتنا (فـ) التى يقيم عند عائلتها زميلى البولندى مدخنة.. لكن المأساة التى رحمنى منها الله أن عندها ٣ كلاب!!

ياللهول!!

أما كان أولى بهم أن يسألونا: هل أنتم تطيقون الكلاب أم لا؟ فكرت فى نفسى (لو قدر لى بعد هذا أن أكرر مثل هذه التجربة) أن أكتب فى ورقى إننى غير مدخن وغير مطيق للتدخين ولا للكلاب وحمدت الله على نعمة الستر.

فى صباح اليوم التالى وفى صدفة غريبة كانت ربة البيت تسألنى بينما نحن فى السيارة.. هل يربون الكلاب عندكم فى البيوت.. نعم ياسيدتى بعض الناس ولكنى لا أحب.. وتستطرد ربة البيت إنما أردت أن أسأل لأنه حدث ذات مرة أن جاءت طبيبة من الأردن كان المفروض أن تقيم عند جيراننا فلما وجدت الكلاب اعتذرت عن الإقامة فى مثل هذا البيت.

فيما بينى وبين نفسى أقول ولو كنت مكانها لفعلت هذا أيضا بالطبع.. وفيما بينى وبين مضيفتى لابد من حديث آخر.. حديث عن الإنسان وكيف يخاف من الحيوان الأليف.. وأنا أعرف أن حديثى الجميل يعبر عن خوفٍ صغيرٍ وجميلٍ أيضا.

5

كليفيلاند كلينك: المكانة والمكان

كليفيلاند كلينك: المكانة والمكان

أحب أن أحدثك الآن ولبعض الوقت عن العمل فى مستشفى كليفيلاند كلينك الذى قضيت فيه شهرين زائراً لأقسام القلب والأوعية الدموية. والذى يعد من أحسن المستشفيات فى الولايات المتحدة.

إذاً فمن المنطقى أن أحدثك عن أحسن المستشفيات فى الولايات المتحدة. وأنت تدرك للوهلة الأولى أن هذا حديث صعب، لأنه يصعب عليك أن تميز بين القمم، ومع هذا لابد من التمييز، دعنى أذكرك بالمائة الأوائل فى الثانوية العامة ـ هل هناك فرق كبير بين الطالب الأول والطالب المائة؟ ربما ثمانية درجات أو ٢٪ فى المتوسط ولكن لابد أن يكون هناك أول المائة، ولهذا فإنك أحياناً ما تجد الأول فالثانى فالسابع لأن هناك خمسة يحتلون المركز الثانى.. كل منهم الثانى مكرر..

ولهذا يحتلون مراكز الثالث والرابع والخامس والسادس إضافة إلى المركز الثانى نفسه.

إذاً هذا الترتيب هو بمثابة البحث عن «أحسن الحلوين»..

وإذا كنا فى حياتنا كثيراً ما نقنع بأحد البدائل لا لشيء إلا لأنه أحسن الوحشين.. فإن أحسن الحلوين يصبح بالنسبة لنا مشكلة كبرى.

هناك بالطبع معايير كثيرة لتقييم المستشفيات، ولن تنتهى هذه المعايير، وبالطبع هناك جداول ومقاييس ومعايير موحدة و Scores لهذا فى كتب إدارة المستشفيات وتقييمها، ولكنى مع هذا سأحاول أن ألخص لك تقريراً عن أحسن مستشفيات أمريكا أعدته صحيفة أنباء الولايات المتحدة وتقريرالعالم (U.S. News & World Report)، وهى الجريدة التى لا تكاد توازيها عندى إلا الهيرالد تريبيون.

كان أسلوب الصحيفة فى إعداد هذا التقرير أنها سألت ٤٠٠ طبيب فى ١٢ تخصصاً وكانت إجابات الأطباء منصبة على ٥٧ مستشفى. وقد اختارت أكثر هذه المستشفيات تردداً فى اختيارات الأطباء ورتبتها على هذا النحو (الرقم المذكور يدل على عدد التخصصات التى حظيت بتقدير الاخصائيين).

- مستشفى مايو كلينك فى منيسوتا: ١١ تخصصاً.
- مستشفى جون هوبكنز فى بالتيمور: ١٠ تخصصات.
- مستشفى جامعة دوك - ولاية كارورلينا الشمالية: ٩ تخصصات.
- مستشفى مساشوستس - بوسطن: ٨ تخصصات.

- المركز الطبى لجامعة كاليفورنيا لوس أنجلس: ٨ تخصصات.
- المركز الطبى لجامعة واشنطن فى ولاية سياتل: ٧ تخصصات.
- مستشفى بارنيس - سان لويس: ٤ تخصصات.
- مستشفى كليفيلاند كلينك: ٤ تخصصات.
- المركز الطبى المشيخى فى كولومبيا - نيويورك: ٤ تخصصات.
- مستشفى جامعة ستانفورد، كالفورنيا: ٤ تخصصات.
- المركز الطبى لجامعة كاليفورنيا سان فرانسيسكو: ٤ تخصصات.

طبعا من الملاحظ أنهم سألوا ١٢ تخصصاً فقط، ولو سألوا تخصصات أكثر فلربما تغيرت النتيجة - ولكن، على كل حال، هذه فكرة سريعة وصادقة إلى حد بعيد.

❑

هل تحب أن أزيدك فى هذا المجال بعض الشيء فأنقل لك قائمة أحسن الحلوين فى تخصص القلب إذاً فهذا هو الترتيب:-

- مايو كلينك: ٧١٪ من الأصوات.
- مستشفى مساشوستس: ٧١٪ من الأصوات.
- كليفيلاند كلينك: ٥١٪ من الأصوات.
- مستشفى جامعة دوك: ٤٩٪ من الأصوات.

- مستشفى برجهام وومن: ٤٦٪ من الأصوات.
- مستشفى جين هوبكنز: ٣٧٪ من الأصوات.
- مستشفى جامعة ستانفورد: ٣٧٪ من الأصوات.
- مستشفى جامعة إيمورى: ٣٧٪ من الأصوات.
- مستشفى جامعة ألاباما: ٣١٪ من الأصوات.
- المركز الطبى المشيخى، كولومبيا بنيويورك: ٢٦٪ من الأصوات.
- المركز الطبى لجامعة بنسلفانيا: ٢٣٪ من الأصوات.

ها أنت ياسيدى قد أخذت فكرة عن المستشفيات - ولعلك ونحن بلد يفرق بين القطاع العام والقطاع الخاص وبين الجامعة ووزارة الصحة.. إلخ تدرك معى من الأسماء التى كتبتها كاملة أن كلا من مايو كلينك وكليفيلاند مؤسسات خاصة وليست بمستشفيات جامعية ولا حكومية وأن القائمة تضم ما نسميه فى بلادنا: مستشفيات جامعية ومستشفيات عامة كذلك.

❑

ساعد على ذيوع مركز كليفيلاند كلينك والشهرة العالمية التى حظى بها أنه شارك فى صياغة كثير من الإنجازات الرائعة التى شهدتها السنوات الأخيرة فقد شارك فى تطوير جراحات القلب والتصوير الصبغى لشرايين القلب، كما شارك فى تطوير جراحات سرطان الثدى والدرقية والقولون والأمعاء وكذلك فى زراعة الكلى والكلى الصناعية. وبالإضافة إلى هذا ساهم هذا المستشفى فى تحديث وتطوير الأعضاء الصناعية وبخاصة الوسائل المعينة للقلب (I.C.U) وفى زراعة القلب.

أما البحوث التى أجريت على الضغط وعلاقته بتصلب الشرايين فهى نموذج رائع للبحوث العلمية الدءوبة والمتكاملة والتى درست كثيراً جداً من العوامل والجوانب المتعلقة بالموضوع.. ويكفيك أن تطالع مثلاً قائمة عناوين البحوث التى نشرها اثنان من أساتذتنا المصريين الذين عملا فى هذا المستشفى منذ السبعينات وهما الدكتور روبير طرزى والدكتورة فطنة فؤاد لترى كيف عُنى قسم البحوث فى هذا الصرح الطبى العظيم عناية خاصة بهذا المرض.

وفى الطريق إلى المراجع الطبية وإلى استخداماتنا فى كثير من المستشفيات فى جميع أنحاء العالم نتائج التطبيق لأجهزة دراسات التصوير الصبغى للشرايين بالطرح الرقمى (Digital subtraction Angiography) وأجهزة الرنين المغناطيسى (Magnetic Resonance (MR) التى أصبح لأقسام الأشعة هنا خبرة واسعة بها منذ أتيح لأطباء هذا القسم العمل على الطرازات الأولى من هذه الأجهزة وتسخيرها لخدمة أغراض العلاج والتشخيص.

لا غرابة إذاً فى أن يستقبل هذا المستشفى كل عام ٦٣٠ ألف حالة فى العيادات الخارجية وأن يدخل هذا المستشفى للعلاج الداخلى ٣١ ألفاً كل عام.

ولا غرابة فى أن تتسع مظلة جنسيات هؤلاء المرضى لتغطى ٧٨ دولة خارج الولايات المتحدة.

ومن الطبيعى إذاً أن ينتبه الأمريكيون إلى إنشاء ما يسمى بالمركز الدولى فى هذا المستشفى لينظم ويساعد فى تنمية علاقات المرضى الأجانب بهذا المستشفى، ويضم هذا المركز مجموعة من المترجمين، يساعدهم وقتهم على أن يرافقوا المرضى من قسم إلى قسم، ويتابعوا لهم مواعيد الفحوص والعمليات.. إلخ، ولهذا

كانت كليفيلاند كلينك أول مؤسسة حظيت بأن أطلق عليها الكونجرس ووزارة الصحة والخدمات الإنسانية الأمريكية مصطلح «مركز قومى للاستشارات».. وهى جملة تعنى ما تعنى ولكنها ترتفع بالمركز من هاتيك المراكز إلى المكانة التى تحتلها فى القضاء محاكم النقض والإبرام.. أو المحاكم العليا كما يسمونها فى بعض البلاد.

أحب أن أنتهز الفرصة هنا لأذكر أن الدكتور محمد كامل حسين عليه رحمة الله حين كان يتحدث عن مستشفى قصر العينى (الجديد أيامها) منذ ستين عاماً يقول إن الهدف من تطوير القصر وتطوير التعليم والعلاج فيه أن يكون بمثابة محكمة عيا للحالات الصعبة.

المعنى واضح وإذا كان التشبيه بالقضاء لا يروق لك، فخذ مثلاً على ما أريد أن أقول بما يسمى فى فقه طائفة الشيعة بالمرجعية.

❑

تسألنى عن عدد الأطباء العاملين فى هذا المستشفى فأجيبك بأنهم لا يبلغون الخمسمائة فهم حوالى ٤٥٠ ولك أن تعجب من قلة عددهم بالمقارنة بعدد أطبائنا فى الجامعات أو وزارة الصحة.. ولكنى أعتقد أنك تقدر أن هؤلاء متفرغون تماماً للكلينك، غير مسموح لهم بأى عمل خارج الكلينك حتى الأطباء العاملون فى أقسام البحوث والتعليم.

وأريد أن أكون صادقاً معك حتى النهاية فأستثنى لك النواب الخمسمائة الذين يساعدون هؤلاء الأطباء فهؤلاء النواب هم الوحيدون الذين يستطيعون أن يختطفوا

من أوقاتهم المسائية يوماً أو اثنين فى الأسبوع يكونون خالين فيه من النوبتجيات ليعملوا فى النوبتجيات المسائية الساهرة فى المستشفيات الخاصة الصغيرة .. يسمون هذه النوبتجيات هنا بالعمل فى ضوء القمر Moon Light وهو تعبير جميل بلاشك .. ولكن الأجمل منه أنهم يتقاضون عن الساعة الواحدة حوالى ٣٥ ـ ٤٠ دولاراً ومع ذلك لا يعجبهم الحال .. مع أن هذه الساعة تفوق مرتب زميلهم المصرى فى شهر كامل!!...

ونعود إلى عدد الأطباء القليل فنجد أنه مسنود بعدد ضخم من الموظفين ـ يكفى لكى تأخذ فكرة عن الموظفين قبل أن أعطيك عددهم الكلى، أن أذكر لك أن لكل طبيب من أطباء القلب ممرضة خاصة، وسكرتيرة خاصة ـ تصور ٤٥ ممرضة و٤٥ سكرتيرة لأطباء القلب. دعك من ممرضات الرعاية والقثطرة والموجات فوق الصوتية، والأجنحة العادية، وسكرتيرات الاستقبال والمواعيد وتوزيع الحالات على الأطباء والعاملات على الكمبيوتر .. إلخ كل هؤلاء .. ألا يستلزم هذا كله أن يكون عدد العاملين فى المستشفى تسعة آلاف موظف وموظفة (بمتوسط ٢٠ لكل طبيب).

وتتيح المستشفى لنفسها الفرصة الكبرى من كفاءات النواب والباحثين حين تتيح الفرصة لتدريب ٥٠٣ نوّاب و١٣٤ زميل أبحاث و٢٣٩ من طلاب العلوم الصحية المتصلة بالطب و٤٢٦ طالباً (يقضون شهراً أو شهرين)، ست وستون منهم من طلاب الصف الثالث، وثلاثمائة وستون من طلاب الصف الرابع من مدارس الطب.

❑

هل تريد أن تكَّون فكرة عن أسعار العلاج فى هذا المستشفى ـ ربما يمكن لك أن

تكّون هذه الفكرة من أن سرير الرعاية المركزة يتكلف فى الليلة ألفاً وخمسمائة دولار تقريباً، أما السرير فى الحجرة العادية فيتكلف من ٥٧٥ إلى ٧٧٥ دولاراً فى الليلة الواحدة. أما القثطرة فتكلف المريض ثلاثة آلاف وخمسمائة دولار. وأما فحص الموجات فوق الصوتية فيكلف المريض ألفاً من الدولارات.

كيف يختار هؤلاء المتميزون متميزين آخرين جداً للعمل معهم؟

فى أثناء إقامتى كانت كليفيلاند كلينك بصدد اختيار رئيس جديد لقسم القلب، فقد بلغ الأستاذ شيلدون الستين وقد تولى رئاسة القسم منذ الستينات، وكان هناك فى المرحلة الأخيرة من الاختيار اثنان يمثلان أبرز المرشحين ولم يبلغا الأربعين بعد: أستاذ مساعد من ميتشجن وأستاذ من جامعة دك.. أما مرشح مايو كلينك فلم يلق القبول من اللجنة.. واللجنة مكونة من سبعة من كبار أطباء المستشفى من أقسام أخرى غير القلب.. واختيار رئيس قسم جديد ليس بالمهمة السهلة على الاطلاق، ففضلاً عن الحرص على اختيار الأفضل والأنسب تأتى مراعاة رغبات وفلسفات المرشحين فقد يطلب المرشح مثلاً خمسين مليوناً للأبحاث كل عام.. قد يرى أنه لا ينبغى لراتبه السنوى أن يقل عن رقم معين!! ... قد يرى زيادة عدد معامل القثطرة إلى النصف.. قد يرى مضاعفة أسرة الرعاية المركزة أو تعديلاً جذرياً فى خطط العلاج فيها.. إلخ.

ومثل هذه السياسات ترتبط تماماً ولابد أن ترتبط بالسياسات العامة الكبرى للمستشفى وموازنته.

هكذا فإن عملية اختيار مَنْ يتولى رئاسة القسم أصعب بكثير من أن تُشبه بالمخاض فحسب.

يكفى أن نذكر أن الطبيب العالمى الدكتور سون بكل عظمته لم يستمر فى موقعه وعمل تحت رئاسة شيلدون. وقد توفى سون منذ سنوات قليلة وسميت معامل القثطرة باسمه، ومازال كل مَنْ فى القسم يذكرونه ويذكرون فضله.. وقد التقيت برجل عظيم هو الأستاذ إيرل شيرى Earl Shirey كان أول من عمل مع سون فى القثطرة، وهو الآن يحمل لقب Resident Emeritus وله مكتب وأبحاث.

❑

ربما يكون السبب فى شهرة كليفيلاند فى مصر تميزها الشديد فى جراحات القلب المفتوح، وعلى الرغم من أننا حققنا كثيراً من النجاح فى كليات الطب وفى معهد القلب القومى فى إمبابة إلا أننا لانزال نفضل أن نعالج أنفسنا خارج مصر: غالباً فى كليفيلاند أو هيوستون تكساس فى الولايات المتحدة - وأحيانا أخرى فى لندن.

ومن حق القارىء علىَّ أن أتجرد الآن من مهنتى كطبيب قلب لأعترف له أنه سيأتى يوم قريب وقريب جداً يصبح فيه الذين يجرون جراحاتهم فى مصر فخورين بأنهم أجروها فى مصر، ولم يضطروا إلى اللجوء إلى الخارج، ذلك أن مراكزنا اليوم تتقدم بسرعة رهيبة فى هدوء، وتتغلب بعزيمة قوية، ونية صادقة على ما يصادفها من متاعب، والأهم من ذلك أن خبرة هذه المراكز فى مواجهة المصاعب تنمو فى بناء متكامل.. .. إلى حين تصل المهن الطبية المساعدة والموازنة فى مصر إلى النقطة المثالية للاتزان مع الخبرات الطبية والإمكانات المعملية... أدعو الله أن يُتاح لنا، أى لى ولجيلى، أن نشهد هذا اليوم عن قريب.

تجرى كيلفيلاند فى العام ثلاثين ألف عملية جراحية منها ٣٢٠٠ عملية جراحة

قلب، هذا الرقم يعطيك فكرة عن كليفيلاند وكيف أصبحت من أكبر مراكز جراحات القلب فى العالم.

وقد تولى الجراح الأشهر لوب رئيس قسم جراحة القلب فى الكلينيك رئاسة مجلس المديرين التنفيذيين فى المستشفى مؤخرا، ولهذا خلفه فى رئاسة قسم جراحة القلب الدكتور كروسكوف، ولايزال لوب يمارس جراحاته..

❑

ولمصر ثلاثة أقطاب بارزين فى كيفيلاند كلينيك سأحدثك عنهم بترتيب قدومهم إلى الكلينيك.. (وبالمناسبة هو نفسه ترتيب أقدمياتهم فى مصر..).

الدكتور فوزى اسطفانوس خريج عين شمس ١٩٦١ ـ عمل طبيباً بمستشفى صيدناوى حتى ١٩٦٧ حيث سافر انجلترا وحصل على زمالة التخدير من كلية الجراحين الملكية عام ١٩٧٠ فعمل شهراً فى هولندا ثم عمل منذ ١٩٧٠ وحتى الآن فى كليفيلاند كلينيك، ورأس قسم تخدير جراحة القلب والصدر منذ ١٩٧٦ وحتى ١٩٨٧، ومنذ يناير ١٩٨٧ أصبح رئيساً لأقسام التخدير فى مستشفى كليفيلاند كلينك ولكنه لايزال يحتفظ باهتمامه الشديد بتخصصه فى جراحات القلب والصدر حيث يمثل الرعيل الأول من أطباء التخدير الذين تخصصوا فى مثل هذا المجال وحولوه إلى شبه تخصص مستقل. وفى ١٩٨٨ تولى فوزى اسطفانوس تحرير كتاب «التخدير ومريض القلب» بالاشتراك مع ٥١ مؤلفاً.. ومن أطباء التخدير المصريين الأمريكيين الذين شاركوا فوزى اسطفانوس تحرير هذا الكتاب: عادل العتر فى فلوريدا، ورامز سالم فى شيكاغو، ونبيل فهمى فى هافارد، وعزت أبو العيش فى تكساس.

القطب الثاني: الدكتورة فطنة فؤاد، كانت أولى دفعتها فى قصر العينى ١٩٦٥ وحصلت على الدكتوراه فى الأمراض الباطنية ١٩٧٤ من جامعة القاهرة، ومنذ ١٩٧٦ وهى تعمل فى الكليفيلاند كلينك وتقود الدكتورة فطنة بحوثاً متقدمة فى مجال ضغط الدم، ووظائف القلب الانبساطية والانقباضية.

القطب الثالث: الدكتور محمد عبدالحميد تخرج فى كلية الهندسة ١٩٦٧ وكان من أوائل الذين وقع عليهم الاختيار فى مصر (الطموحة إلى التقدم دائماً) للعمل فى المجال الذى اصطلح على تسميته فيما بعد بالهندسة الطبية، وعمل فى معهد السمع والكلام بامبابة وابتعث إلى إنجلترا بعد ذلك حيث حصل على الدكتوراه Ph.D وفى ذلك العام قدم كليفيلاند ينتوى العمل لمدة عام ولكنه بقى حتى الآن لمدة أحد عشر عاماً.. ويرأس الدكتور محمد عبدالحميد معمل وظائف الاتزان فى قسم الأنف والأذن والحنجرة، وفى الوقت ذاته يقوم بدراسة الطب فى جامعة كيس ليجمع بذلك بين شهادتى Ph.D وM.D.

❑

أما فى جامعة كيس ويسترن فيبرز عدد من النجوم المصريين فى كثير من الكليات ولأنه لم يتح لى أن أتعرف عليهم جميعاً المعرفة التى تمكننى من الحديث عنهم فإنى سأعتذر عن ذلك توخياً للامانة إلى أن تتاح لى هذه الفرصة، وسأكتفى بأن أحدثك عن الدكتور عادل عبدالفتاح محمود رئيس قسم الباطنة فى كلية الطب وهو خريج طب القاهرة ١٩٦٣ وكان أحد الأقطاب البارزين فى الحركة الطلابية والشبابية، وهو الآن أحد الأقطاب البارزين أيضاً فى مجال الأمراض المعدية..

ويقود فرقاً للبحث فى كثير من المواقع، وهو الذى تولى كتابة الفصل الخاص بالبلهارسيا فى المرجع الطبى الكبير سيسل لوب.

ولابد أن أذكر لك كذلك بكل الخير قطبين بارزين من أطباء كليفيلاند الأحرار الذين يعملون خارج الجامعة أولهما الدكتور سيد حسنى وهو خريج طب الاسكندرية ١٩٥٦، وقد قدم كليفيلاند فى ١٩٧٠ حيث يمارس تخصص النساء والتوليد منذ ذلك الحين متمتعاً بسمعة طيبة وبنجاح مطرد، وبيته هو بيت المصريين فى كليفيلاند وزوجته السيدة نادية هى أم المصريين فى كليفيلاند، وثانيهما هو الدكتور محمد الملوانى وهو خريج طب القاهرة ١٩٦٧ وكان ثانى الدفعة وعمل نائباً لأمراض النساء والتوليد فمعيداً وهو اليوم من أبرز المتخصصين فى جراحات الليزر والمناظير.

❑

هل تسمح لى ياسيدى القارىء أن أعود بك الآن إلى أول صفحات كتبتها فى هذا الكتاب مصوراً على طريقة اليوميات ما صادفنى فى كليفيلاند كلينك!!

هذه ياسيدى هى يومياتى الحقيقية:-

يوم الاثنين: قبل أن تبلغ الساعة الثامنة كنت واقفاً أمام السكرتيرة الإيطالية فى المركز الدولى حيث كان علىّ أن أملأ استمارة تفيد قدومى، واستمارة أخرى من أجل التأمين الصحى، واستمارة ثالثة من أجل استخراج البادج الخاص بى. حتى تصل زميلتها سألتنى السكرتيرة أن أبقى بعض الوقت فى قاعة للمؤتمرات.

كى أستخرج البادج كان علىّ أن أسلك طريقاً محدداً ولا أقول طويلاً.

تأخذ مصعد مبنى الفندق الذى أنت فى الدور الرابع منه حتى الدور الأول من الفندق وتمضى إلى الخلف حتى الباب الخلفى للفندق تنتظر هناك أتوبيس المستشفى الأبيض الخاص الذى يحمل حرف A سوف ينقلك هذا الأتوبيس إلى المبنى المسمى «شوستر» ضمن المبانى الأخرى التى يمر بها هذا الأتوبيس.. وهذا الأتوبيس ليس وحده الذى يؤدى هذه الخدمة المجانية فى التنقل بالأطباء والمرضى والزائرين والعاملين بين أرجاء مستشفيات كليفيلاند والمرافق الأخرى المرتبطة بأقسام المستشفيات سواء الفنادق أو بيت الضيافة.. إلخ.

إذا وصلت إلى مبنى شوستر فعليك أن تأخذ المصعد إلى الدور A لأن الدور الذى يوازى الشارع هو الدور C وتحته طابقان A&B وفوقه طابقان D&E وعلى هذا النمط كل أبنية المستشفى فـ A لا يناظر A دائماً، والطابق الأول لا يناظر الطابق الأول دائماً.. ربما ناظر الدور الثالث فى هذا المبنى وربما ناظر الدور الثانى فى مبنى آخر.. وربما ناظر البدروم الأول أو البدروم الثانى وهكذا..

ولكنك مع ذلك كله لا تضطرب فى البحث عن هذه المستويات من المناظرات، بل لا تفكر فيها على الإطلاق..

بل إننى مع تقدم الوقت بى فى المستشفى اكتشفت (أو لكى أكون صادقاً: اكتشف مجموعة من أساتذتنا المصريين الذين زارونا) أننى أعرف بعض طرق المستشفى وتخاريمها Shor-Cut أحسن من بعض الذين يعملون هنا أكثر من ١٥ عاماً. الحق أن الوصول إلى هذا المستوى من المعرفة ليس معجزاً لأنك تجد التعليمات واضحة ومحددة واللافتات الدالة على ما أنت فيه، وعلى ما تريد، واضحة ومعبرة ومنتشرة مع كل خطوة تخطوها.

وحين تذهب لاستخراج البادج فإنك تملأ استمارة أخرى، وتوقع عليها، وتجلس أمام كاميرا، والكاميرا متصلة بالكمبيوتر، والسكرتيرة تأخذ اسمك وتكتبه على لوحة مفاتيح الحروف ، وفى الوقت نفسه توجه الكاميرا إليك لتلتقط صورتك، ويخرج لك البادج سريعاً من هذا الجهاز الذى يمكن وصفه بأنه الكاتب المصور المغلف والمحتفظ بالمعلومات فى ذات الوقت. ماذا يسمونه؟ لست أدرى!!

وفى التعليمات المكتوبة فى الورقة أن هذه العملية تأخذ من عشرين إلى خمس وأربعين دقيقة، ولكنها لم تأخذ معى أكثر من ثلاث دقائق.. أجد قلمى يريد أن يقول قل خمسة حتى لا تتهم بالمبالغة.

وتطلب السكرتيرة عشرة دولارات كتأمين لهذا البادج، وتخبرك التعليمات المكتوبة أن هذه الدولارات قد تضيع عليك إذا مارست هواية البشر فى الاحتفاظ بالبادج كذكرى. أما إذا أردت الدولارات العشرة فعليك أن تسلم البادج فى اليوم الأخير لوجودك فى ا لمستشفى.

وها أنا أعود من حيث أتيت إلى المركز الدولى فى الطابق الرابع من الفندق. فإذا مسئولة التأمين الصحى فى انتظارى لأملأ استمارة أخرى، ثم تعطينى ورقة بموعدى عند طبيب الأسنان فى الساعة الحادية عشرة والنصف عند الديسك S- 52، وكل اللقاءات على هذا النحو.. رقم للديسك يتكون من حرف أبجدى ورقم. والرقم يعنى رقم الدور من خانة العشرات، والحرف الأبجدى يدلك على المبنى.

إذاً فعندى وقت من الساعة التاسعة والنصف حتى الحادية عشرة والنصف أقضيه عند الدكتور جبران الذى سوف يكون من حظى أن أعمل معه هذا الأسبوع.

فلأذهب إلى 25 F. وهذا هو رقم الديسك الخاص بقسم القلب الذى سوف أعمل فيه.

إذاً فلابد أن أذهب إلى مبنى F وهو كما تقول الخريطة: المبنى الملاصق لمبنى الفندق.. إذاً فلا داعى للأتوبيس هكذا أفكر بصوت عال أمام السكرتيرة التى توافقنى وتقترح علىّ الذهاب عن طريق ما يسمى طريق السماء..

وطريق السماء هذا كوبرى مشاة طويل يبلغ طوله ٧٠٠ قدم وعرضه لا يقل عن ٥ أمتار، وهو زجاجى الجنبات مكيف الهواء، وبساطه المفروش من أفخم أنواع السجاد، وجدرانه من أروع الديكورات والزجاجيات.. ربما يمر بخاطرك ذلك الممر الضيق بين مبنيين للبنك الأهلى فى شارع شريف بالقاهرة، ولكن ذلك الممر القاهرى لا يمثل واحداً على المليون من جمال ولا جلال ولا كمال هذا الممر: «طريق السماء» الذى يربط مبانى مؤسسة كليفيلاند كلينك الطبية معاً.

وفى «طريق السماء» هذا مصاعد لكل مبنى - فإذا انتقلت من مبنى الفندق إلى المبنى F مثلاً.. فإنك لابد أن تنزل إلى الطابق الأول من الفندق وهو اللوبى وفى نهايته تصعد طابقاً لتكون فى مستوى طريق السماء الذى تمضى فيه حتى تصل إلى مصاعد المبنى F وهناك تطلب إلى المصعد أن يقف بك [لا تقل هنا يصعد أو يهبط، لأن الأمر كما قلنا يختلف من مبنى إلى مبنى حسب مستواها مع طريق السماء] عند الطابق الثانى مثلاً، وفى الطابق الثانى تبحث عن الديسك الذى أنت موجه إليه.

أما الدكتور جبران فقد بدأ المرور فى الرعاية المركزة هكذا جاءنى الرد بعد ما استدعوه بالبليب، ولن يفرغ إلا فى حدود الحادية عشرة والنصف ولكنى أنا الآخر

سأكون مشغولاً بدءاً من الساعة الحادية عشرة والنصف.. ويجيء رده مرة أخرى بعد الاتصال به بالبليب.. إذاً فلأذهب إليه بعدما أنتهى من كل ما يشغلنى.

وأمامى الان قرابة المائة دقيقة يتيحها الله لى لأبدأ كتابة هذا الذى كتبته عن كليفيلاند.

❑

هل يكون حديثى معك عن بعض التفصيلات فى مستشفى كليفيلاند كلينيك حديثاً ثقيل الظل بعض الشيء حين أحدثك عن المستشفى العظيم الذى أتيح لى أن أمضى فيه هذا الوقت المثمر.. نحن نقول دائماً بشيء من الفخر التعويضى إن أمريكا بلد بلا تاريخ أعرق ما فيه عمره مائتا عام.. نعم ياسيدى ولكن معظم ما فيه من رموز الحضارة الحديثة جداً أيضاً قد قارب عمره على المائة عام!! ونحن لا نزال بين يوم وآخر حين نريد أن نرفع من قدر شيء نلجأ إلى حقيقة واحدة أو إلى حيلة واحدة - لست أدرى - فنقول إن هذا هو أول مركز وأول معهد وأول برنامج وأول مؤتمر.. إلخ، إذاً فنحن فى بلاد العراقة معظم مؤسساتنا وإنجازاتنا لم يبلغ العام ولا الشهر، وهم فى بلاد الحداثة معظم مؤسساتهم قارب المائة عام.

نحن فى كليفيلاند، وفى كليفيلاند أكثر من جامعة.. هل تعرف هذه الجامعة التى تسمى جامعة كيس ويسترن ريسرف CWRU؟ والتى ننظر إلى مستشفياتها - نحن الذين فى كليفيلاند العظيمة - من علٍ!! هذه الجامعة ياسيدى بدأت عام ٢٤ - طبعاً تظن أنها بدأت بالكاد قبل جامعة القاهرة بعام واحد - نعم لك الحق ياسيدى إذا ظننت ذلك، ولكن من حقك علينا أن نقول لك إنها بدأت عام ١٨٢٤ وليس ١٩٢٤..

وكليفيلاند هذا الصرح الطبى أنشىء عام ١٩٢١ حين وجد ثلاثة من أساتذة هذه الجامعة أنهم سيتقاعدون بينما هم مازالوا يمارسون الطب.. فبدأوا بناء هذا المستشفى وانتهوا منه فى عام. وقد كان أجر العامل يوم بنوا هذا المستشفى دولاراً لكل ساعة، وفى تلك الأيام كان الغداء يتكلف ٢٠ سنتاً أى خمس دولار، وكان طابع البريد بسنتين اثنين فقط، وقد قام أول مبنى فى هذا المستشفى على مساحة ٧٦ قدماً × ١٢٠ قدماً واستخدم فى بنيانه حوالى ٤٨٠ ألف طوبة وقد عُهد بتصميمه إلى المهندس العظيم إلليربى Ellerbee وهو نفسه الذى تولى بناء مستشفى مايو كلينك العظيم من قبل.

أما اليوم فتقوم الكلينك على مساحة ١٠٥ هكتارات أى أكثر من ١٠٠ فدان وتضم عدداً من المبانى المتباينة تماماً فى ذوقها وبنائها ومعمارها، يبلغ عددها أكثر من ٣٠ مبنى ولكنها مرتبطة مع بعضها كما حدثتك من قبل بطريق السماء، وسأحاول أن أصور لك الأمر بشىء من التفصيل مع أن كل القريبين منى يجمعون على أنى أسوأ مَنْ يشرح!!.

أنت الآن فى شارع يوكليد، والذى يُفترض أن عنوان الكلينك عليه وهو رقم ٩٥٠٠ شارع يوكليد، ويوكليد هذا عالم يونانى. وأنت الآن قادم من وسط البلد.. ستجد إلى اليمين مبنىً قديماً له مدخل صغير على الشارع تكاد العين تخطئه اليوم.. نعم لأنه اليوم مدخل فرعى لقسم صغير هو مركز الأورام.. إذا دخلت من هذا الباب، وعبرت الطرقة الطويلة التى تمر عبر قسم الأورام هذا فإنك تجد نفسك فى مدخل استقبال فسيح (يكفى عليه وصف فسيح لأننا سنصادف بعد هذا مداخل فسيحة جداً: مدخل M ومداخل فسيحة جداً جداً: كمدخل مبنى F&G ومداخل أخرى

ليس إلى وصف فساحتها من سبيل: كمدخل مبنى A) هذا المدخل يمثل المدخل الحقيقى لأحد الأجنحة الثلاثة الضخمة التى تكون مع بعضها شكل حرف U الذى يتمثل معه المستشفى القديم تماماً.

أما الجناح الأيمن فهو الذى يضم المبانى التى تحمل حروف M,S&T .

وأما الجناح الذى يمثل قاعدة حرف U فيضم المبانى التى تحمل حروف A,G&F

وأما الجناح الأيسر فهو مبنى البحوث.

أما مبنى T فهو مخصص للعيادات الخارجية وأما المبنى الذى يحمل حرف S فهو الآخر للعيادات الخارجية.

والعيادات الخارجية مصطلح يعنى تلك الأجزاء من المستشفى التى لا تقتضى من المريض المبيت بالمستشفى، إنما هو يأتى إلى المستشفى يعالج أو يشخص من دون أن يبيت فيه، وفى هذا المبنى فى الدور الخامس مثلاً عيادات الأسنان، وفى الدور السادس من نفس المبنى القسم الذى يتولى تشخيص أمراض الجهاز الوعائى بواسطة الدوبلكس.

وأما حرف M فهو مستشفى فيه عنابر داخلية، ويضم أيضا مستشفى الطوارىء وفيه أيضاً عيادات الألم التابعة لقسم التخدير.

فيما بين حرف S وحرف M يوجد مبنى كامل للأغراض التعليمية اسمه مبنى التعليم Education وفى هذا المبنى قاعات عديدة للمؤتمرات وفيه المكتبة.. وتجتمع هذه المبانى الأربعة M,S&T والمبنى التعليمى على مدخل واحد جميل وُضعت فيه

الماكينات الخضراء التى تسمح لك بصرف أموالك التى فى البنوك ببطاقات الفيزا.. وفيه كافيتريا للوجبات السريعة.. وفيه خزينة للتأمينات والمستحقات، وفيه ماكينات بيع الصحف، وفيه أكشاك للاستعلامات، وأكشاك للدعاية لمشروعات التوعية الصحية المتنوعة كالحملة ضد السموم ـ أو ضد السرطان أو ضد الإيدز أو من أجل التغذية السليمة.. إلخ. وفيه مكتب للبريد.. كل هذا ياسيدى تجده فى المدخل الذى تبخل عليه عظمة كليفيلاند بكلمة فسيح جداً.

أكون مقصراً فى حق المبانى الأربعة إذا لم أقل لك إن لها مداخل أخرى فالمبنى T كما قلت لك له مدخل على شارع يوكليد نفسه وللمبنى التعليمى مدخل خلفى على الشارع الشرقى التسعين ، وإلى الجانب الآخر من الشارع تجد أحد الجراجات الكبرى بالمستشفى، ومبنى M وهو مبنى الطوارىء له مدخل هو الآخر على الشارع الشرقى التسعين.

هذه هى المبانى الأربعة التى تمثل الجناح الأيمن من الكتلة الكبرى من كليفيلاند كلينك... تصور نفسك قادماً معى من وسط البلد ماراً بشارع يوكليد حيث الباب الصغير الذى يطل به مبنى حرف T على شارع يوكليد، فإنك تجد قبل هذا المبنى عدداً من المبانى يطل على شارع يوكليد ولكنها لا تنتمى إلى كليفيلاند كلينك ـ ولكن ما وراء هذه المبانى مباشرة من مبانى هوما يهمنى أمرها.

تقع هذه المبانى الثلاثة فيما بين الشارع الشرقى التاسع والثمانين والشارع الشرقى التسعين اثنان منها جراجان.. أحدهما اسمه جراج الموظفين.. والثانى اسمه جراج التسعين، أما المبنى الثالث فهو مستشفى ويحمل حرف P. ها أنت ياسيدى تدرك الآن أنه لابد لمبنى p وللجراجات أن تتصل عبر الشارع التسعين

بكتلة المستشفى الأصلية من دون أن يعبر المرضى أو الموظفون أو الزوار الشارع.. نعم.. وهناك طريق شبيه بطريق السماء فوق الشارع التسعين الشرقى.

أعود معك إلى حرف U، ها أنت قدمت من شارع يوكليد سواء أقدمت بالسيارة أم على قدميك، ودخلت فى حرف U حيث النافورة التى تتوسطه والتى تمر حولها السيارات - وأنت الآن عرفت أنه فى الشمال يقوم مبنى البحوث وإلى اليمين المبانى الثلاثة M,S&T فماذا فى الواجهة؟

فى الواجهة ياسيدى ثلاثة مبانى أحدث عمراً من السابقة - تبدو لك كأنها مبنى واحد ولعلها كذلك.. مدخلها فسيح جداً جداً - وينضم إلى مدخلها جزء كبير من مساقط النور - ومساقط النور فى هذا المدخل مغطاة بالزجاج ولكن ليس من الطابق الأول وإنما من الطابق الثانى.. وإذن فلارتفاعها عظمة شاهقة تريح النفس وتبهرها فى الوقت ذاته والفكرة المعمارية فيها تقليد لفكرة العمارة الإسلامية فى مساقط النور الداخلية - والجلوس فى هذا المدخل الكبير متعة كبيرة: صالونات فخمة، وزهور جميلة وتليفزيونات ذات شاشات كبيرة الحجم، تكييف جميل، فاذا ما تجاوزت المدخل الفسيح جداً إلى عمق المدخل حيث مساقط النور المغطاة بالزجاج الجميل على هيئة هرم أو نصف هرم أحسست بالراحة التامة من هذا المعمار المريح.

أما مبنى F فهو مخصص للعيادات الخارجية ومكاتب الأطباء وأما مبنيا M&G فهما مخصصان للجراحات والرعاية المركزة والأقسام الداخلية للمرضى. وترتفع هذه المبانى أحد عشر دوراً.

تريد أن تسألنى عن بقية مبانى الكلينك. دعنا ننظر من علٍ كما لو كنا فى طائرة من فوق الكلينك كله لأصور لك الأمر كله تصويراً بسيطاً. إذا كانت مبانى المستشفى تطل على ميدان فسيح يطل على شارع يوكليد وإذا كان المستشفى يأخذ شكل حرف U وإذا كانت مبانى H&G وكذلك P بمحاذاتها تمثل قاعدة حرف U فعلام تطل هذه القاعدة من الجانب الخلفى؟ إنها تطل ياسيدى على شارع عظيم لا يقل اتساعاً عن شارع يوكليد وهو مسمى باسم رجل عظيم آخر هو كارنيجى. أنت الآن ستدرك بذكائك، أنه لابد وأن هناك امتداداً لكيفيلاند كلينيك بعد شارع كارنيجى، نعم ياسيدى هناك مبنى ضخم جداً جداً هو مبنى حرف L وهو المخصص للمعامل.. وفيه جزء كبير شبه مستقل مخصص لأجهزة الرنين المغناطيسى وقد صُمم معمار هذا المبنى بحيث لا يسمح للتأثيرات المغناطيسية فى خارج المبنى أن تؤثر على الأجهزة العاملة فيه، وقد كان هذا هو الاعتقاد فيما مضى، أما بعد التطوير التكنولوجى فقد أمكن التغلب على هذه الصعوبة.

طبعاً ياسيدى لابد من «طريق السماء» كى يعبر فوق شارع كارنيجى ليصل المعامل بمبانى المرضى H&G وببقية كتلة المستشفى.

حين أكون واقفاً فى حجرات المرضى فى الرعاية المركزة فى مبنى G فإننى أطل على شارع كارنيجى من هذه الحجرات. وشارع كارنيجى هذا من حيث المرور يطبق قاعدة مهمة فهو فى ساعات الذروة من يوم الإثنين وحتى الجمعة من الرابعة وحتى السادسة والنصف يكون اتجاهاً واحداً فقط ناحية الشرق، وفيما عدا ذلك فهو اتجاهان.

❑

لك ياسيدى أن تتجاوز كل هذه الفقرات التى أكتبها فى وصف المبانى والخرائط.

وتستغفر لى ولنفسك عن اللحظة التى فرضتَ فيها على نفسك أن تقرأ هذا الكتاب المملـ ولكننى لن أسامح نفسى إذا أهملت وصف المبانى والشوارع والمرور- وأهملت من هذه الحضارة إنجازاتها الرائعة، وتنظيمها الدقيق، وتغلبها على كل المشكلات التى تصاحب النمو المتراكم والاتساع المدروس عبر السنوات.

أريد أن أقول ياسيدى إن هذه المبانى التى أحدثك عنها مبعثرة أكثر من بعثرة مبانى طب عين شمس التى تظنها «متبعثرة» بين مستشفى عين شمس التخصصى على يمين شارع الخليفة المأمون.. ومستشفى عين شمس القديم على شمال شارع رمسيس، ومستشفى الدمرداش من أمامه، ومستشفى النساء الجديد المطل على شارع أحمد لطفى السيد، ومستشفى الأطفال الذى كان من قبل مستشفى للنساء وللأطفال، ومركز الطب النفسى فى عرب المحمدى، ومبانى الكلية والمدرجات والأكاديمى خلف مسجد النور.

وكليفيلاند كلينيك مبعثرة أكثر من بعثرة مستشفيات قصر العينى القديم، والجديد، وأبو الريش، واليابانى، ومستشفى الباطنة، والمدرجات، ومبنى الأكاديمى، ومستشفى النساء... إلخ.

ولكنهم ياسيدى أكثر منا قدرة على الربط والتوحيد، وتحويل الأنغام المتفاوتة والضربات المختلفة اللون إلى سيمفونية واحدة.. وهذه صورة من صور موسيقى الإدارة والتخطيط ياسيدى.

ولا يتأتى هذا الربط والتنظيم إلا من خلال:

- خرائط واضحة.

- ❑ مسميات لا لبس فيها ولا تكرار، تعتمد على الحروف، والأرقام، والاختصارات لا على الأسماء الطويلة، أو الرنانة، أو المكررة.

- ❑ لوحات إرشادية مبعثرة فى كل مكان.

- ❑ معمار جميل يبتدع أشياء من قبيل ما يسمى بطريق السماء.

  - وهو طريق مقفول لا مدخل له إلا من هذه المبانى.

  - عال لا يشغل الأرض.

  - لا يقطعه المرور ولا يقطع هو المرور.

  - جدرانه من الزجاج تجعله واضحاً وتجعل السالك فيه مهتدياً تماماً إلى المواقع التى من أمامه ومن خلفه و التى عن يمينه وعن شماله.

  - مزدوج الفائدة إذ تتم فيه أيضا برامج تأهيل المرضى بالمشى بعد العمليات الجراحية الكبرى.

❑

وأعود بك ياسيدى إلى مبنى المعامل لأذكر أنه يحتل الكتلة الكاملة التى بين الشارعين الشرقيين الثالث والتسعين، والسادس والتسعين فكأنما الشارعان الرابع والتسعون والخامس والتسعون جزء من كتلته لو كان لهذه الكتلة أن تنقسم على نحو ما تقسمت فى مواضع أخرى من المدينة.

وها أنت تدرك الآن أننى لا أذكر لك الشارع السادس والتسعين إلا لأحدثك عن مبنى جديد يطل عليه.. نعم ياسيدى هناك مبنى للبحوث يطل عليه.

إذاً وعلام يطل مبنى البحوث الجديد هذا، ومبنى المعامل من ناحيتهما الأخرى.. إذا كانا يطلان بواجهتيهما على شارع كارنيجى فإنهما يطلان من الناحية الأخرى على شارع سيدار. وهو شارع ثالث مواز لكارنيجى ويوكليد.

ياالله.. هل رأيت إلى الآن كيف تمتد هذه المستعمرة لتطل على ثلاثة شوارع رئيسية كبرى من التى تعبر كليفيلاند من شرقها إلى غربها.. وسيأتى ذكر الرابع والخامس فيما بعد.

لم يعد أمامنا كثير.. فها نحن الآن فى الشارع الشرقى السادس والتسعين الذى تستطيع أن تصفه بأنه الشارع العرضى الذى ينصف المستشفى تماماً أو هكذا يبدو لك فى الخريطة وفى الواقع..

أنت الآن تدرك أيضاً لماذا يطلق على المستشفى رقم ٩٥٠٠ يوكليد لأنها ياسيدى (أو لأن بابها القديم) كان على شارع يوكليد فى المربع الذى بين الشارعين الشرقيين ٩٥ و ٩٦ وهكذا تستحق رقم ٩٥٠٠.

لعلى أنتهز الفرصة هنا لأشرح للقارىء أن الأرقام الضخمة التى يجدونها للبيت فى الشوارع ليست ذات دلالة على أن فى هذا الشارع ٩٥٠٠ بيت مثلاً أو نصف هذا العدد، وأحياناً ما تصل الأرقام إلى خمس خانات وليس معنى هذا أن البيوت فى الشارع (أو الطريق) تصل إلى تسعة وتسعين ألفاً.. ولكن المسألة فى منتهى البساطة أنهم يتركون خانتى الآحاد والعشرات للبيوت التى فى المربع حتى ولو كانت بيتاً واحداً.. لماذا ياسيدى يفعلون هذا، الإجابة: حتى يسهل التعرف على موقع البيت فى الشارع الطويل بموقع الشوارع العرضية فأنت فى منتهى السهولة تستطيع أن تدرك أن ٩٥١٠ شارع كارنيجى يكون موازياً لـ ٩٥١٠ شارع يوكليد.. وهكذا.

دعنى لا أترك هذه النقطة الا بعد أن أذكر لك أن مؤدى هذا أن كثيراً من الشوارع لن تبدأ أرقامها من رقم ١ ولا حتى من رقم ١٠١ . وخذ على سبيل المثال الشارع الذى كنت أسكن فيه إنه يبدأ برقم ٢١٠٣ ومعنى هذا أن حدوده على الخريطة لاتبدأ إلا عند الشارع الشرقى الواحد والعشرين وهكذا.

وفى أمريكا تجد الشوارع التى تمضى من الشمال إلى الجنوب تحمل أرقاما، أما الشوارع التى تمضى من الشرق إلى الغرب فتحمل أسماء.

وفى مدينة واشنطن تحمل شوارع الشرق إلى الغرب حروفاً بالإضافة إلى الأسماء.

لم أجد هذا الشرح مكتوباً فى كتاب ولكنى أجهدت نفسى حتى استنتجت، ولم أحصل على اعتماد رسمى له بعد... ولكنى مع هذا أحب إن أقول لك إن بوسعك الاعتماد على هذه المعلومات.

❑

أعود بك ياسيدى إلى الشارع السادس والتسعين حيث يفتح الفندق الخاص بالكلينك أبوابه على الشارع.. وفوق هذا الشارع يمر طريق السماء.. وعلى هذا الشارع نوافذ عديدة لمبنى البحوث ومبنى F ومبنى G ومبنى L ومبنى للبحوث غير ذلك المبنى المتصل بالمستشفى F وهو مبنى البحوث الثانى الذى يطل على شارعى سيدار والسادس والتسعين.

على هذا الشارع أيضاً يطل مبنى كبير ومهم جداً لا يقدر قيمته غير المصرى الذى يذهب القاهرة من حين إلى آخر فيرى الجراچات متعددة الأدوار ويشكر للحكومة جهدها فى بنائها.

هذا هو الجراج الثانى من جراجات المستشفى واسمه جراج شارع يوكليد يطل من الشمال على يوكليد ومن الشرق على السادس والتسعين ومن الغرب على مدخل المستشفى بحيث يكون على يدك اليسرى وأنت داخل المستشفى مقابلاً لمبانى T&S ومحاذياً لمبنى البحوث المتصل بالمستشفى F. وبين مبانى شارع يوكليد طريق صغير اسمه طريق الكلينك تمر به كل السيارات التى تريد أن تأتى من كارنيجى إلى باب المستشفى.

يحتل الفندق (وكذلك مبنى البحوث الثانى المطل من بعد على سيدار) مربعاً يمتد ما بين الشارع السادس والتسعين والشارع المائة.

وفيما بين الشارع الشرقى المائة والشارع الشرقى الثانى بعد المائة هناك الهرم الضخم أقصد المبنى الجديد ذا الأدوار الخمسة عشر على هيئة الهرم وهو المبنى الذى افتتح عام خمسة وثمانين.. إنه مبنى A، وكل هذا المبنى مخصص للعيادات الخارجية.. والعيادات الخارجية هنا تتسع لتشمل كثيراً مما نسميه فى الطب بالــprocedure أو العمليات التى يقوم بها الأطباء الباطنيون كالمناظير مثلاً - وكذلك القثطرة فى القلب، ولو أن القثطرة هنا مرتبطة بمبنى المستشفى نفسه لارتباطها الآن بكثير من الجراحات.

وفى الحقيقة إننا فى مجال الطب فى البلاد المتكلمة بالعربية لم نحدد حتى الآن كلمة لمثل هذه العمليات Procedure مع أنه تصدق عليها كلمة عمليات بالفعل، ولهذا فإنه يمكننا أن نقول عنها العمليات فحسب، ونخصص كلمة الجراحات للعمليات الجراحية.. ويصبح الفرق واضحا بين الـ Procedure الـــ Operation أو بين العمليات والجراحات. إلا أن هذا الذى أقترحه الآن فى هذه الفقرة لم يجد مكاناً على أرض

الواقع بعد، ربما يأخذ أساتذتى وزملائى بما أرى. ولكن من الصعب (خاننى القلم - أريد أن أقول وليس من الصعب) أن يتفهم الجمهور فى المستقبل ذلك الفرق حين يرى بعض اللافتات وقد كتب عليها حجرة العمليات، ولافتات أخرى وقد كُتب عليها حجرة الجراحات.. فأنا من الذين يحسنون الظن بالجمهور إلى أبعد الحدود.

وأذكر أننى كنت من الحريصين دائماً على لفت الأنظار (بل والتغيير باليد فى كثير من الأحيان) فيما يتعلق بتسمية الأمراض الباطنة، كانت كشوف أقسام الكليات ووزارة الصحة تسميها الباطنية، وكنت لا أترك فرصة التنبيه إلى ذلك حتى مع الموظفين الذين يكتبون الكشوف فى الكليات المختلفة، حين كنت أتولى إصدار كتابى المتضمن دليل الخبرات الطبية، لا أزعم أننى صاحب دور كبير فى هذا التصحيح، ولكنى أستطيع أن أؤكد أن أحداً من حوالى خمسين نبهتهم إلى هذا لم يستجب إلى ما طلبته إليه، وهذه نسبة عالية جداً من الإيجابية التى يتمتع بها شعبنا العظيم العريق.

ومن الطريف أن واحداً من أساتذتى الأفاضل قال لى مازحاً: الله يفتح عليك، ريحتنا من سيرة «الباطنية» بكل ما فيها من موبقات.. يقصد السمعة التى يتمتع بها حى الباطنية فى تسويق المخدرات.

وقد أفدت بالطبع من هذه اللمحة فى إقناع الآخرين والدفع إلى أن يربأوا بأنفسهم عن هذه السبة!

❑

إلى الجنوب من مبنى A نجد الجراج الثالث واسمه جراج الشارع المائة.. يطل

على شارع كارنيجى بواجهته البحرية ويطل بواجهته القبلية على شارع ولبر وهو شارع طولى آخر يقع بين كارنيجى وسيدار. ولا يبدأ إلا بعد الشارع المائة.. فيما بين كارنيجى و وليبر وإلى الشرق من چراچ الشارع المائة نجد مبنى E وهو مبنى مستشفيات.

وفيما بين كارنيجى ويوكليد وإلى الشرق من مبنى A الضخم نجد ثلاثة مبان متتالية: مبنى الغسيل الكلوى ويحمل حرف D وبعده مبنى يحمل اسم يوتر ميللين ثم مركز حصوات الكلى، الأولان فيما بين ١٠٢ و ١٠٥ والأخير إلى الشرق من ١٠٥.

إلى هنا ياسيدى تنتهى كل مستعمرة الكلينك التى على يمينك وأنت قادم فى يوكليد من غرب المدينة ومن وسطها - إلى شرقها. كل هذا على يمينك وكل هذا وحتى مبنى A متصل بطريق السماء بالإضافة إلى الأتوبيسات الخاصة التى تنتقل بين مبانى المستشفى.

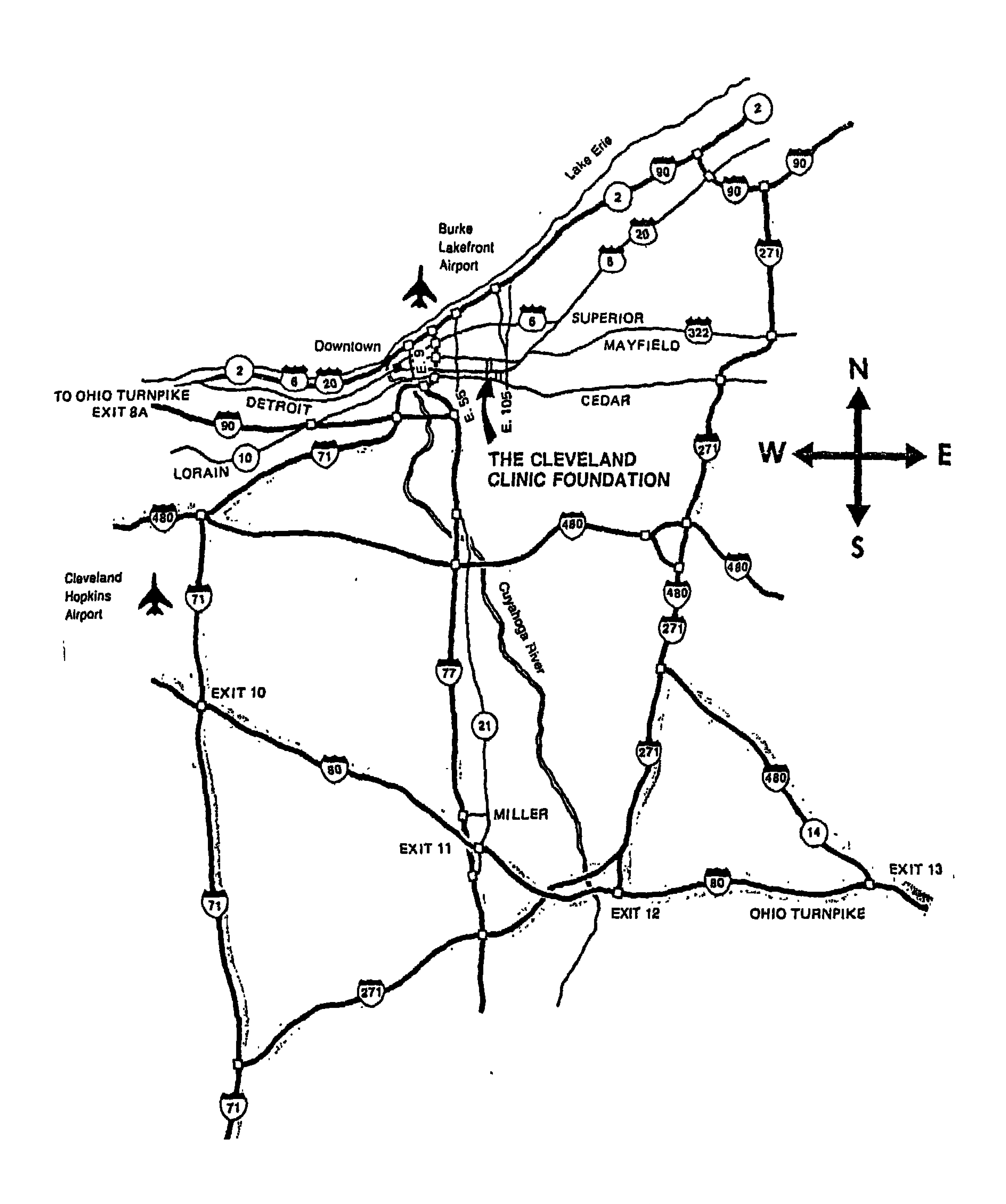
ماذا عن اليسار؟ ما هى المبانى التى إلى يسارك وأنت قادم من وسط المدينة فى يوكليد.

هناك إلى الغرب وقبل أن تصل إلى أول باب للمستشفى على يوكليد.. هناك وقبل الشارع التاسع والثمانين تجد مبنى من مبانى المستشفى يحوى عدة مراكز ويحمل حرف U وهو يقع ما بين يوكليد إلى الجنوب وشيستر إلى الشمال، وفيما بين التاسع والثمانين والتسعين هناك متحف كليفيلاند للوعى الصحى، وفيما بين الشارعين التسعين والثالث والتسعين تجد مساحة كبيرة من الأرض الفضاء ولافتة ضخمة تحمل

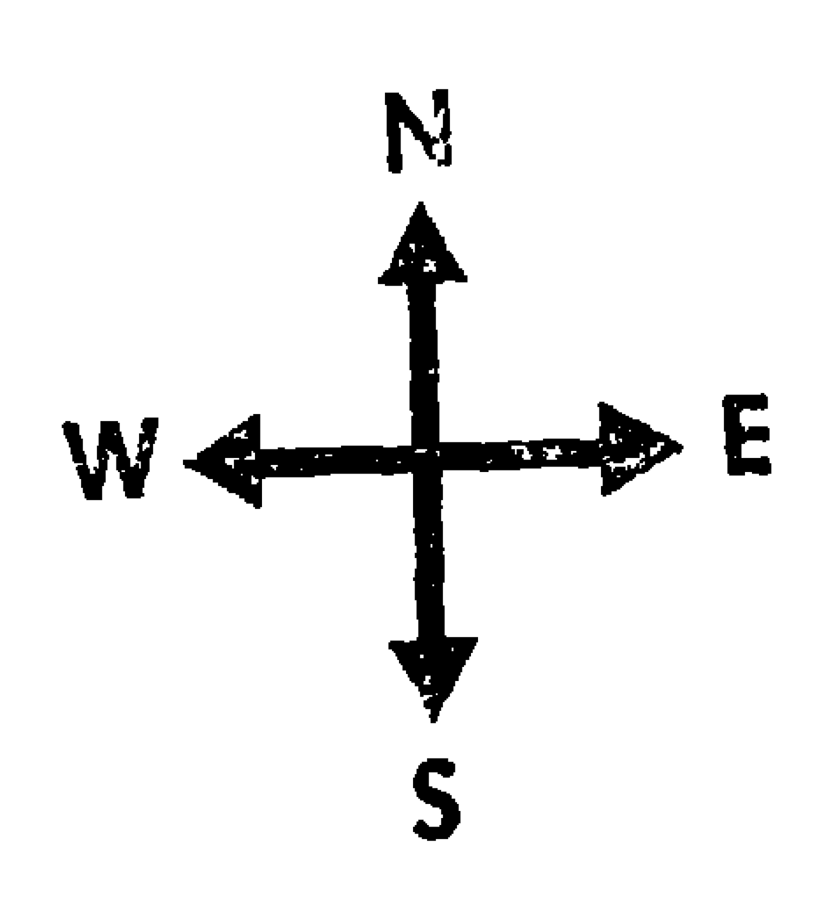
عنوان برج الكلينك لا أدرى هل سيقوم فيها هرم جديد ضخم ولكنى أعتقد أنه لابد من ذلك ربما بعد ٢٠٠٠ مباشرة!!

وفيما بين الثالث والسابع والتسعين يقع بيت الضيافة الخاص بالكلينك.

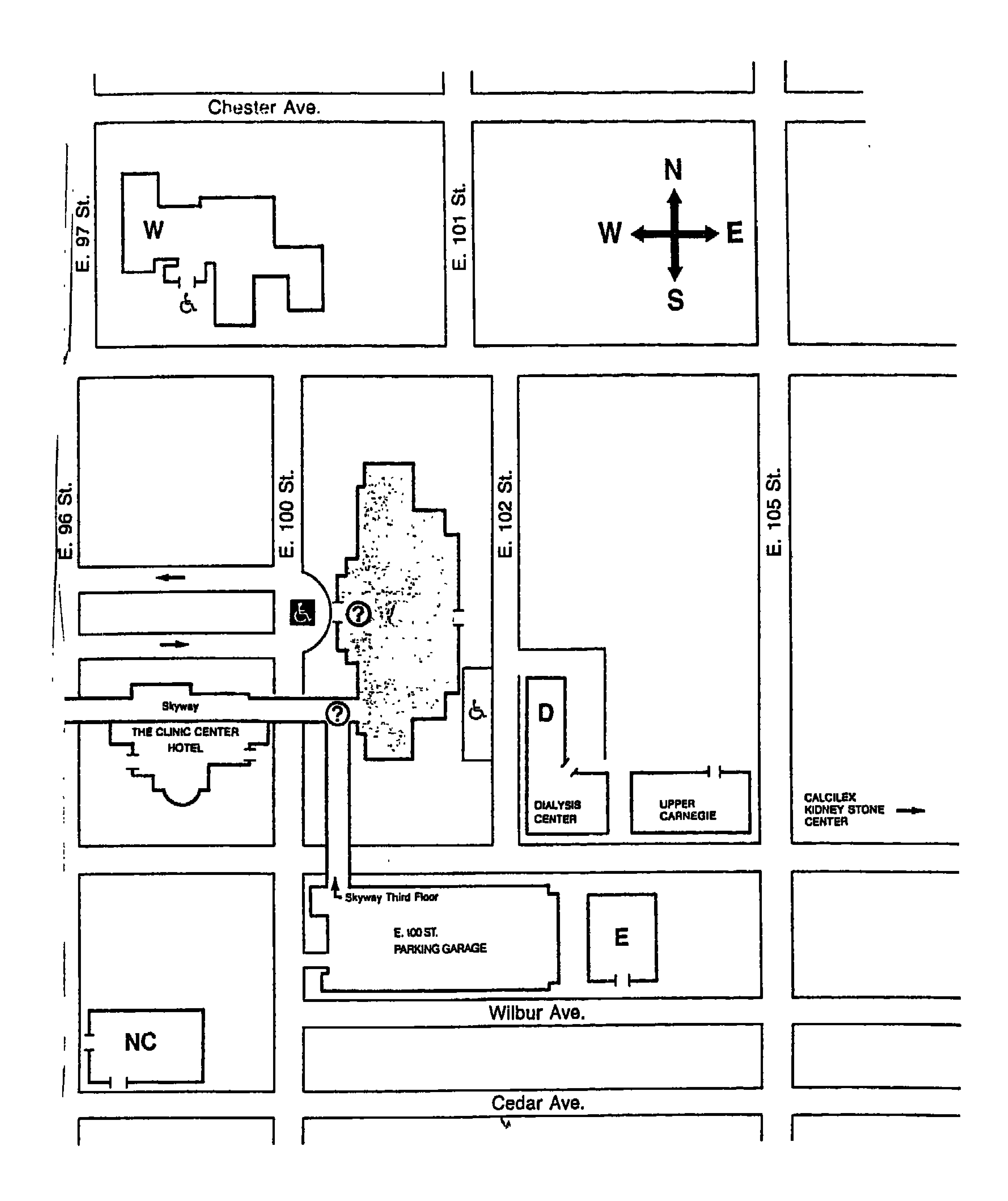
وفيما بين السابع والتسعين والأول بعد المائة مبنى W وهو مركز شيستر للمؤتمرات.. وهو المبنى الذى نحصل منه على البادج الذى نمرره من ظهره فى الأبواب فتنفتح، وفى عوائق الجراچات فترتفع ، ونمضى به فى طرقات المستشفى وحجراته فيعرفنا زملاؤنا ويعرفون كل ما يحبون عن تخصصاتنا ووظيفتنا ومكانتنا.



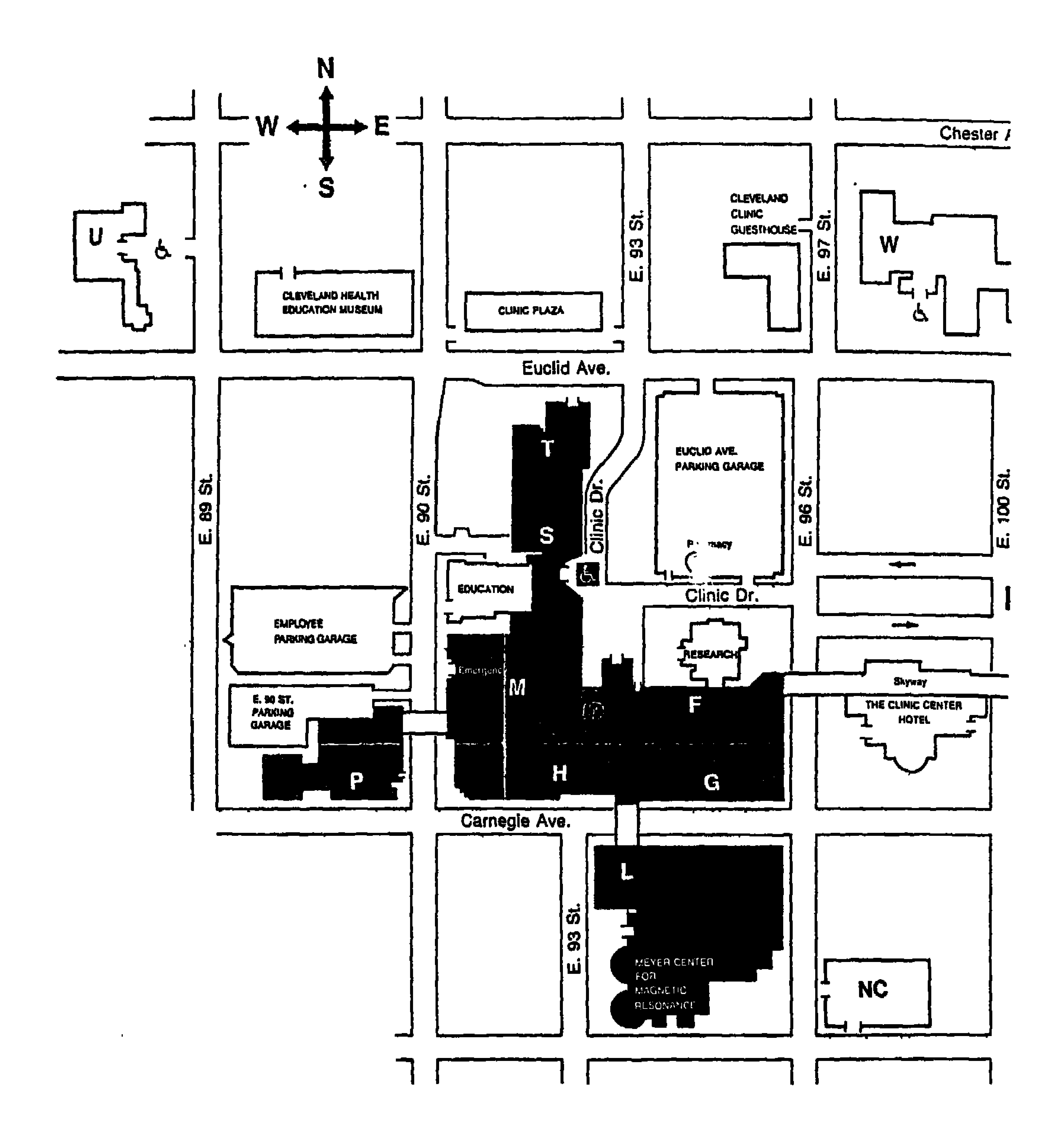
خريطة الطريق إلي كليفيلاند كلينيك



صورة مكبرة لموقع كليفيلاند كلينيك والشوارع الطولية والعرضية



خريطة المواقع المختلفة



في كليفلاند كلينيك

6

في قسم القلب بكليفيلاند

في قسم القلب بكليفيلاند

أحب أن أصور لك بعضاً من الطب الأكلينكى فى مجال القلب (Clinical Cardiology) وكيف يمارس الأطباء الأمريكيون الطب على الرغم من انغماسهم إلى آذانهم وربما إلى أعلى من آذانهم فى الطرق الحديثة للتشخيص (الدراسات الكهربائية الفسيولوجية، أو الدراسات غير النافذة بالموجات فوق الصوتية، والطب النووى، والرنين المغناطيسى، أو بدراسات رسم القلب بالمجهود أو رسم القلب الدينامى فضلاً عن دراسات القثطرة وتصوير الأوعية) .

سأجلسك معى عند واحد من هؤلاء الأطباء الذين ينتمون إلى هيئة الأطباء Cardiology Staff بعد أن انتهى من أداء واجبات معمل القثطرة .

هذه هى أولى المرضى، وهى سيدة فى الرابعة والستين من عمرها نطالع فى ملفها المتضخم تقريراً مطولاً بنتيجة الفحص الإكلينيكى الذى أجرى لها، والفاحص

(أو الفاحصة) ليس معنا ولا أمامنا وكأننا إذاً فيما نسميه فى امتحان الدكتوراه المصرية بالحالة المطولة التى يفحصها الفاحص (طالب الدكتوراه) ويكتب كل شيء عنها ويمضى لحال سبيله، من دون أن يحضر أمام الممتحن!

تقرير الفحص أكثر من ممتاز: دقيق، وشامل، ومنظم، وقد استطاع الفاحص أن يستقصى كل شيء تقريباً حتى تاريخ العائلة كله بدءاً من الأم والأب والأخوات.. إلى الجدود إلخ. وكيف انتقلوا إلى العالم الآخر.

بعد كل هذا الوصف الذى قدمته لك فيما يتعلق بالفحص: صدق أو لا تصدق أن الذى يتولى هذا الفحص ممرضة (أو ممرض) على مستوى عال من الكفاءة والتمرين والدراسات العليا بعد فترة نيابة متصلة متواصلة بعد التخرج مما يوازى كلية التمريض عندنا.

هذه هى الأشعة وهذا هو ما نسميه «**ظل العملة**»، وقد وضح فى صورة رئة هذه السيدة، وهو قد يوحى لنا أن هناك شيئاً سرطانياً مثلاً قد أصاب هذه الرئة.. وبخاصة أنها مدخنة لم تتوقف عن التدخين، وأن أشعتها منذ ٤ سنوات لم تكشف عن هذا الظل. السيدة لم تأت إلينا لهذا السبب بالطبع وإنما جاءت تشكو سرعة ضربات قلب، ورسم القلب ينبىء عن أنها مصابة بالرجفان الأذينى Atrial Flutter وهى حالة علاجها سهل وميسور ولكنه سيدوم معها لفترة طويلة. واجتماع هذه الحالة مع شيء فى الرئة لابد أن يجعلنا نبحث عن الطبقة البطانية من القلب وهل أصابها ارتشاح أم لا. وفيما عدا هذا فليس هناك ما تشكو منه السيدة سوى أنها تظن أن هذه الضربات قد تكون نتيجة لحالة الضيق التى اعترت أحد شرايينها التاجية من قبل واستدعت توسيعه بالبالون ـ وقد أودعت فى ملفها صور شرايينها قبل

التوسيع وبعده بما ينبىء أن عملية التوسيع بالبالون قد نجحت. ويضم ملف هذه السيدة مالا يقل عن مائتى صفحة. وليس فى تحليلاتها الحديثة إلا زيادة فى نسبة Alkaline Phosphatase وهى زيادة يمكن التعويل عليها فى ترجيح احتمال وجود إصابة ورمية ما.

وبعد فحص إكلينكى كامل يضع الطبيب قراره أمام مريضته:

- لابد من إجراء أشعة مقطعية على الصدر. ولابد من إجراء تحليل الدرن. ويقوم الطبيب بنفسه إلى سكرتارية العيادة الخارجية للتوصية على تنسيق هذه المواعيد فى الغد، ثم يعود إلى مريضته بالمواعيد بعد أن تحددت !!
- لابد من إجراء تحليل للغدة الدرقية رغم أن الفحص الإكلينيكى قد أظهر سلامتها ولكن لا بأس من الاطمئنان..
- فيما يتعلق بعملية التوسيع وتقييم مدى نجاحها لابد من إجراء اختبار رسم قلب بالمجهود بعد الفراغ من التحليلات السابقة.. وفى الوقت ذاته لابد من فحص القلب بالموجات فوق الصوتية !!
- لابد من أن يتولى طبيب صدر فحص الصدر وأشعته ونتائج الأشعة المقطعية.
- لابد من إيقاف التدخين، ولابد من فحص الثدى كل عامين، ومن المرور على طبيب أمراض النساء والولادة كل عامين.
- هذا هو «الديجوكسين» وهذه هى جرعته!

❑

الحالة الثانية رجل قارب الثمانين تصحبه زوجته، يفاجئة ظلام أمام عينيه

Syncope حيناً بعد حين. له آراؤه الذاتية فى الطب والأدوية .. الطبيب يحترم آراءه من دون أن يسلم بصحتها، والمريض معتز بآرائه .. والطبيب يكرر احترامها ثم يلفت نظره إلى أنها لاتعدو أن تكون آراء شخصية. وسوف نجرى لك ياسيدى الفحوص الكفيلة بأن تكتشف سبب هذا الذى يحدث لك، وإذا استدعى الأمر علاجاً فى المستشفى كمريض داخلى فسوف نخبرك، ولك وحدك مسئولية اتخاذ القرار... قد تحتاج إجراء دراسات كهروفسيولوجية قد تقتضى أسبوعين من البقاء فى المستشفى، ونحن نعرف أنك لا تريد ذلك ولكننا سنرى فى الغد فى معمل القثطرة ما هو القرار الأمثل لحالتك..

وهذا المريض لا يقل إرهاقاً لطبيبه عن أى مريض من مرضى الشرقية الذين يقتلون الدكتور لطفى شهوان كل ظهيرة وكل مساء.. والصعوبة فى هؤلاء المرضى ياسيدى القارىء، وأرجو ألا تكون منهم، أنهم يريدونك أن تؤمن بما يقولون من تفسيرات، لأنهم يرونك تؤمن على ما يروون من أعراض! وشتان بين الحالين! ثم إنك إذا جاريتهم من باب أدب الاستماع إلى محدثك للنهاية أصبحت فى نظرهم لا مجرد مؤمن فحسب على كلامهم، ولا مجرد مؤمن بكلامهم، وإنما أصبحت، بحكم هذا الإيمان الظاهرى الذى يتوهمونه قد أصابك، واحداً من الأتباع الذين عليهم طاعة مَنْ يؤمنون به!!

ربما كان من الصعب عليك يا سيدى القارىء أن تتصور أن هذا يحدث، ولكن الأطباء الممارسين يعرفون أن الذى يحدث ليس إلا الصورة المكبرة من هذا التصوير اللطيف الذى يكتبه واحد منهم فى ساعة صفاء وتأمل ورضاء نفسى.

لابد من الوقوف واستئذان هذا المريض وزوجته.. والطبيب يقف ولكنى غير

قادر لأنى أعرف أن مثل هذا المريض سيوقف الطبيب بعد كل هذا مرة أخرى وأنا لست غير قادر على الوقوف أثناء هذا الاستيقاف ولن أنهض من كرسىَّ حتى يفتح الطبيب باب الحجرة بيده اليسرى ويمد قدمه اليمنى إلى خارجها.. وأقول لك: إننى كنت على حق لأن مد يد الطبيب اليسرى إلى الباب لم يحدث إلا بعد عشر دقائق ومد قدمه اليمنى إلى خارج الحجرة لم يحدث إلا بعد عشر دقائق أخرى.. وكانت الدقائق العشرون بالطبع كافية لإصابتى أنا الصائم المعانى من آثار التخدير فى الضحى بإغماء حقيقى لا مجرد هذا الذى يشكو منه مريضنا فى بعض أحيان متفرقة.

□

المريض الثالث رجل وسيم ضخم البنية، يقدمنى إليه الطبيب فإذا به يعرفنى تماماً، ويقول لنا إنه رآنى من قبل حين كان بأعلى Up stairs .... نعم أنا أعرف وجه هذا الرجل، وقد تذكرته من أول نظرة، ولكنى أحسبه أحد الذين حضرت قثطرتهم.. والقثطرة تجرى فى نفس الدور أى الدور الثانى.. كيف يقول هذا الرجل «بأعلى»؟. أهو لا يعرف الأدوار!! ولكنى سرعان ما انتبه إلى الرجل وهو يسألنى: كم يتبقى من رمضان ياسيدى!! ياالله!! الرجل يعرف أننا فى رمضان و أننى صائم فى رمضان.. هذا لا يتاح لمريض القثطرة الذى ندخله وندخل إليه على عجل بعيداً عن كل طعام وشراب.. الآن فقط: تذكرت.. هذا المريض زرناه بعد عملية توسيع الشرايين وكان فى الدور السابع.. أصاب المريض، وأخطأ الطبيب الذى يحسن الناس فى كل مكان الظن بذاكرته الحديدية.. بينما هى قد علاها الصدأ، وعلاها الصدأ تعبير متفائل بديل عن التعبير الأكثر صواباً وهو أنهكها الصدأ كما ينهك الحديد.. وليت ذاكرتى كانت خشبية فقط!!

يتعاطى هذا المريض ما لا يقل عن اثنى عشر دواء، ومن واجبنا اليوم الخميس أن نعيد تنظيم هذه الأدوية له قبل خروجه بيومين فمن المقرر أن يخرج السبت ولابد من أن نطلع على آثار سياستنا الدوائية فى خلال الساعات الثمانى والأربعين القادمة قبل أن يخرج ويسافر ويشكو بالتليفون!!

هذا الرجل تصحبه زوجته وهى سيدة ممتازة، لا تزال رغم سنواتها السبعين محتفظة بروح التلميذة المجتهدة، معها بطاقات صغيرة بتفصيلات كل شىء، بالأمس صباحاً فى الثامنة صباحاً أكل زوجها كذا وكذا، وبعدها بسبع دقائق تقريباً قاء، كذا وكذا، وبعدها بساعتين تناول مشروباً وفى الثانية وعشر دقائق اشتكى من كذا.. ثم إنه فقد حوالى كيلو جرام من وزنه! كان مائتى رطل وأصبح ١٩٨، ولا تنس ياسيدى أنه حين دخل المستشفى كان وزنه ٢١١ رطلاً.

وكل دواء وكل جرعة مسجلة فى هذه البطاقات الصغيرة التى تحملها هذه السيدة الدقيقة فى جيب معطفها ومعها قلمها، وهى تستمع إلى كل ملاحظة يبديها الطبيب وتسجلها من فورها فى الموضع المناسب من هذه البطاقات، وزوجها هو الآخر رجل دقيق، يعطيك نقاشه الإيحاء بأنه من الذين يجيدون معاملتك على أنك برىء حتى تثبت إدانتك مع إيمانه التام بأنك متهم حتى تثبت براءتك! وأنتهز فرصة انشغال الطبيب الأكبر فى الرد على تليفون لأسأل السيدة عن مهنة زوجها.. كان ياسيدى قبل تقاعده يعمل فى شركة تأمين، كان يتولى فحص قضايا التعويضات كلها.. صدق رسول الله: «اتقوا فراسة المؤمن»!.

ها نحن ننتهى مع السيدة إلى اتخاذ بعض قرارات فيما يخص هذا المريض أو هذا الزوج فنطلب إليها إيقاف حبوب البوتاسيوم نهائياً، و الإمساك عن مجموعة أدوية المعدة والأمعاء والكولشسين الخاص بالنقرس حتى تهدأ المعدة من تهيجها،

ثم ها نحن نعيد تنظيم جرعات الكابوتين والكوردارون والديجتالز واللازكس ... ونحن نفعل كل هذا قبل أن نقوم إلى حجرة الكشف.

فى حجرة الكشف يكتشف الطبيب أن جرحاً فى الساق لم يلتئم من القصد الأول.. فيذهب بنفسه إلى السكرتارية ليستدعوا أحداً من الجراحة.. لابد من أخذ مسحة من الجرح لإجراء «مزرعة» - ويأتى رئيس التمريض الجراحى، ويتولى تنظيف الجرح وربطه - وها نحن نضيف مضاداً حيوياً جديداً جداً هو الأوجمنتين ولابد من كتابة روشتة للسيدة بالأدوية التى ستحتاج إليها طيلة شهر كامل وباعداد (أقراصها أو كبسولاتها) على وجه التحديد - تسعون قرصاً من هذا، وأربع وعشرون من ذاك، وثلاثون من ذلك، وهكذا وليس هناك شىء بالتقريب فى هذا البلد، فالتحديد قد يكلفهم شيئاً من وقتهم عند التخطيط، ولكنه يوفر لهم أضعاف ما ينفقون فيه.

بعد كل هذا يتلطف الطبيب فى إخبار الزوجة بأنه سيكون سعيداً لو طلبه طبيب الولاية التى يقيمون فيها تليفونياً، وسأله عن كل شىء أو عن أى شىء فإن «ملخص الخروج» لا يغنى شيئاً عن حديث التليفون!! مع أن هذا الذى يسمونه «ملخص الخروج» يتكون من ست صفحات مكتوبة على خير ما تكون الكتابة على الآلة الكاتبة وفيها كل شىء.. ولكنه معنى آخر من معانى الإنسانية! والسيدة تعقب وتحكى لى أنهم كانوا فى زيارة ابنتهم قرب «بوسطن» وكانوا يظنون أنفسهم يعودون إلى ولايتهم فلوريدا بعد أسبوع، وهاهم لا يعودون إلا بعد ستة أسابيع!!

□

أظننى ياسيدى القارىء قد أطلت عليك فيما لا أظنك مغرماً به من هذا الذى نراه كل ساعة أو فى كل ساعاتنا.. لا عليك ولا علىّ من هذا التعذيب.

تريدنى ياسيدى أن أنتقل بك من حجرات الكشف الباطنى إلى معامل القثطرة وعندك حق.. لك الحق فى أن تمل عملنا الإكلينيكى وأن تمل القراءة عنه فى كتاب رحلات.. ولكنى لا أظن أن لى الحق فى أن أتجاهله وأنا أحكى لك.. هل كان فى وسع المتنبى أن يسكت عن الشعب وما فيه؟ نعم أن الشِعْب لشىء جميل.. ولكن أجمل منه الحضارة التى نعيشها اليوم.

وأنا أعرف أن مهمتى فى كتابة رحلاتى شاقة عسيرة لأنى لا أصف الطبيعة كما فعل الذين سبقونى.. ولكنى أحاول أن أصف الحضارة، ووصف الطبيعة لايستلزم إلا الحاسة الصادقة.. أما وصف الحضارة فيستلزم مع هذه أقدارا متنامية من الدقة والإحاطة والتعمق والفهم والترتيب. ويستلزم قبل ذلك أن تكون جندياً من جنود الحضارة لا فارساً من فرسان الطبيعة، أن تكون جندياً قارب نيل الشهادة وأثخنته الحضارة بآثار عمله من أجلها قبل أن تكون فارساً أعطته الطبيعة بقدر ما استمتع بها.

فلنأخذ يوماً من الأيام التى سعدتُ فيها بالعمل فى معمل القثطرة مع الدكتورين جريجبرا، وفكس وهذه هى أسماؤهم الأخيرة أما أسماؤهم الأولى التى نتنادى بها فهى فرناندو، وجيمس. بدأنا بحالة مريض بالشريان التاجى.. نحاول أن نوسعها بالبالون. لم تفلح محاولة البالون.. كان فرناندو جاهزاً بالآلة الجديدة التى تقطع أو تمزق أو تفتت هذا التصلب الموجود على بطانة الشرايين.. وها هو يفعل، ويذيب هذه التصلبات التى فى الجذع الرئيسى للشريان التاجى الأيسر، وفى الفرع الدائرى.

الحالة الثانية ألم فى الصدر غير معروف السبب، وهو محول إلى هذا الصرح

لنرى موقف شرايينه التاجية.. بدأ فيكس فركب القثطرة وأتم كل التحضيرات، وحين جاء فرناندو وصورنا المناظر الروتينية كلها اتضح أن شرايين الرجل كلها لا تعانى من أية ضيق.. سجلنا كل هذا وأجرينا بالطبع ما لابد من إجرائه فى كل حالة وهو تصوير البطين الأيسر بالصبغة بينما كنا ننادى على المريض الثالث.

أما المريض الثالث فقد أتاه احتشاء قلبى منذ أسابيع ثلاثة، واتضح أن سببه خثرة thrombosis اذيبت فى وقتها. وهو الآن محول إلى القثطرة قبل أن تجرى له جراحه الـ By pass، يفحصه الدكتور جريجيرا فيجد الشرايين كلها مفتوحة، ولكن الجذع الرئيسى للشريان الأيسر فيه ضيق لا يتعدى الخمسين فى المائة! ولكن الضيق واضح ومع هذا تمتلىء الشرايين وتفرغ مافيها تماماً.. صحيح أن القلب لا يزال متأثراً بالندبة التى تكونت نتيجة الاحتشاء ولكن الإمداد الدموى سليم..

هل تُجرى لهذا المريض جراحة قد تكلفه حياته وهو الذى لا يعانى من شىء الآن! أم نتركه معرضاً لخثرة أخرى قد تكون كفيلة بالقضاء على حياته - وهو فى الخامسة والأربعين؟ هذا هو السؤال الذى أخذنا نحاول الإجابة عليه لمدة ساعتين.. بعد أن جاء الدكتور تايلور الجراح المحول إليه المريض.. وبعد أن اشترك معنا فى الحديث طبيب القلب الدكتور كايسر.. كنا أربعة نتحدث بينما جيمس صامت.. فلما قاربنا على الافتراق صمم الجراح الكبير على أن يسأل جيمس ما رأيك؟ وهو يعرف أن جيمس لن يقول شيئاً لأنه لو أراد لقال منذ مرحلة مبكرة ولكن الأستاذ حريص على أن يرضى ضميره الذى تعود على سماع كل وجهات النظر.

❑

أما معامل الصدى القلبى (الموجات فوق الصوتية) فتضم ١٦ جهازاً وهى

بالتالى قادرة على أن تؤدى ٨٠ ـ ١٠٠ حالة فى اليوم ـ ولكنها فى المتوسط تجرى ٢٥ حـالة فى اليـوم لأنهـا تعـمل كل يوم ولا تكف عن الـعمل وليس هناك طـابور انتظار طويل يقف على الورق فيقف كل مَنْ فيه.

وفى وسع الأمريكان أن يستمعوا إلى الرأى القائل بأنه لا ينبغى لهم أن يشتروا جهازاً جديداً ولا أن يضيفوا إلى الأجهزة الجديدة جهازاً آخر ما دامت الأجهزة الموجودة من قبل لم تستنفد طاقتها ٢٤ ساعة.. كما ينادى بعض البيروقراطيين المصريين الذين يرتدون مسوح الثورية الشديدة فى الوقوف أمام كل توسع فى الامكانات الموجودة فى مواقع الإنتاج. ولكن هؤلاء الأمريكيين قوم تعلموا منذ زمن حكمة الخالق جل علاه الذى جعل لكل عضو من أعضاء الجسم احتياطيا كبيراً بحيث لا يحس الجسم أى أثر طارىء يعترى أى عضو من هذه الأعضاء.

فنيو الموجات فوق الصوتية والممرضات المتدربات على درجة رفيعة هم الذين يقومون هنا بالفحص الصدوى، ولكن الأطباء وقد خلت أيديهم من المسابر (المجسات) يقفون على رؤوس هؤلاء فى كل حين يراقبون، ويصححون، ويتدخلون، ويعيدون منظراً أو صورة، ويتأكدون من قياس أو نتيجة، ويناظرون جلطة أو كتلة أو أنوريزما ويتتبعون مسار حلقة عضلية أو جهازاً من أجهزة تدعيم الصمام الترالى.. وهكذا.

وكل هؤلاء عندهم فكرة أننى قادم اليوم وأن «كيف» ينتظرنى ولكنه مشغول مع حالة من الحالات فى حجرة قريبة، ويتكرر أمامى اسم «كيف» هذا، وفى النهاية إذا به الدكتور عاكف أبو الرميلة من الضفة الغربية، وفيما بعد أسبوعين وجدت ممرضات الأدوار العليا يختصرون اسمه بطريقة أخرى فيسمونه الدكتور «أبو»

لأنهم لا يعرفون كيف ينطقون «الرميلة»، والدكتور عاكف طبيب فلسطينى متميز. وقد سبقه إلى هذه المعامل طبيب فلسطينى آخر كان واحداً من فلسطينين عديدين هيأ لهم الدكتور جبران الفرصة للعمل فى المستشفى من خلال هيئة فلسطينية محترمة مقرها فى سويسرا تتولى تمويل تعليم هؤلاء إلى الحد الممتاز الذى يجعلهم بمثابة مراجع عليا فى الضفة الغربية المحتلة. وهذه الهيئة الممتازة لا تكتفى بتعليم هؤلاء وإنما تزودهم فور تخرجهم بالأجهزة التى يعملون عليها. ويحرصون فى هذه الهيئة على أن يكون أداؤهم فعالاً ومتميزاً، ومن ثم فإنهم فى اختيار هذه الأجهزة يحرصون على أن تكون أحدث وأعظم الأجهزة المتاحة. وفى مدينة القدس الآن واحد من أحدث أجهزة الموجات فوق الصوتية يتولى تشغيله طبيب فلسطينى نابغ تلقى تدريبه هنا فى كليفيلاند.

ويبدو أن المجتمع الدولى قد بدأ ينظر نظرة مختلفة إلى عرب الضفة الغربية وغزة، فهذا مكتب الإميدايست يبتعث بعض الممرضات من الضفة الغربية إلى مستشفى كليفيلاند، والضوء الأخضر فى الوظائف الأمريكية مضاء تماماً اليوم أمام الفلسطينيين، والله تعالى أسأل أن يفك كربهم جميعاً.

❑

أحب الآن أن أتناول الحديث عن زملائى فى الرعاية المركزة فقد يعطيك هذا صورة حية عن الأطباء الأمريكيين الشبان.

هناك هيكل واضح فى الرعاية كما فى كل مكان حريص على الإنجاز.

❑ هناك ثلاثة نواب يقضون فترة نيابتهم.

□ وهناك ثلاثة زملاء فى عامهم الأول من الزمالة.

□ وهناك اثنان من الزملاء فى أعوامهم المتقدمة من الزمالة.

أما النواب الثلاثة فهم مور More وهو شخص ضخم البنية، حسن الخلق وحسن الخلق أيضاً عمل نائباً للعظام فى بداية نيابته، ولكنه سرعان ما تحول إلى الأمراض الباطنة، وهو جيد الاستماع جيد الفهم.

جاستون شتيرن Stern تخرج تبعاً للنظام الذى يعطى شهادة D.O وهو «دودة كتب» كما يقولون، ولكنه لطيف ومتواضع رغم كل ما قد يبدى من غرور، إذا قدم حالة وكثيراً ما يفعل فإنه يفيض فى تفصيلات لا أول لها ولا آخر، ولكن ميزته الكبرى - كطبيب - أنه حريص على تفسير كل شيء فيَ ضوء ما يعرف، وحين لا يعرف - وقليلاً ما يحدث هذا - تراه ينتقد نفسه إلى حد أنه ذات مرة بدأ حديثه عن الحالة (وكانت حالة لاعتلال عضلة القلب من النوع المتمدد) بالقول بأنه لابد أن يرميه الأستاذ من الشباك!! هكذا قال.. وقد أردف بالسبب: لأنه لم يحقق نجاحاً فى العلاج.

النائب الثالث هو نبيلة رحمة الله وهى باكستانية، وقد ابتدرتنى فى أول أيامنا بالقول: أنت صائم ومن المفترض أننى كذلك، ولكننى كما ترى لا أستطيع الصوم فى ظل هذا العمل، وإلا كانت حماقة! ونبيلة ملمة تماماً بكل المنهج كما نقول فى وصف بعضنا، وعندها فكرة واضحة عن كل فصول كتاب «القلب» وربما ساعدها على ذلك أنها تحمل فى جيب معطفها الأبيض مذكرات ملخصة للأجزاء التى لم تستوعبها بعد من موضوعات القلب.

وقد أتيح لى ذات يوم أن أطلع على نسخة كتابها الخاص «سيسيل لوب» فى

الأمراض الباطنة، فأدركت كم عانت هذه الفتاة فى سبيل دراستها للطب. ولابد أن أسجل أن «نبيلة» التى كانت أصغر من ميشيل ومن جاستون لم تكن تقل عنهما أبداً لا فى مستواها العلمى، ولا فى المستوى المهنى.

❑

يساعد هؤلاء النواب الصغار أو يشرف عليهم ثلاثة آخرون من الزملاء الذين أنهوا لتوهم فترة النيابة.

ريتشارد جريم نموذج بارز للوسامة الأمريكية حيث تجد شعره قد نُسق بالليل، وكل ليل، بحيث يعطى فى الصباح ذلك المنظر الجميل لخصلة تأتى من الشمال إلى اليمين تتقدم الرأس بخمسة سنتميترات على الأقل ، ووجهه الأبيض وعيونه الزرقاء يعطيان لهذا الشعر الأصفر بعدين آخرين، ثم إنه هادىء الأعصاب، خفيض الصوت، وهو النموذج الأمثل فى نطقه الأمريكى للغة الإنجليزية (على طريقة الفرنسيين) بما يحذف من ثلاثة أرباع الكلمة.

واعتقد أنك تعرف أن الأمريكان يختصرون كل ما يمكنهم اختصاره ويحولون الكلمات إلى حروف ورموز وهذا «ريتشارد» هو الآخر بدوره يختصر كل الكلمات إلى حرفيها الأولين ، وحين يفعل ذلك فى براءة يبدو لك كما لو أنه لن يستطيع أن يكمل نطق الكلمة، وإلا ذهبت روحه ضحية لاستكمالها على النحو الصحيح.

يقضى ريتشارد عامه الأول فى زمالة القلب ولهذا يضغط عليه الأطباء الكبار بالأسئلة العلمية وينتظرون منه دوماً أن يجيب بمجرد البدء فى السوال، وكثيراً ما يكون عند حسن ظنهم.

فيليب جرين Green نموذج آخر للهدوء النفسى، والتواضع، والإلمام التام بعمله

وبعمل غيره. لا تكاد تدرك أبداً أنه من الفئة المتوسطة بين النواب، وإنما يعتريك الشعور دائماً أنه من أحدثهم، نظراً لتواضعه، واندماجه التام فى عملهم. بل إنه كثيراً ما يتولى قراءة «الشيت» بدلاً منهم. وعلى قدر تعاطفه التام مع زملائه اللاحقين فإنه حريص على أن ينبه كلاً منهم إلى أية ملاحظة ذات شأن إكلينيكى تفوتهم أثناء النقاش، وهو حين ينبه إلى ذلك خفيض الصوت، حيٌّ، ولكنه قاطع باليقين.

الزميل الثالث Holden كان فى أجازة حين بدأت العمل فى الرعاية المركزة، وحين عاد من أجازته كنت قد انتقلت إلى معمل القثطرة فلم أتعامل معه كثيراً، ولكنه فيما اتضح من حديثنا المتكرر ولقاءاتنا العابرة شخص نبيه منتبه، سليم الفطرة.

❑

إذا انتهينا من هؤلاء الستة بقى لنا الزميلان الكبيران.

أما كلفن فهو من أصل أيرلندى وهو فى التاسعة والثلاثين من عمره وقد وصل فى الطب إلى مرحلة الـ Staff ولكن فى فرع آخر هو طب الطوارىء حيث قضى ٦ سنوات فى طب الطوارىء بالطيران وغيره، واكتسب خبرة كبيرة فى هذا المجال، وكان قد قضى ٣ سنوات نيابة فى الأمراض الباطنة. ثم إذا هو بعد كل ما وصل إليه يبدأ الزمالة من جديد فى أمراض القلب.

ربما كان محظوظاً أن النظام الطبى سمح له بمثل هذا التغيير بعد كل هذا الوقت، وربما كان ملاماً من زملائه أن يبدأ من جديد. ولكنه على أى الأحوال سعيد بهذا الذى هو فيه.

كلفن هذا هو المسئول عن مساعدتى طيلة وجودى فى الرعاية المركزة وهو لا يدخر وسعاً فى ذلك. له الفضل فى تعريفى على مهل بكل تفصيلات نظام التعليم الطبى فى أمريكا، وقد كان يستمع إلى كل اسئلتى واستفساراتى بروح سمحة، وكانت عنده بحكم خبرته فى اكثر من تخصص وفى اكثر من مكان قدرة على أن يستوعب استئلتى وأن يجيب عليها، وله الفضل فى تعريفى - التعريف العميق - بكثير من العاملين فى قسم القلب ومعامله، وبكل الذين فى الرعاية المركزة بالطبع. وعنده قدرة ممتازة، ربما بحكم السن وربما بحكم الخبرة فى تخصصين مختلفين، على منْطقة الحوار- أقصد أن يجعل للحوار رؤساً وعناوين كبيرة بدلاً من أن يتركه يمضى خبط عشواء.

ذات يوم بعد ما تعبنا من الوقوف طيلة ساعتين ونصف الساعة فى مرور الرعاية المركزة قلت له ولزميله مارك: لماذا تمرون وقوفاً - لماذا لا تمرون جلوساً؟ قالا: لو كان الأمر بيدنا لمررنا جلوسا، وبعد أقل من ٢٤ ساعة كان الأمر بيدنا نحن الثلاثة فقد أرسل إلينا الدكتور جبران لنبدأ المرور: نظرنا إلى بعضنا ودعونا الزملاء والنواب إلى حجرة المؤتمرات ومررنا ونحن جلوس!!

كلفن متزوج من زميلة تحمل درجة .Ph.D فى العلوم، وتعمل معنا فى معمل الفسيولوجيا الكهربية (EP) فى قسم القلب ولهما ثلاثة أولاد صغار لهم أسماء أيرلندية جميلة - بارك الله لهما فيهم.

الزميل الثانى وهو مارك رجل طيب يبلغ من العمر ثلاثين عاماً قضى نيابته فى نيوجرسى حيث عاش لفترة طويلة من حياته - وحين تقدم لزمالة القلب كانت رغبته الأولى مايو كلينك، وكانت الثانية مباشرة كليفيلاند - تحققت له رغبته

الثانية ـ وسط عدد كبير من المتقدمين لزمالة القلب كل عام فى الولايات المتحدة الأمريكية.

ومارك رجل عملى إلى أبعد الحدود، حين أسأله عن شيء فإنه كان يؤثر أن يمضى معى إلى موضعه بدلاً من إضاعة الوقت فى الوصف الصعب فى مستعمرة كبيرة.

آراؤه فى الكتب الطبية قريبة جداً من رأيى إلى حد كبير.

من العجيب أننا كنا نحن الثلاثة متوافقين تماماً فى صياغة كثير من آرائنا فى أثناء المرور. تجمعنى بالزميل الأحدث موضوعية الرأى عن خبرة تكاد تكون متقاربة، وتجمعنى بالزميل الأقدم منطقية التفكير وتحكمها فى تصريف الأمور.

ومع هذين الزميلين، ومع أمثالهما فى معامل القثطرة والموجات فوق الصوتية والطب النووى من بعد ذلك، أحسست أننى حيث ينبغى أن أكون منذ زمن طويل ـ لم أحس الغربة لا فى الفكر ولا فى الأداء.. كلاهما وغيرهما جدير بالاحترام، وباعث على الاحترام، وحريص على الاحترام.

❑

أريد أن ألخص لك نظام التعليم الطبى فى ولاية أوهايو كنموذج لولايات أمريكا ـ لأنى أعرف أنك تعرف أن لكل ولاية نظاماً، ولابد عند الكلام عن أمريكا الواسعة من التحفظ ياسيدى بأن تذكر أنك تتكلم عن ولاية، وليس عن كل الولايات ـ ومع هذا فإن هذه الصورة سوف تعطيك على كل حال فكرة عامة عن نظام التعليم الطبى فى أمريكا.

هناك بعد الثانوية العامة كليات ـ هذه الكليات اسمها College يدرس فيها الطالب لمدة ٤ سنوات ـ بعدها ينتقل إلى مدارس الطب Medical School يدرس فيها الطالب ٤ سنوات أخرى. إذاً فان الـ College التى تناظر كليات الجامعة عندنا فى مرحلة البكالوريوس يتخرج فيها الطالب بما يوازى البكالوريوس ـ ويكون مهيئاً لأن يعمل مثلاً بالتدريس، أو أن يعمل كباحث، أو أن يحضر الماجستير أو أن يحضر الدكتوراه فى فلسفة العلوم التى هى Ph.D. وطبعاً قبل كل هذا يتمنى أكثر خريجى هذه الكليات أن يكونوا مهيئين لأن يكملوا دراستهم الطبية فى المدارس الطبية، ولكنهم بالطبع وطبقاً للنظام التعليمى ليسوا كلهم مؤهلين لدراسة الطب فى مدارسه التى هى medical school.

وفى ولاية أهايو على سبيل المثال أكثر من ٢٠ كلية ـ يتخرج فيها ما يزيد على ثلاثة آلاف، ومن بين هؤلاء تتاح الفرصة لأعداد قليلة فى ست مدارس طبية هى على سبيل الحصر على النحو التالى:

- المدرسة الطبية فى جامعة أوهايو الحكومية فى كولومبوس، وتقبل ما لايزيد عن ٢٠٠ طالب فى العام الدراسى.
- المدرسة الطبية فى جامعة كيس ويسترن ريزرف فى كليفيلاند، وتقبل حوالى ١٠٠ طالب.
- الكلية الطبية فى جامعة سنسناتى Cincinnati، وتقبل حوالى ١٠٠ طالب.
- كلية أوهايو الطبية فى توليدو، وتقبل حوالى ٥٠ طالباً.
- المدرسة الطبية فى جامعة رايت الحكومية فى دايتون Dayton ، وتقبل حوالى ٩٠ طالباً.

□ كلية أوهايو الطبية فى أثينا ـ أوهايو، وتقبل حوالى ٢٠ طالباً.

وهذه الكلية بالذات تسير حسب نظام أقل شيوعاً فى أمريكا، وهى تمنح من خلال هذا النظام شهادة D.O. إختصاراً لما يسمى (Doctor of Osteopathic) وهذه الشهادة فى النظام التعليمى الأمريكى معادلة تماماً لشهادة M.D.

وبالإضافة إلى هذه المدارس توجد الكليات الطبية الآتية:ـ

١ـ كلية أوهايو الطبية فى سنسناتى.

٢ـ كلية الطب Eclectic فى سنسناتى.

٣ـ كلية ميامى الطبية فى سنسناتى.

٤ـ القسم الطبى فى جامعة ووستر ـ كليفيلاند.

٥ـ كلية توليدو الطبية فى توليدو.

٦ـ كلية كليفيلاند الطبية فى كليفيلاند.

٧ـ كلية كليفيلاند puti فى كليفيلاند.

٨ـ جامعة أوهايو الحكومية ـ كلية الطب Homeopathic فى كليفيلاند.

٩ـ جامعة شمال شرق أوهايو ـ كلية الطب فى رووستون.

ويتخرج فى المدارس الطبية الست التى ذكرناها عدد لا بأس به من الدكاترة يحملون لقب M.D. فيكون أمامهم طريق مفتوح على النحو التالى:

يبدأون سنة الامتياز Internship تليها سنوات النيابة Residency (التى تؤهلهم لشهادة البورد الأمريكية فى التخصصات العامة) تليها سنوات الزمالة Fellowship (التى تؤهلهم لشهادة البورد الأمريكى فى التخصصات الخاصة كالقلب).

فإذا أردت التخصص فى الأمراض الباطنة، فإنك سوف تبدأ بعام الامتياز فى الباطنة - فهو بمثابة عامك الأول من النيابة وتكون محتاجاً بعده إلى عامين آخرين فقط لتكون قد قضيت فترة النيابة.

الميزة الكبرى هنا - التى أحلم بأن أجد سبيلاً إلى تطبيقها فى مصر أن كل الخريجين يقضون فترة نيابة حسب ما يرغبون من تخصصات، بل وفى المكان الذى يرغبونه بقدر الإمكان (تبعاً لترتيب رغباتهم، كثيراً ما تكون الرغبة الأولى هى الأولى بالتحقيق).

ولكن المأساة التى أصرخ منها فى مصر هى مأساة الفرص غير المتكافئة.

فعلى حين يلقى الطبيب المقيم الذى نال وظيفة فى الجامعة حظاً ممتازاً فى تعليم ممتاز وفرص ممتازة فإنه أيضاً يحظى ببدء النيابة مباشرة. أما الباقون فإنهم غالباً ما ينتظرون مالايقل أحياناً عن ٣ سنوات لبدء النيابة. ربما لا يكون الفرق بين الواحد منا من المحظوظين وبين الآخرين إلا درجات قليلة. ومع هذا يكون الفرق حوالى ثلاث سنوات فى بدء الخبرة الاكلينيكية التعليمية. والمشكلة ليست فى السنوات الثلاث وإنما فى تباعد الفترة بين الدراسة العلمية [بجانبيها النظرى - العملى والاكلينيكى] وبين التطبيق الميدانى والاعتماد على النفس.

الميزة الثانية التى أحب أن أتحدث عنها هى أنهم لا يبدأون نيابات فى الباطنة الخاصة والجراحة الخاصة كما حدث وتوسعنا فى هذا الاتجاه فى جامعات مصر.

الله وحده يعلم أيهما الصواب أن نبدأ بالتخصصات الدقيقة فى مرحلة النيابة أم أن نؤجلها إلى مرحلة الزمالة.

على أية حال أحب أن أضع أمامك صورة لتوجهات خريجي إحدى هذه المدارس الطبية الست فى صياغة مستقبلهم العملى.

المدرسة هى مدرسة رايت المسماة على اسم الأخوين أصحاب محاولة الطيران المشهورة. يتخرج فى هذه المدرسة هذا العام ٨٤ سيتوزعون تبعاً لرغباتهم على النحو التالى:

٢٤ فى الأمراض الباطنة العامة،

٨ فى طب الأطفال،

٩ فى النساء والتوليد،

٩ الجراحة،

٤ فى الأشعة،

٢ فى التخدير،

١٩ فى طب العائلة.

و٥٢ (٦٢٪) من الخريجين بنات، ومن هؤلاء قضت إحداهن أسبوعين معنا فى قسم القلب وكانت تخطط لأن تقضى فترة نيابتها فى الأمراض الباطنة فى مستشفى صغير اسمه مستشفى St. Lukes Hospital وهى تفضل العمل فى هذا المستشفى الصغير على العمل فى كليفيلاند لأنها أثناء دراستها درست فى الإثنين ووجدت [وهى على صواب] أن العمل فى سان لوكس سيكون أكثر فائدة وإمتاعاً لها لأنها ستشاهد حالات كثيرة من الأمراض الشائعة والموجودة فى كل مكان، أما فى كليفيلاند فهى لن ترى إلا الحالات التى تقدم بها المرض واحتاجت القدوم إلى

هذا الصرح العظيم.. أليس هذا التفكير لشابة فى مقتبل عمرها دليلاً على بشائر النجاح العملى والمهنى. وتضيف كيه (وهذا هو اسمها وهو اسم جاميكى ينطق كحرف الكيه الإنجليزى تماماً) إن كليفيلاند كلينك ليس فيها النظام الجميل المريح الذى فى ذلك المستشفى الذى عرفت الناس فيه ودرست أحوالهم جميعاً.

بقىّ أن أطلعك على جانب مهم من حياة خريجى الطب وطلابه، فكيه هذه متزوجة منذ أربع سنوات مع تأجيل الإنجاب.. فى عاميها الأول والثانى فى المدرسة الطبية درست التشريح والبيولوجى والفسيولوجى والباثولوجى والفارماكولوجى والميكروبيولوجى والوراثة. وفى عامها الثالث آثرت الجراحة والنساء والأطفال وطب العائلة والنفسية. وفى عامها الرابع درست الباطنة والطوارىء والأشعة والتخدير والقلب والأعصاب والعظام.

❑

أحب أن أحدثك بعد هذا عن طالب الطب الأمريكى.

لطالب الطب هنا احترام شديد.، أمامى بالصدفة على مكتب قاعة الاجتماعات خطاب من مؤسسة كليفيلاند كلينك التعليمية لطالب فى السنة الرابعة أنه قد رُشح طالباً فى قسم القلب لمدة شهرين، وأن له إذا وافق على ذلك أن يحضر صباح يوم الاثنين، إلى مبنى التعليم، فيتسلم الكارنيه الأصفر الخاص به، وهو كارنيه بالاسم بلا صورة، وأن يتسلم معطفين، وله أن يترك سيارته فى الأماكن التالية... وأن يحضر يومياً من السابعة والنصف وحتى الخامسة من الاثنين وحتى الجمعة، وأن الطبيب (فلاناً) سيكون هو المسئول عن تعليمه، وأن السكرتيرة (فلانة) هى المسئولة عن الأمور الإدارية التى قد تعرض له.

هذه كما ترى حقوق الطالب ويمكنك أن تتصور مدى ما يمكن أن يفيد منه وكيف يمكن له أن يتكون علميا ومهنيا على نحو ممتاز.

ولابد من أن أصور لك انطباعاتى عن هؤلاء الطلاب على نحو ما خبرتها:

تحضر المؤتمر من مؤتمرات الأقسام فتجد هؤلاء الطلاب (بنين وبنات) هم أكثرنا جميعاً أناقة وشياكة.. فشعورهم خرجت لتوها من الصالونات، وربطات عنقهم هى الأحدث، والأجمل، وهى الموضة، وقمصانهم هى الألمع والأكثر جاذبية.. وهكذا.

أصدقك القول أننى بعد حين من الوقت أصبحت قادراً على تمييز الطلاب حين نكون فى قاعة المؤتمرات وهى مظلمة نشاهد شرائح أو أفلاماً بمجرد أن أنظر إلى رءوسهم وأعناقهم وقبل أن أصل إلى صدورهم حيث يضعون الكارنيهات الصفراء.

ومعنا فى قسم القلب طالب نشيط هو تيم، فى السادسة والعشرين، وعروسه فى الثامنة والعشرين، وهو يقيم هنا فى كليفيلاند وهى تقيم فى كنت - حيث يقيم والداه، وصاحبنا لا يغادر المستشفى قبل أن يطمئن على كل مرضاه، ويبلغ النائب والممرضات بملاحظاته عن أية اضطرابات فى نظام القلب، وروح المسئولية عنده فى الحقيقة تبشر بكل خير لهذا الشعب الأمريكى الذى يعتقد العالم فى تهاونه أو عبثه أو إهماله!!، وفى كل أسبوع يذهب هذا الطالب إلى كنت مرة واحدة ليرى خطيبته: «لأن السيدات يخترعن لك مشكلات كثيرة ياسيدى إذا غبت عنهن لفترة ما»!!

هكذا يقول لى.

هذه هى «الكلينك» التى ليست تابعة لكلية من كليات الطب، ومع هذا أبت على

نفسها إلا أن تنشىء مؤسسة تعليمية لنفسها - وأن تتولى تعليم الأطباء النواب و أطباء الامتياز والزملاء والممرضين والفنيين بطريقة نموذجية جعلتها بالفعل واحدة من المؤسسات التعليمية فى الطب الأمريكى، وإن لم تكن كلية طب.

وفى أثناء إقامتى فى كليفيلاند وبعد كتابة هذه السطور، علمت من الصحف اليومية أن اتفاقاً قد وُقع بين جامعة أوهايو الحكومية وبين «الكلينك» لتتولى «الكلينك» التدريس لطلاب مرحلة البكالوريوس كما تتولى التدريس للمتخرجين، ومن المنتظر أن يبدأ هذا النظام من العام الدراسى القادم مباشرة.

لست فى حاجة إلى أن أذكر لك أنى علمت بالخبر قبل زملائى الأمريكين الذين لا يقرأون الصحف الأمريكية بذلك القدر من العناية التى كنت أقرؤها به، وعندما أنهيت إليهم الخبر فى أثناء اجتماعنا ابتسموا لحقيقة أن المعلومات ملك لمن يطلع عليها لا لأهل البيت.

❑

دعنى أحدثك الآن عن بعض النشاط التعليمى الذى أشارك فيه فى قسم القلب ففى كل يوم فى الصباح المبكر ما بين السابعة والنصف والثامنة والنصف يجتمع كل «زملاء» القلب فى قاعة مؤتمرات القلب ثلاثة أيام، وفى قاعة مؤتمرات الباطنة يومين آخرين حول شىء ما - يوم الأربعاء مثلاً هو يوم صدى القلب (الموجات فوق الصوتية) تعرض عليهم فيها حالات مشوقة أو صعبة أو نادرة.

وفى كل يوم من الأيام الأخرى نستمع جميعاً إلى محاضرتين ممتازتين، ربما عن شىء جديد، ربما عن رؤية جديدة لمشكلات طبية قديمة..

ومن أبدع ما يمكن وصفه تلك المحاضرة التى اشترك فيها أربعة.. طبيب

عرض المعلومات الاكلينيكية، وآخر عرض نتائج الفحص بالموجات فوق الصوتية، وثالث عرض نتائج الفحص بالرنين المغناطيسي، ورابع عرض نتائج الفحص بالقثطرة..

وكانت الحالة التي ناقشنا تشخيصها بكل هذه الوسائل: تمزق الأنورزيميا التي في جيب في القلب اسمه جيب فالسفا،... ولا أملك أن أصف المحاضرة والمناقشات التي دارت بعدها إلا بأنها شيء عظيم عظيم.

هكذا تمضي الساعة الأولى من وجودي في المستشفى في كل يوم وبعد ذلك ينصرف كل زميل إلى وحدته أو معمله الصغير.

❑

هل أحدثك عن النشاط التعليمي في وحدة الرعاية المركزة مثلاً.. ريثما يستقر الجميع في أعمالهم في الوحدة وكانوا كلهم جدداً.. بعد أسبوع تقريباً وزع الدكتور جبران عليهم أوراقاً علمية تحوي رءوس موضوعات لكي يحضروها ويلقوها ويناقشوا فيها.. متى سيتم ذلك.. عندما تهدأ الأمور في حوالي الثالثة عصر كل يوم.

وكل يوم خميس يأتينا في وقت الغذاء ما بين الساعة الثانية عشرة والساعة الواحدة واحد من أطباء الأشعة هو الدكتور وايت وهو شعلة من الذكاء والمنطق والخبرة (الإكلينيكية والإشعاعية) ومعه مجموعة هائلة من أفلام الأشعات الممتازة يضعها واحداً بعد آخر، أو اثنين وراء اثنين على الفانوس أو الفانوسين ويشرح ما نسميه بالنظري على الأفلام مباشرة!! رائع وأكثر من رائع.. ثم بعد أن يعطينا المعلومة يكثر من التطبيقات عليها.

فى ثانى مرة كان زميلاى مشغولين بحالة من الحالات الحرجة، فأصبحت أنا [تقريباً] أقدم الموجودين، وأكثرهم خبرة على حد تعبيرهم. وعلى هذا كان المترددون فى التشخيص يأخذون جانب الأقدم حين يعجزون عن تكوين رأى ذاتى. والحمد لله قلما خذلهم الوقوف إلى جانب الأقدم.

❑

وانتقل للحديث بك عن النشاط التعليمى فى حجرة جانبية من معمل وظائف القلب كانت بالنسبة لى كالكنز المسحور. لا يمرُّ مريض على المستشفى أو العيادات الخارجية إلا ويؤخذ له رسم قلب، ويوضع هذا الرسم بالطبع فى ملف هذا المريض. ولكن كل هذه الرسومات تُسجل على شريط أو كاسيت وترسل الكترونياً إلى هذه القاعة المسماة بقاعة رسومات القلب.. حيث تُطبع كل الشرائط القادمة، وتوضع على هذه المنضدة الطويلة التى عليها كل وسائل القياس الخاصة برسومات القلب.. بدءاً من المساطر إلى الفرجارات وحتى العدسة المكبرة.. إلخ. هذه الأدوات البسيطة التى نحتال بها على فهم أسرار رسم القلب الكهربائى.

ويأتى زميل Fellow من زملاء القلب فيتولى قراءة الرسومات جميعاً بعد ما قرأ التشخيص الذى سجلته أجهزة الكمبيوتر، فإذا وافق الزميل على تشخيص الكمبيوتر كتب أنه موافق ووقع بحروفه الأولى، وإذا أراد تصحيح شىء صححه، ووقع، وإذا أراد إضافة شىء أضافه، ووقع.

وهناك خمسة من أساتذة القلب Staff يتولون القراءة النهائية، لكل واحد منهم يوم: ويوم الثلاثاء هو يوم الدكتور الفلبينى، ويوم الأربعاء هو يوم الدكتور هودجان، ويوم الخميس هو يوم الدكتور ويتللو، ويوم الجمعة هو يوم الدكتورة جاميس وهى أصغر أعضاء هيئة أطباء القلب على الإطلاق.

كان من حظى أن أتولى وظيفة الزميل القارىء لمدة أسبوع كامل، فى اليوم الأول كان معى زميل، وفى الأيام الثلاثة التالية كنت بمفردى. ربما تعرف من عيوبى أنى عجول فى كل شىء.. وما إن فهمت نظامهم فى التعقيب والإضافة إلا كنت أذهب إلى تلك الحجرة مبكراً وأبدأ العمل مبكرا بحيث أصبح الفنيون والعاملون فى حجرة رسم القلب لايلاحقوننى بالرسومات(بدلا من أن تكون الرسومات مكدسة أمامى) ويعجبون من تواجدى المبكر وتركيزى وسرعتى..

وكان أعضاء هيئة الأطباء Staff كريمى الخلق معى إلى حد كبير، كانوا بالطبع يشجعوننى، وقد تعلمت منهم الكثير جداً.. ولابد أننى تعلمتُ من هؤلاء ما يعلمه لنا أساتذتنا فى مصر من النظر إلى الحالة الإكلينيكية للمريض قبل التعليق على رسم القلب، والكمبيوتر ياسيدى هو الآخر لا يغفل ذلك مع أنه «بلا قلب» على حد تعبير الأدباء الذين لم يعاشروه!!.. فهو يذكر لك القسم من المستشفى الذى فيه المريض، ويذكر لك عمره، ويذكر لك الأدوية التى يتعاطاها كذلك، بالطبع ليس كل الأدوية، وإنما تلك التى لها تأثير مباشر على رسم القلب، أو على العناصر المحددة لكثير من التغيرات فى رسم القلب كالبوتاسيوم والكالسيوم.

❑

على أن أعظم مايحب أساتذتى فى مصر أن يسمعوا عنه فى هذه الحجرة هو ذلك النظام المحكم الذى يسمح للأستاذ حين يريد أن يراجع هذا الرسم لهذا المريض على رسم قديم له أن يجد الرسم القديم فى دقيقتين أو ثلاث، ما عليه إلا أن يطلب الرئيسة، والرئيسة ستسأل الكمبيوتر والكمبيوتر يعطيها تاريخاً قديماً رُسم فيه القلب من قبل، والرئيسة تأمر الشرائط المغناطيسية بأن تخرج لنا صورة من هذا الرسم القديم وتناول لنا الرسم القديم بعد دقيقتين من طلبنا له!!

أعرف حالة لأستاذ طب مصرى سافر للعلاج، وأجريت له قثطرة.. كان يغنيه عن سفره وجود رسم قلب قديم ينبىء عن أن هذه التغيرات التى وجدت حديثاً كانت بسبب مرض حديث أو أنها لم تكن بسبب مرض فى القلب، أو أنها من باب الاختلافات الطبيعية. وأعرف حالات كثيرة مرت علينا فى يوم الدكتور هودجمان لم يكن لها حل إلا التحويل لإجراء دراسات الكهرباء الفسيولوجية ما لم يوجد هذا الأرشيف العظيم الذى ساعدنا على توضيح طبيعة تسارع ضربات القلب: هل هى من فوق الأذين أو من البطين.

كان الدكتور عبدالعزيز الشريف يقول دائما إن أصعب فصل فى علم القلب هو اللغط الانقباضى.. وكنت أستعير مقولته مع تغيير الموضوع إلى فصل «تسارع ضربات القلب من الـ ق ر س العريض Tachycardia of wide QRS، ومع هذا فأنا الآن أعتقد أن الأرشيف الجيد يزيل صعوبة هذا الفصل الذى أتحدث عنه، بحيث تبقى مقولة الدكتور عبدالعزيز الشريف أقرب إلى الواقع فى وجود نظام جميل وفى غياب جهاز الموجات فوق الصوتية.

أما فى وجود التكنولوجيا (جهاز صدى القلب: الموجات فوق الصوتية) وغياب النظام (الأرشيف الجيد) كما هو الحال فى مصر فستبقى لمقولتى السيادة حتى يسود النظام.

وبعد أن ننتهى من تعليقاتنا على رسم القلب يتناولها الفنيون فينقلون تعليقاتنا إلى الكمبيوتر ويرسلونها إلى الأقسام المعنية بمرضاها إذا كانت لها علاقة مباشرة بتشخيص أو علاج ، ثم يضعون هذه الرسومات بكل ما عليها من تأشيرات وتعليقات فى جانب من الحجرة تحت لافتة تقول إن هذه الرسومات متاحة لمن

يريدها من الأطباء والطلاب والنواب والممرضات وهؤلاء يقرأونها ويتعلمون منها شريطة الالتزام بشيء واحد، هو ألا يعيدوها إلى هذه الحجرة حتى لا تحدث ارتباكاً بوضعها مع الرسوم الجديدة.

❑

إلى عهد قريب كانوا يقرأون الدراسات الصدوية بنفس الطريقة التى يتعاملون بها مع رسومات القلب، ولكنهم منذ شهور كفوا عن هذا اللقاء الذى كان يعقد فى الخامسة من بعد الظهر، وأصبحوا يكتفون بعرض أسبوعى للحالات النادرة أو الطريفة.

وفى معمل وظائف القلب أيضا مكتبة تعليمية عن استخدامات الموجات فوق الصوتية فى كافة أمراض القلب، بعض هذه الشرائط انتجته جمعية القلب الأمريكية بالتعاون مع مايو كلينك، وبعضها الآخر أنتجته الأقسام العلمية فى الشركات المنتجة لأجهزة الموجات فوق الصوتية كشركة ألكاسون، وشركة هولت بيكارد.. وما عليك إلا أن تضع الشريط وتقرأه كما يقرأ الناس شرائط الفيديو.. تُبطيء الشريط حين تحتاج التأمل، وتسرع حين تكون فى حاجة إلى تخطى الفقرة كلها.

وفى تقارير القثطرة التى يوسعون بها الشرايين يحرصون على وضع الصور المطبوعة من الأفلام فيما قبل التوسيع وفيما بعده لكل شريان أو فرع من شريان أو جزء من شريان أجريت له عملية التوسيع.. سواء بالبالون وبتقطيع الخثرة وبوضع الدعامات Stent فى الجدار.

فإذا تركنا قسم القلب إلى قسم الباطنة العامة وجدناهم يجتمعون أيضاً فى مؤتمرات صباحية، أنا مشغول عنها بالطبع بمؤتمراتنا الصباحية، ولكننى اكتشفت أنهم يجتمعون كل ظهيرة فيما بين الثانية عشرة والواحدة فى مناقشة حالات طريفة من التى تقابلهم، وفى يوم الخميس يخصصون اللقاء لمناقشة بعض المقالات المنشورة فى المجلات الطبية، ويدير هذه الاجتماعات فى حضور الأطباء الكبار الدكتور باتريك وهو أحد الحائزين لوظيفة مشارك اكلينيكى Clinical Associate وهو فى مقتبل عمره ويتمتع هذا الطبيب بقدرة فائقة على الرذالة على زملائه شأنه شأن كاتب هذه السطور الذى يدعو الله سبحانه وتعالى أن يخلصه من عيوبه المتزايدة.

سأضرب لك مثلاً واحداً على رذالته، كان فى يوم الجمعة ينبه إلى وجود صور من المقالات التى ستناقش الخميس القادم، فإذا به يرجو النواب أن يقرأوا هذه المقالات جيداً ثم يردف بالقول أما الذين يحضرون الخميس من دون أن يقرأوها فإنى أرجو أن يأخذوا غذاءهم وينصرفوا قبل بدء مناقشة هذه المقالات!!

على هذا النحو تجد كل صباح قائمة بالكمبيوتر تضم مالا يقل عن مائة وخمسين لقاء علمياً تتم فى قاعات هذا المستشفى المختلفة فى الأوقات المختلفة - وأمام كل لقاء مكانه وموعده وعدد المفترض حضورهم، والسكرتيرة التى يُستعلم منها عنه، وبعض الملاحظات عما إذا كانت هناك شروط للحضور أو مزايا له، فى حالة المحاضرات المرتبطة ببرامج التعليم الطبى المستمر أو برامج الدراسات لما بعد التخرج، أو الساعات المعتمدة للتأهيل.. إلخ.

❑

كانت هذه نماذج سريعة أردت بها أن تعطيك فكرة عن الأداء التعليمى فى هذا

الصرح الطبى، فإذا بهرتك بعد ذلك النتائج التى يخرج بها المرضى، فتذكر أن الهدف من الطب عموماً ليس علاج المريض فحسب ولكنه **تقدم التعليم الطبى من أجل علاج هذا المريض فى المستقبل بصورة أمثل!!!**

فإذا وجدتنى فى موضع آخر من كتاب آخر من كتبى مصمماً على أن أصبغ الطب كله فى مصر بصبغة تعليمية بحيث تنتمى كل مؤسسات العلاج الطبى وكل مؤسسات الرعاية فى مستوييها الثانى والثالث كله إلى مؤسسات التعليم الطبى طبقاً لنظام متكامل ومتدرج فاعلم أن جذور فكرتى القديمة قد لقيت الأمل الكبير والتحقق على أرض الواقع فى هذا المستشفى.

ومَنْ قال إن الطب الأمريكى بحاجة إلى أن يتقدم بخطوات واسعة أو حتى خطوات بطيئة؟ إنما تتقدم اليوم التكنولوجيات التى تساند خطوات التقدم الطبى التى تحققت فيما مضى، ويتقدم تطوير هذه التكنولوجيات وتسخيرها لخدمة أهداف التشخيص والعلاج والمتابعة.. وتكون النتيجة أن الطب يتقدم، ولكن الفن الذى فى الطب نفسه لا يصيبه شىء أبداً من التقدم.

ربما تعجب بشدة لهذا الكلام ولكنك إذا كنت طبيباً أمريكياً وعاملت الأطباء الفرنسيين ووجدتهم مثلاً يغيرون الجرعة المعهودة فى العلاج لمجرد الإحساس بأن تقليل الهيبارين من ٦٠ ألفاً إلى ٣٠ ألفاً قد يعطى نفس النتيجة.. ربما تصيبك الدهشة القاتلة أن ترى الأطباء يفعلون هذا الشىء من دون أن تكون لديهم دراسات مطولة أثبتت بكل التحليلات الإحصائية صواب ظنهم.

دعك من تغيير الجرعة، وتعال معى إلى تطوير طريقة من الطرق الجراحية مثلاً: كيف يدرسها الأمريكيون تفصيلاً وكيف تنتهى دراساتهم إلى أنها لا تمثل

تحسناً يذكر إلا بنسبة ٥ ٪. ثم إذا هم يتجرأون وينفذونها وتنجح.. بعد نجاحها يمارس الإعلام الأمريكى الخطير دوره الجهنمى، فنسبة نجاحها إلى ما قبلها كالسماء إلى الأرض ومخاطرها لا تتعدى ١ ٪ وتحسيناتها تمثل ٩٥ ٪ من طموحات الأطباء فيما قبل.. وهكذا.

❑

أحب أن أختم هذا الفصل بأن أذكر لك رأيى القائل إن نجاحات الطب فى أمريكا مزيج من:

❑ تكنولوجيا دائبة البحث.

❑ وإعلام ذى صوت عال..

وهذا المزيج قائم على مزيج آخر أخفى من أن تراه عيناك مباشرة:

❑ فالتكنولوجيا مزيج من:

• بحث نظرى مستميت .

• ومجوعة لا متناهية من قواعد معلومات لا تترك صغيرة ولا كبيرة..

❑ والإعلام مزيج من.

• دراسات علمية اجتماعية وإنسانية عميقة.

• ولغة تجمع بين الدقة والتعبير فى قدرة عالية على المواءمة لا يستطيعها إلا مَنْ وصل إلى درجة الساحر الذى يبلع النار وهو يسير على السلك المشدود بقدم واحدة مصنوعة من خشب هش يذروه الرياح .

وهأنذا ألخص لك عوامل النجاح بطريقة أخرى هى أقرب ما تكون إلى ما تعودنا عليه من طريقة واحد اثنين فأعدد لك:-

- قواعد معلومات مجددة كل دقيقة، متواصلة فيما بينها إلى أقصى الحدود، سهلة الاستخدام.
- دراسات علمية واجتماعية وإنسانية عميقة قادرة على مخاطبة الإنسان بكل ما فى الإنسان.
- استخدام سحرى للغة لا يقل سرعتها فيدركها الزمن الذى لا يتوقف.. هى تعرف سرعته ولهذا تخافه خوفاً محسوباً ولكنه يتزايد مع كل حين لأن الزمن نفسه يكتسب من التكنولوجيا أبعاداً هائلة.. فالتكنولوجيا تخلق من الزمن «فرانكشتين» يرعبها هى نفسها.. التكنولوجيا لابد أن تنتشر حتى تحقق العائد الكفيل بأن يجعلها تزدهر.. وانتشارها يصعب من ازدهارها ويجعلها مطالبة بتحقيق ازدهارات أكبر فى أوقات أقصر.
- إعلام لابد أن يكون قادراً على إدخال التكنولوجيا حتى ولو كان هذا على حساب تكنولوجيات أخرى كان هو نفسه المبشر بها!!

وهذه هى أمريكا التى تظهر للطبيب تحت الميكروسكوب فى أى مؤسسة طبية من مؤسساتها الناهضة.

❑

هل تحدثنا ياسيدى عن بعض الميكروبات التى تحيط بهذه الصورة تحت الميكروسكوب للطب الأمريكى، نعم بوسعى أن أحدثكم ولكنه حديث هواجس:

- ألمح هناك - حقيقة لا أرى ولكن ألمح - ضجراً متواصلاً من الإنفاق على كثير من البنود فى الرعاية الصحية بما لا يمثل مردوداً حقيقياً على صحة المواطن الأمريكى، ولا على تقدم العلم.
- ألمح أيضا بوادر رغبة على استحياء من النفس فى الخروج بالطب الأمريكى كنشاط اقتصادى إلى ما وراء الأطلنطى.
- ألمح أيضا وبصعوبة بالغة رغبة فى إعادة تقييم نظم التأمين الصحى المطبقة وخصوصاً مع التفاوت الرهيب فى تكاليفها، وعوائدها، ومردوداتها، وضجر الأطباء من بعضها، وإحجامهم عن مواصلة العمل فيها.
- ألمح أخيراً خوفاً من تزايد اعتماد أمريكا على التكنولوجيات الأوروبية واليابانية فى الأجهزة الطبية إلى أكثر من الاعتماد شبه الكلى القائم الآن. وفى ظل انتفاء أو تقلص الرغبات الأمريكية فى اقتحام هذه الأسواق!!

7

المسلمون فى أمريكا
طيف واسع من الألوان الجميلة

المسلمون فى أمريكا
طيف واسع من الألوان الجميلة

المسلمون فى أمريكا شأنهم شأن المسلمين فى كل مكان طيف واسع من الألوان الجميلة التى لكل منها حلاوته وروعته وجلاله. والاختلافات بينهم لا تعكس إلا حرص المسلمين على إعلاء كلمة الله وعلى إعطاء العقل مكانه فى الوقت ذاته.

قوة الحجة تجعلك إذا كنت منصفاً لا تميل إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء بقدر ما تكتشف فى نفسك تواضعها وميلها إلى القول بأنك لست بفقيه ولا مفت.

كلٌّ يعمل من منظور ما، وهو يظن نفسه مقصراً فى حق دينه رغم كل إخلاصه لمنظوره. والإسلام الحقيقى يزدهر فى قلوبهم ويتنامى فى عقولهم ويتعمق فى أعمالهم، وفى كل يوم ترتفع له راية جديدة إلى جانب راياته التى ارتفعت من قبل..

وطبيعة الدين السمح تقربهم، وروح النظام الجميل فى الإسلام الجميل تتيح لهم

اللقاء المنظم بدون تكلف ولا عناء: سواء فى الصلوات و فى رمضان الكريم، شهر البركة والإحسان.

ومع هذا لابد من أن أحدثك من باب الرواية فقط عن بعض الاختلافات الجميلة:

- فهذا إمام مسجد لا يمانع فى أن يأخذ المجتمع الإسلامى من البنك قرضاً محدد الفائدة ليقيم التوسعات.. ولكن إمام مسجد المدينة المجاورة يرفض المبدأ من أصله.
- هذا المركز الإسلامى الكبير فى لوس أنجليس لا يمانع فى تناول اللحوم المتاحة باعتبارها من طعام أهل الكتاب.. ولكن إمام مسجد ابن تيمية فى ذات المدينة يرى أنه لا مبرر لتناول هذه اللحوم ما دام هناك جزار يذبح حسب الشريعة الإسلامية.
- هذا المسجد يتيح لقاء الرجال بالنساء لأنه يريد للمجتمع الإسلامى أن يتعارف وأن تتقوى روابطه بالمصاهرة مثلاً، أما ذلك المسجد فلا يتيح على الإطلاق أى اتصال بين الرجال والسيدات.

❑

أعظم ما فى كل هذا أن المسجد دائماً يحمل لافتة المركز الإسلامى. أقصد أنه ليس هناك مركز إسلامى ليس بمسجد.. أرجو وأدعو الله أن أشهد اليوم القريب أن تكون المدرسة هى الأخرى المركز الإسلامى.

من الطرائف التى حدثت لأحد زملائنا فى كليفيلاند أنه وهو سائر بسيارته فى

أيامه الأولى فى شارع يوكليد وجد مبنى عليه لافتة مسجد القرآن Qurran Mosque وقد سُرَّ صاحبنا سروراً عظيماً لهذا المبنى الجميل الأنيق وواجهاته الزجاجية وعزم على الصلاة فيه.. لكنه كان كلما أتى باباً وجده مغلقا، وعليه لافته تعلن أن الدخول للأعضاء فقط - ومن وراء الأبواب الزجاجية لمح موائد وبارات عامرة بأنواع الكحوليات كلها وبلا حصر ولا عدد.. قال فى باله: ما علينا.. أمريكا فيها كل شيء.. قد يكون مسجداً ونادياً فى ذات الوقت!! وفى النهاية وجد صاحبنا باباً مفتوحاً يخرج منه شخص، تقدم إليه وسأله: أين باب الصلاة؟ من حسن الحظ أن هذا الشخص كان مثقفاً وعرف أن صاحبنا مسلم، فأجابه أن هذا ليس بمسجد، وإنما هو أحد نوادى إحدى الجمعيات الماسونية وقد اتخذت له هذا الاسم من قبيل «الديكور» الثقافى ليس إلا.. وتطوع الرجل فأرشد صاحبنا إلى «مسجد بلال» أو «المسجد الحقيقى» كما قال له.

❑

أول جمعة لى فى كليفيلاند صليتها فى مسجد جميل، قرب الجامعة، وميدان الجامعة هو مسجد عقبة بن نافع رضى الله عنه وأرضاه. وقد عرفت أن الطلبة المسلمين فى جامعة كيس ويسترن هم الذين تولوا شراءه وتجهيزه كمسجد.

المسجد بسيط ولكنه كفيل بأداء كل وظائف المسجد والمركز الإسلامى.

ألمح كثيراً من المصريين بين الحاضرين وكذلك ألمح فلسطينيين وعراقيين وشواماً.. بالإضافة إلى الأمريكيين.

السيارات تحيط بالمسجد فى شوارع جانبية كثيرة، والإمام اليوم هو أحد التجار

الفلسطينيين وهو صاحب الجزارة الإسلامية، الخطبة باللغة العربية ثم بالإنجليزية Brothers & Sisters .

الدعوة إلى الإفطار تتجدد، وفى هذا الأسبوع أيام إضافية كذلك. بعد الصلاة ألتقى بكثيرين من طلاب بعثات منح السلام المصرية.

المسلمون الأمريكيون حريصون وهم يقودون سياراتهم بعد أداء الجمعة أن يبطئوا سيرهم ليلقوا علينا السلام هم وأسرهم كذلك.

شعور جميل وعظيم ينتاب المرء منا وهو يرى نفسه واحداً من جماعة تجمعها كلمة واحدة هى كلمة التوحيد ـ تختلف الألوان والألسنة والمهن وتجتمع فى المسجد. تختلف المصالح والأغراض والوجهات وتجتمع مختلف السياسات والأوطان وتدور رحى الحروب هناك ونجتمع هنا.. ونحن نجتمع فى كل حين لأن الله أراد لنا أن نكون أمة واحدة، وسنكون بإذنه تعالى أمة واحدة، ويداً واحدة، وإلى يوم الدين.

❑

انتويت فى جمعة تالية أن أصلى فى مسجد بلال الذى فى شارع يوكليد، أين هو بالتحديد؟ لا أعرف. كل ما أعرفه أنه على يمينك وأنت ذاهب إلى وسط البلد من المستشفى. ما علينا نسأل سائقة الأتوبيس، وبالتأكيد لن تعرف، فيكون من الطبيعى عندئذ أن تقترح عليك حلاً: ادفع التذكرة واركب وتطلع إليه حتى إذا وجدته فاهبط.. وهذا ما حدث بالفعل..

ووجدت مسجد بلال رضى الله عنه وأرضاه، ونزلت.

المسجد جميل جداً، وخلفه ساحة انتظار شاسعة هائلة، وهى حافلة، والحمد لله، بالسيارات.

المسجد مبنى بالخشب «الأوك» الجميل، وسقفه على هيئة شبه قبة جميلة بحيث تمتد أذرع متناسقة من الخشب لتكون سقفاً يتوسطه دائرة صغيرة جداً، وفيما عدا هذا فلا يتكون من السقف سطح أبداً إنما هو جمالون جميل جداً.

والمسجد من طابقين: فى الدور الأرضى دورات المياه واستراحات، وقاعات واسعة، وفى الدور العلوى ساحة الصلاة وهى مغلقة تماماً لابد أن تفتح باباً حتى تدخل إليها وفى هذه الطرقة التى تستقبلك بعد صعودك السلم تجد حجرات للمكتبة وللإمام وللسكرتارية، وتجد رفوفاً للأحذية.. ثم ينفتح الباب المنزلق [الذى سرعان ما يعود إلى الإقفال] لتدخل إلى قاعة الصلاة.

خارج ساحة الصلاة وجدت الأحذية على رفوفها لا تتجاوز سبعين فقلت فى سرى كأنهم هنا أيضاً لا يلتزمون جميعاً بتركها فى الخارج على الرفوف المعدة.. فلما دخلت المسجد وجدت أن عدد المصلين والمصليات قليل بالفعل.. هذا أول مسجد أصادف فيه المصلين فى مقدمة المسجد والمصليات فى المؤخرة بدون فاصل إلا المساحة الكبيرة الخالية من المصلين.

الخطيب يخطب بالإنجليزية مع حماس جميل يجعل الإنجليزية تتسع لعبارات الوعظ الدينية القصيرة المكررة المؤكدة.

وحين أقيمت الصلاة أمنا شيخ جليل استطاع قراءة الفاتحة بالعربية وفى الركعة الأولى قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وفى الركعة الثانية ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾... (كأننى أنا الإمام). لم أستعذب اللغة العربية يوماً كما استعذبتها وهى تخرج مكسرة تماماً

من فم الشاب الذى أقام الصلاة، ثم وهى تخرج ما بين التكبير والسلامة من فم هذا الشيخ الذى صلى بنا الجمعة.

❑

أحسست بعد الصلاة كم نحن مقصرون فى حق هؤلاء..

إننا سعداء فى كثير من الأقطار الإسلامية بما نقدم لهم فى بعض الأحيان من فتات الأموال، أو حتى الأموال الضخمة.. ولكننا نحرمهم أعظم شىء يربطهم بالإسلام وهو اللغة. لو بذلنا فى نشر اللغة العربية واحداً فى المائة مما تبذل فرنسا فى نشر اللغة الفرنسية إلى الحد الذى وصفه لى صديق دبلوماسى أوروبى بقوله: «وإجبار الناس على تعلمها» أقول إننا لو بذلنا واحداً فى المائة من هذا الجهد فى تعليم اللغة العربية لهؤلاء الذين يستحقونها لصلحت دنيانا وصلح ديننا.

إن فرصاً لا تعد ولا تحصى متاحة ومفتوحة ومرحبة بنصف مليون خريج من الشباب للقيام بدورهم فى تعليم اللغة العربية للمجتمعات الإسلامية المنتشرة فى أمريكا وأوربا وأفريقيا وجنوب شرق آسيا.. كل ما هو مطلوب من هؤلاء أن يلموا باللغة الإنجليزية (أو غيرها) إلى الحد الذى يتيح لهم التعامل مع هذه المجتمعات من أجل الأخذ بيدها إلى تعليم اللغة العربية.

هذه المجتمعات ليست منظمة، وليس أسهل من تعليم الصغار الذين يتوق أهلهم إلى أن يسمعوا القرآن الكريم باللغة العربية من أفواه أبنائهم.. سواء كان هؤلاء الأبناء لا يعرفون العربية أصلاً أو كانوا يعرفونها وشغلتهم الحياة الدنيا وزوجاتهم عن أن يجدوا وقتا يعلمون فيه أولادهم لغتهم الأولى.

كثيرون من الذين يقرأون هذا الكلام سيتأكدون من أننى أبالغ حين أقول نصف

مليون ، ولكننى أخشى أن أقول إننى متواضع لأنى لو ذكرت الرقم الحقيقى لكان أكثر من هذا بكثير.

❑

تسألنى بالطبع عن التمويل.. إن هذه المجتمعات قادرة على التمويل لأنه لا يكلف شيئاً.. هل توافقنى على أن تتصور المسألة بشىء من التقريب.. هل ألف دولار كمرتب لهذا الخريج كافية - تجيبنى بنعم - هل عشرة فى المائة من مصروفات إدراية لتنظيم العملية كافية - تجيبنى بنعم - هل عشرة فى المائة كافية كذلك لاستئجار أماكن. إذا لم يكن هناك مساجد أو جمعيات إسلامية أو جمعيات أخرى لتعطى الفرصة لاستغلال المكان الخاص بها فى ساعات محددة أو لم ترحب السلطات الحكومية بإدراج هذه العملية ضمن البرامج الأساسية أو الإضافية فى المدارس التى تضم عدداً كبيراً من هذه الجاليات مع أن معظم السلطات توافق على مثل هذا المبدأ من مبادئ احترامها لحقوق الإنسان، وحقوق الأقليات وحرية العقائد والتزامها بالمواثيق الداعية إلى كل هذا. ومع أن الهيئات الشعبية المحلية بالطبع حريصة بحكم النظم الديمقراطية على تهيئة هذه الفرص.

هل تكفيك عشرون فى المائة على سبيل الإجمالى كاحتياطى للحالات التى تحتاج تمويلاً لبند المكان تجيبنى بنعم.. إذاً هل مبلغ لا يتعدى وخمسمائة فى الشهر يكفى لتعليم خمسين طفلاً أو قل أربعين... يمثل مشكلة؟؟

❑

فى أمريكا وحدها مالا يقل عن خمسمائة ألف مجتمع مسلم فى آلاف المدن الصغيرة وأحياء المدن الصغيرة (عدد المسلمين فى التقديرات المتوسطة حوالى ٦

ملايين مسلم) ينتظر هذه الفرصة لتكون هناك مدرسة ولو من مدارس الفصل الواحد فى أيام الآحاد لإنجاز هذا الأمل العظيم الذى نتطلع إليه جميعاً بدون أن نبذل فى سبيله إلا الجهود المتفرقة.

❑

وأحب أن نفهم أن هذا المشروع كفيل بتطوير برامجه ومناهجه يوماً بعد يوم بحيث يصبح خير وسيلة لوجود اللغة العربية فى موقعها الصحيح.. وبحيث يغفر للمسلمين التقصير التاريخى لبعض دولهم الرائدة كالدولة العثمانية فى حق لغة القرآن.

ومن الواضح أننى أتحدث عن اللغة العربية كلغة ثانية إلى جوار الإنجليزية وهذا لا ينفى بالطبع أننى أتمنى أن أعيش حتى أرى العربية هى اللغة الأولى لكل مسلم على وجه الأرض..

والأمر ياسيدى يستلزم حماساً تاماً لإتمام العمل من خلال منهج متصل معروفة حلقاته على مستوى العالم الإسلامى كله بحيث يقول الصغير فى اندونيسيا إنه وصل إلى الدرس السابع والثلاثين من الحلقة الثانية مثلاً فيجد نفسه عند انتقال والديه إلى أمريكا يواصل الدرس الثامن والثلاثين مباشرة، وبحيث يستطيع وهو فى لوس أنجليس إكمال ما بدأه وهو فى نيويورك.

وفى هذا المجال لابد أن أذكر أن أمريكا نفسها حتى اليوم لا تزال تعترف بعدة لغات أوروبية كلغة أولى:

فاللغة الأسبانية هى اللغة الأم لثمانية ملايين شخص أمريكى.

واللغة الألمانية هى اللغة الأولى لخمسة ملايين آخرين.

واللغة الإيطالية هى اللغة الأم لأربعة ملايين أخرى.

وأرجو أن يأتى اليوم الذى تحتل فيه العربية مكانتها اللائقة بها وبخاصة أنها اليوم هى اللغة الأولى الحقيقية لمئات الألوف من الأمريكيين المهاجرين.

❑

لكن المشكلة التى، ينبغى علىّ مع هذا، أن أنبه إليها هى أن هذه اللغة العربية تتراجع مع تعاقب الأجيال وربما يمتد هذا التراجع إلى أن تصبح لغة «أجنبية» عند أبناءِ عرب مسلمين ولدوا فى المجتمع الأمريكى لأم أمريكية أو لأم عربية مسلمة يشغلها عملُها عن أن تعلم أبناءها العربية فتتركهم يعاملونها بالإنجليزية وكأنها تعامل «الخواجات»!! وتبقى العربية بينها وبين زوجها فحسب!!

أعرف أن الأمر يحتاج إلى وقفه متأنية وإلى قدر كبير من التخطيط الدقيق، وإلى أن نبدأ بولاية أو إقليم على سبيل التجريب الرائد، كذلك يحتاج الأمر إلى كثير من التنظيم واحترام النظام الأمريكى والتوافق معه تماماً.. ويحتاج، ثالثاً، إلى كتاب جيد التأليف، وجيد الطباعة، وجيد الإخراج، ويحتاج قبل هذا كله إلى شبه هيئات مركزية تتولى تنظيم بعض الأمور كتوزيع الكتب، وتسكين المدرسين والحصول لهم على التأشيرات..

وكل هذا، إذا عرفت الحياة الأمريكية، يمكن تحقيقه من باب واسع وقوى ميسر بإذن الله.

أعرف أن العقبة الكبرى أمام مثل هذا المشروع هى مسألة التراث المتراكم من إدعاء الفضل وحب الحمد بما لا نفعل وهو ما قد يقودنا دون أن ندرى إلى حد

العذاب وهو ما حذرنا منه القرآن الكريم، والاحتمال الأكيد فى أن تتنازع الإشراف على المشروع هيئات مختلفة كالخارجية والأوقاف والتعليم والقوى العاملة والهجرة وكل المؤسسات التى تتبعها هيئات لا علاقة لها من قريب أو بعيد بمثل هذا المشروع.. ولكن لو كان الأمر بيدى لتركته للقوات المسلحة كما يفعلون فى فرنسا حين يجعلون تعليم اللغة الفرنسية فى الخارج أحد البدائل للخدمة العسكرية الوطنية الإجبارية.. حتى نقل هؤلاء الشباب إلى الخارج أتركه لإدارات النقل الحربية لو أمكن!! حتى لا تصرخ مصر للطيران من رزق وفير لا تتعب فى الحصول عليه وهى مع ذلك تشكوه كما تفعل فى مواسم الحج وعودة المدرسين!!

واحب أن أقول إننى لا أحلم بمستقبل لا يتحقق أو غير قابل للتحقيق ولكننى أتحدث عن ماض تأخر وقوعه فى ظل انشغالنا التام بأزمات كثيرة ابتلعت أوقاتنا وألهتنا عن مسئوليات سوف يسألنا عنها ربُنا يوم القيامة، فنحن نترك الخريجين بلا عمل ثمانى سنوات ونترك أخوة فى الإسلام يتعطشون إلى مَنْ يعلمهم لغة القرآن فى الوقت ذاته.

❑

لم أنته من أحلامى هذه إلا وكنت خارج قاعة الصلاة أمام المكتبة فقلت لنفسى ادخل المكتبة، لعلى أجد أملاً، فإذا باليأس يقتلنى.. المكتبة مجموعة من كتب تصلح لأى مدرسة أمريكية ليس إلا.. وعلى رف أو رفين فقط من المكتبة الكبيرة جداً تجد مجموعة من المصاحف وصحيح البخارى وكتاباً فى فلسفة توما الاكوينى.. كل هذا ما يمكنك أن تعتبره ذا علاقة ولو إلى حد بعيد بمكتبة فى معبد!.. وعلى المنضدة التى تتوسط المكتبة تجد أعداداً من جريدة آسيوية إسلامية

إعلامية مصورة فاشرة الطباعة والورق.. إذاً فالطريق إلى هنا معروف ولكنه لا يحمل ما ينبغى أن يحمله من زاد يبنى ضمائر المسلمين!!

❑

أما أعداد المسلمين فى أمريكا فتتضارب حولها الأرقام.. كما تتضارب حول أعدادهم فى كل مكان، وليس من شأن هذا الكتاب أن يحلل لك هذا التضارب لأن مؤلفه لا يعهد فى نفسه اليوم القدرة على الزعم بالوصول إلى الحقيقة فى أمر يحتاج القول الفصل فيه إلى كثير من الوقت والدراسة، ومع هذا فإنه يمكن بوسائل كثيرة تقدير أن عدد المسلمين فى الولايت المتحدة الأمريكية لا يقل عن ستة ملايين شخص.

أحب، بهذا المناسبة، أن أشير إلى خمس موجات للهجرة إلى أمريكا:

- ❑ الأولى فيما بين ١٨٧٥، ١٩١٢ وفى هذه الهجرة جاء كثير من التجار وطلائع أدباء المهجر.
- ❑ الثانية فيما بين ١٩١٨ و ١٩٢٢ حيث تدفق مسلمو لبنان للعمل فى مصانع فورد للسيارات فى ولاية ميشجان.
- ❑ الثالثة فيما بين ١٩٣٠ و ١٩٣٨ فى فترة الكساد العالمى فى الثلاثينات.
- ❑ والرابعة فيما بين ١٩٤٧، ١٩٦٠ فيما بعد الحرب العالمية الثانية.
- ❑ والخامسة فيما بين ١٩٦٧ و ١٩٧٣ وهذه هى أصعب فترات وموجات الهجرة لأنها استنزفت خيرة العقول العربية، ويكفى أن أذكر لك إن حوالى عشرين ألف مصرى فيما بعد هزيمة ١٩٦٧ قد هاجروا إلى ولاية نيوجرسى وحدها.

لاشك أن أمريكا تفيد من العقول المسلمة أكثر مما يفيد المجتمع الإسلامى.. لا تظننى أديباً مجازى اللفظ وأنا أكتب هذه العبارة.. ولكن تأمل معى ما يعنيه أن أعداد الأطباء الإيرانيين العاملين فى مدينة نيويورك وحدها يفوق كل الأطباء الإيرانيين العاملين فى إيران. دعك من إيران وتأمل الجانب الآخر من الخليج العربى الذى تصر الصحافة الأمريكية على تسميته بالخليج الفارسى حيث العراق.. تجد أن أكثر من ثمانين فى المائة من مبعوثى العراق إلى أمريكا لا يعودون إلى العراق بعد انتهاء بعثاتهم..

دع العراق وإيران واذهب إلى الباكتسان حيث لايزال الناس هناك يتعلمون بالإنجليزية ويتخرجون من جامعات تدرس الإنجليزية وأنت تجد أنه ما إن تعلن نتيجة الامتحانات حتى يكون أكثر من تسعين فى المائة من خريجى مدارس الطب واقفين أمام أبواب السفارتين الأمريكية والإنجليزية يبدأون كل المحاولات الكفيلة بالحصول على فرصة لقضاء النيابة فى هذه البلاد.

أنا لا أعرف هل كان الأمر يصبح كذلك فى مصر لو كنا ندرس الطب بالإنجليزية بدلاً من الأنجلوآراب .. ولكننى متأكد من أنه لن يصبح كذلك على الأقل فى هذا الجيل، لأن معظم خريجى ما يسمى مدارس اللغات الإنجليزية يعملون معنا فى مصر ولا يندفعون إلى هذا الذى يندفع إليه الباكستانيون بله الباكستانيات..

لن أحدثك عن أهل الشام فأنت تعرف حبهم جميعاً للمهجر، من أجل كل ما هو جميل فى المهجر، وحرصهم على الوطن من أجل كل ما هو جميل فى الوطن، ولكنى أحب أن أنتقل بك إلى هجرة الأيدى كما حدثتك عن هجرة العقول فلا تزال

أمريكا بحاجة إلى كثير جداً من الأيدى، وللطبقات الفقيرة غير المتعلمة مكان أيضاً فى أمريكا: فى مزارع قصب السكر فى فلوريدا، وفى نصب السياج حول مزارع المواشى والخيول فى تكساس، وفى جمع التفاح فى فرجينيا، وحصاد الشمندر فى كولورادو، وجنى القطن فى نيومكسيكو. وأعمال النظافة فى الفنادق الأمريكية.

❑

ومع هذا كله فلازلت أرى أنه لابد من أن يشعر المسلمون فى كل مكان أن أمريكا ليست لغيرهم فقط، ذلك أن العالم الجديد كله نعمة من الله للعالم القديم كله. فإذا كان ولابد من الحديث عن الحقوق التاريخية (على أساس أننا فى عام ١٩٩١ التالى لعام الحقوق التاريخية) أو حقوق الاكتشاف فإنه من الثابت أن المسلمين قد اكتشفوا العالم الجديد فى القرنين العاشر والثانى عشر الميلادى قبل كولمبس كما أن المسلمين السود دخلوا أمريكا منذ ١٥١٨ كمهاجرين لا كرقيق، وقد أفاض فى تأصيل هذه المعانى جابر هاشم فى كتابه MY NATION الذى صدر عن المطبعة الإسلامية فى ١٩٨١.

❑

ولابد أن نفهم أن ظلم المسلمين الأفارقة وإحضارهم كرقيق لم يحدث فى مطلع العالم الجديد وإنما بعد ذلك بقرن أو بقرنين وقد بلغ ذروته فى الفترة ما بين ١٧١١ - ١٨١٠ على يد التجار البريطانيين والفرنسيين.

❑

ليس هذا الكتاب مجالاً مستفيضاً لأحدثك فيه عن الدعاة إلى الإسلام وزعماء الحركات الإسلامية الحقيقية أو تلك الممولة للعمل ضد الإسلام.. ولكنى أستطيع أن

أدلك على مجموعة من الكتب تحدثك عن هؤلاء: فهناك كتاب «المسلمون فى أوروبا وأمريكا» نشرته دار ازيس للتأليف والنشر والترجمة والنشر للأستاذ على المنتصر الكتانى ١٩٧٤ . وهناك كتاب «العرب فى المهجر الأمريكى» للأستاذ عامر إبراهيم القنديلجى، نشرته وزارة الإعلام فى بغداد عام ١٩٧٧ .

وهناك دراستان مهمتان للأستاذ كمال كامل نمر الذى يشغل منصب المشرف التربوى فى الأكاديمية الإسلامية السعودية فى واشنطن: الأولى بعنوان «أحوال المسلمين فى أمريكا تربوياً»، وقد نشرتها فى الدوحة عام ١٩٨٥ مؤسسة الشرق للعلاقات العامة للنشر والترجمة. والثانية تحمل عنوان «أضواء على أحوال خير أمة أخرجت للناس فى الولايات المتحدة الأمريكية» وقد نشرتها عام ١٩٨٦ دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع فى بيروت.. وهناك أيضاً كتاب «الجالية الفلسطينية فى الولايات المتحدة الأمريكية» لرياض مقصود (١٩٨٠) . وهناك كتاب مهم يحمل عنوان «صورة العرب فى أمريكا» للدكتور عبدالقادر أبو شريفة، نشر فى شيكاغو عام ١٩٨٥ .

وفى فترة سابقة على هذه الفترات نشرت عدة دراسات وانطباعات هامة عن أمريكا لعل القراء يذكرون منها كتاب الأستاذ مصطفى أمين عن أمريكا (الذى أعيد طبعه مؤخراً فى القاهرة) وكتاب الأستاذ سيد قطب الشهير، وأذكر بهذه المناسبة أنى التقيت فى مكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة حوالى عام خمسة وثمانين بأستاذة أمريكية كانت تبحث عن الحلقات الأصلية التى نشرها سيد قطب عن زيارته لأمريكا قبل أن يجمعها فى كتاب.. يبدو، والله أعلم، أن حرص الدارسات الأكاديمية الأمريكية بلغ الحد الذى جعلهم يقارنون الحلقات الأصلية بما

نشر بعد هذا في الكتاب، ايروا ما قد يكون سيد قطب قد حرص (افتراضيا) على تعديله فيما بين النشرين!!

وقد نشرت عن هذا الكتاب دراسات كثيرة منها كتاب «أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب» لصلاح عبدالفتاح الخالدى نشرته دار المنارة للنشر والتوزيع فى ١٩٨٥.

❑

ليس هذا الكتاب مجالاً لتحليل أو تلخيص هذه الكتب وإن كنت أود أن أتمكن من ذلك عن قريب بعون الله، ولكنى لا أستطيع أن اترك هذا الموضوع دون أن آخذ على الدكتور كمال نمر تحامله على «ولاس محمد. والهيئة الإسلامية الأمريكية» فعلى الرغم من أن الدكتور نمر يشهد لولاس محمد بأنه قام بإصلاحات جذرية فى عقيدة جماعته، وأنه بادر إلى تغيير اسم الجماعة من أمة الإسلام أو البلاليين إلى الهيئة الإسلامية الأمريكية The American Muslim Mission وأنه أعلنها صريحة مدوية فى مؤتمر رابطة العالم الإسلامى سنة ١٩٧٧ فى مدينة نيو آرك أنه هو وأتباعه جميعاً يشهدون منذ اليوم أنهم مسلمون سنيون يتبعون القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وطالب أتباعه بالصلاة والصيام والحج، وعلى الرغم من شهادة الدكتور كمال نمر لهم بالقوة والنشاط، فعددهم يربو على مليون عضو ولهم إذاعة تنقل دعوتهم لأعضاء الجماعة وللآخرين ولهم ١٥٦ مسجداً فى ٣٩ ولاية وفى العاصمة «واشنطن» على الرغم من كل ذلك إلا أن الدكتور كمال نمر شأنه، شأن كل الأكاديميين، يتحفظ فيردف الحديث عن كل ذلك الخير بقوله: «إن هناك مَنْ ينظر إلى هذه الجماعة نظرة ريبة وتوجس معتبراً أنهم منبثقون عن القاديانية وهى

جماعة مرتدة عن الإسلام، .. ولك ياسيدى الدكتور نمر أن تتحفظ ولكن أن يكون تحفظك هذا صادراً أو مؤيداً فحسب بعبارات الأستاذ الكتانى كما نقلت فأمر لا نستطيع أن نقرك عليه لأن الكتانى نشر رأيه فى ١٩٧٤ وأنت بنفسك [الدكتور كامل نمر] الذى تنبهنا إلى ما أعلنه ولاس محمد (صريحة مدوية فى عام ١٩٧٧) .. إذاً كان لابد ياسيدى وأنت تملك أداة البحث العلمى الحق أن تدلنا على حقيقة رأيك حتى لو كان متحفظاً.. أما أن تورد رأياً مخالفاً لرأى آخر لتعقب على الرأى الأول فحسب فأسلوب لا بأس به فى البحوث الأكايمية ليظهر ما نسميه بالموضوعية، أو لينبىء عن كثرة مطالعتك للمصادر المختلفة متضاربة الآراء.. ولكنه يصبح قاصراً فى كتبٍ من شأنها أن تحدث المسلمين عن عقائد إخوانهم المسلمين وتطورات هذه العقائد.

❑

بقى أن أتحدث عن انطباعاتى عن الدعوة والدعاة وأكون مخطئاً إذا زعمت لك أن فى وسعى أن أتناول هذا الحديث باستفاضة أو فهم عميق، ولكنى مع ذلك أحب أن أذكر لك انطباعى المهم عن ضرورة إجادة اللغة الإنجليزية ومعرفة المجتمع الأمريكى ذلك أن الإسلام فى أمريكا لا يحتاج إلى دعاة من أولئك الذين يرون أنهم غير ملزمين بتعلم اللغة الإنجليزية لأن القرآن نزل بلسان عربى، ولأن لسان أهل الجنة عربى، أو من أولئك الذين يجدون كراهة فى تناول طعامهم بالشوكة..

أما المؤسسات التى تنظم عمل أولئك الدعاة فينبغى أن تكون أبعد ما تكون عن الولاء القومى!! طبعاً من الغريب أن تقرأ ياسيدى القارىء عبارة مثل هذه التى صدمتك بها لتوى! ولكن هذه هى الحقيقة التى لابد أن نعرفها، فالدعوة لوجه الله

والولاء لدعوته ودينه ينبغي أن يكون الهدف الأول والوحيد لكل مؤسسة تعمل من أجل دعوة التوحيد.. فيما عدا ذلك فإن الولاء القومي والحزبي كفيلان بتحويل الأئمة إلى كُتّاب تقارير، والدعاة إلى موزعي منشورات حتى وإن كانت هذه المنشورات كتباً.

ومع أن طريق الدعوة الإسلامية في المهجر محفوف بكثير من المصاعب والمخاطر فإني لا أشك لحظة واحدة في أنه سوف يلاقي نتائج طيبة ربما بأكثر مما يتوقع العاملون فيه، والله غالب على أمره.

كتب للمؤلف

□ فى التراجم

- الدكتور محمد كامل حسين (جائزة مجمع اللغة العربية) (طبعتان) ١٩٧٨، ٢٠٠٣
- مشرّفة بين الذرة والذروة (جائزة الدولة التشجيعية)(طبعتان) ١٩٨٠ ، ٢٠٠١
- الدكتور أحمد زكى ـ (طبعتان) ١٩٨٤ ، ٢٠٠٣
- مايسترو العبور المشير أحمد اسماعيل ـ ١٩٨٤
- سماء العسكرية المصرية الشهيد عبد المنعم رياض ـ ١٩٨٤
- الدكتور على باشا إبراهيم ـ ١٩٨٥
- الدكتور سليمان عزمى باشا ـ ١٩٨٦
- الدكتور نجيب محفوظ باشا ـ ١٩٨٦
- توفيق الحكيم من العدالة إلى التعادلية ـ ١٩٨٨

- اسماعيل صدقى باشا - ١٩٩٨
- سيد مرعى - ١٩٩٩
- يرحمهم الله - ١٩٨٤
- مصريون معاصرون - ١٩٩٩

◻ دراسات أدبية ولغوية

- كلمات القرآن التى لانستعملها (طبعتان) - ١٩٨٤
- على هوامش الأدب - ٢٠٠٣
- أدباء التنوير والتاريخ الإسلامى(طبعتان) - ١٩٩٠
- من بين سطور حياتنا الأدبية - ١٩٨٤
- فى ظلال السياسة: نجيب محفوظ الروائى بين المثالية والواقع - ٢٠٠٣

◻ دراسات نقدية لكتب السير والمذكرات

- فن كتابة التجربة الذاتية : مذكرات الهواة والمحترفين - ١٩٩٧
- مذكرات وزراء الثورة - ١٩٩٤
- الثورة والحرية: مذكرات المرأة المصرية (طبعتان) - ١٩٩٥ ، ٢٠٠٣
- نحو حكم الفرد : مذكرات الضباط الأحرار (طبعتان) - ١٩٩٦ ، ٢٠٠٣
- محاكمة ثورة يوليو: مذكرات رجال القانون والقضاء - ١٩٩٩
- الأمن القومى لمصر: مذكرات قادة المخابرات والمباحث - ١٩٩٩

- من أجل السلام: مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية ـ ١٩٩٩
- الطريق إلى النكسة: مذكرات قادة العسكرية المصرية (١٩٦٧) ـ ٢٠٠٠
- النصر الوحيد : مذكرات قادة العسكرية المصرية (١٩٧٣) ـ ٢٠٠٠
- فى أعقاب النكسة : مذكرات قادة العسكرية المصرية (١٩٦٧ – ١٩٧٢) ـ ٢٠٠٠
- على مشارف الثورة : مذكرات وزراء الملكية (١٩٤٩ – ١٩٥٢) ـ ٢٠٠١
- فى خدمة السلطة : مذكرات الصحفيين ـ ٢٠٠٢

❑ أعمال موسوعية

- القاموس الطبى نوبل [بالاشتراك مع د. محمد عبد اللطيف] ـ ١٩٩٨
- الببليوجرافيا القومية للطب المصرى (٨ أجزاء) ـ ١٩٨٩ ـ ١٩٩١
- دليل الخبرات الطبية القومية وتاريخ التعليم الطبى الحديث ـ ١٩٨٧
- مجلة الثقافة [١٩٣٩ ـ ١٩٥٢]: تعريف وفهرسة وتوثيق ـ ١٩٩٣

❑ أدبيات التاريخ المعاصر

- التشكيلات الوزارية فى عهد الثورة ـ ١٩٨٦
- الوزراء (طبعتان) ـ ١٩٩٥، ١٩٩٧
- المحافظون (طبعتان) ـ ١٩٩٥
- البنيان الوزارى فى مصر [١٨٧٨ ـ ١٩٩٦] (طبعتان) ـ ١٩٩٦، ٢٠٠٠
- النخبة المصرية الحاكمة [١٩٥٢ ـ ٢٠٠٠] ـ ٢٠٠١

- قادة الشرطة في السياسة المصرية [١٩٥٢ ـ ٢٠٠٢] ـ ٢٠٠٣
- كيف أصبحوا وزراء .. دراسة في صنع القرار السياسي ـ ٢٠٠٣

□ في الفكر السياسي

- الفلسطينيون ينتصرون أخيراً ـ ٢٠٠٣
- المسلمون والأمريكان في عصر جديد ـ ٢٠٠٣

□ في الفكر التربوي

- مستقبل الجامعة المصرية ـ ٢٠٠٠
- آراء حرة في التربية والتعليم ـ ٢٠٠١
- تكوين العقل العربي : مذكرات المفكرين والتربويين ـ ٢٠٠٣

□ في الشئون العامة

- القاهرة تبحث عن مستقبلها ـ ٢٠٠٠
- مستقبلنا في مصر: دراسات في الاعلام والبيئة والتنمية (طبعتان) ـ ١٩٨٥
- الصحة والطب والعلاج في مصر ـ ١٩٨٧
- التنمية الممكنة : أفكار لمصر من أجل الازدهار ـ ٢٠٠١

□ وجدانيات

- أوراق القلب [رسائل وجدانية] ـ ١٩٩٤
- أوهام الحب [دراسة في عواطف الأنثى] ـ ١٩٩٩

□ من أدب الرحلات

- رحلات شاب مسلم(ثلاث طبعات) ـ ١٩٨٩ ، ١٩٩٦، ٢٠٠٣
- شمس الأصيل فى أمريكا (طبعتان) ـ ١٩٩٤ ، ٢٠٠٣

□ فى طب القلب

- أمراض القلب الخلقية الصمامية ـ ٢٠٠١
- أمراض القلب الخلقية : الثقوب والتحويلات ـ ٢٠٠١

المحتويات

شمس الأصيل في أمريكا

«وأنا أعرف أن مهمتى فى كتابة رحلاتى شاقة عسيرة لأنى لا أصف الطبيعة كما فعل الذين سبقونى .. ولكنى أحاول أن أصف الحضارة ، ووصف الطبيعة لايستلزم إلا الحاسة الصادقة .. أما وصف الحضارة فيستلزم مع هذه أقداراً متنامية من الدقة والإحاطة والتعمق والفهم والترتيب .. ويستلزم قبل ذلك أن تكون جندياً من جنود الحضارة لا فارساً من فرسان الطبيعة ، أن تكون جندياً قارب نيل الشاهدة وأثخنته الحضارة بآثار عمله من أجلها قبل أن تكون فارساً أعطته الطبيعة بقدر ما استمتع بها »